رواية

2003

عبد الله مكسور

نوفل

رواية

2003

عبد الله مكسور



نوفل

صدرت عام 2021 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2021
بناية أنطوان، الشارع 402، المكلّس، لبنان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **© ????? / ???**
تصميم الخرائط داخل الكتاب: **م. رامي موسى**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
طباعة: **؟؟؟؟؟**

رقم الإيداع (النسخة الورقية): 978-614-469-838-9
رقم الإيداع (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-839-6

الفصل الأول

أصابعُ كفِّهِ ترتعشُ وهو يكتب بقطعة إظفرٍ مغمَّس بالدم:

«لا شيء يدوم؛ ولا حتّى أنا، صوتي الذي طالما تناغمَ مع صداهُ، سينقطِع، وإلى الأبد».

يتحسَّسُ رؤوس أصابعه المُدماة، هناك نتوءٌ بارزٌ في الجهة اليمنى من ظفره الأيسر، يعضُّ بما بقي من أسنانه الأمامية عليه وينزعه، يبلِّلُهُ بالدم الذي تخثَّرَ بعضُهُ على ساعد يده اليسرى، صار أشبه بقلم رصاصٍ زالَ الخشبُ عنه، يكتب بحروف مقطَّعة على الحائط، تهذي كلماته، سيموت بعد قليل، إنّها أنفاسه الأخيرة في هذه الحياة التي تشبه كلّ شيء عدا الحياة، لقد مات حين وُلِد وحيداً لأمّه ومنسوباً إلى أبٍ غير والده البيولوجي الذي قتلَهُ قبل أيّام.

وُلِـد حكمت علي محمد ناظم العمر بعد الاضطرابات التي أصابت الوطن بسبعةِ أشهر، تحديداً في الثالث والعشرين من الشهر العاشر. أمُّهُ شريفة، زوجة علي محمَّد ناظم العمر الذي اعتُقل في شوارع المدينةِ مع آخرين، وبعد أسبوعين من الخروج إلى الريف خوفاً من موتٍ مجّاني وبحثاً عن حياة، عادت وحيدة إلى منزلها تنتظر عودة زوجٍ لم يرجع، لتبدأ رحلتها في البحث عنه. قصدَت كلَّ

مكانٍ ينتسب إلى السلطة حتى أوصلتها الأقدارُ إلى القلم السياسي حيث استقبلها شرطي يقف على البوابة الرئيسية، وعدَها بأنَّه سيبحث عن الرجل المفقود بعد أن أخذ عنوان سكنها، وفي اليوم التالي طُرِقَ باب البيت وكان الشرطي زائراً للأمّ كي يخبرها أنّه وجد اسم زوجها في السجلّات، وهذا يعني أنّه معتقلٌ في الطابق السفلي، وأنَّ إخراجه يتطلَّب مالاً كثيراً. لم تتوانَ السيدة شريفة حينها عن إخراجِ كلّ ما بقي من ذهبها ووضعه في حِجر الشرطي، لكنَّ الزوج لم يخرج ولم يعد.

ضاقت أحوال الأم في ظلِّ غياب الجميع نتيجة الخوف، فصارت تستدين مالاً من الشرطيّ الذي ظلَّ يتردّد على بيتها حاملاً أخباراً كاذبة حتى هدّدها بالاعتقال تحت تهمة عداء الدولة العليّة ما لم تستجب لرغباته الجنسية. هكذا صارت الأمُّ حاملاً بطفلٍ اختفى والده الشرطي بعد اكتشاف الحمل. وكانت حوادث الاغتصاب دافعاً لكلّ النساء كي يعلِنَّ الحمل من الزوج الغائب خوفاً من حدوثِهِ بعد اعتداء، أمّا إن أتت إحداهنَّ الدورة الشهرية، فقد كانت تتنفّس الصعداء لأنَّ فترة دم الحيض تحميها من احتمال اعتداء. احتفظت الأمّ بالسرّ الدفين طيلة أربعة وثلاثين عاماً، وقبل أن تموت في الأسبوع الماضي كانت كلماتها الأخيرة بأنفاسٍ متقطِّعةٍ تلفظُ اسم الأب الحقيقي وأوصافه.

لقد جاء الصبيُّ شبيهاً بأمّه، ربّما صلّت طويلاً كي يشبهها بعد أن قاوم كلّ محاولات الإجهاض التي استقصدته أملاً في خروجه ميِّتاً إلى الحياة التي تشبه كلَّ شيءٍ إلّا الحياة.

كانت يداه ترتجفان وهو يدفن أمّه مع سرِّها، أولئكَ الذين اصطفّوا حوله طيلة رحلة الدفن ليسوا أهله، لطالما كان واحداً منهم لكنّه الآن – وحده – يعرفُ أنّه ليس منهم، الملحُ في جسده لا ينتمي

لهم، يا لعاره الأوحد – كانت نفسه تردّد – كيف جاء حاملاً جينات القاتل بينما عاش حياتَهُ حاملاً اسم الضحيّة.

بعد أيّام ثلاثة من موت أمِّهِ، وصلَ الشابّ إلى الشرطي. لقد كان في مثل عمره الآن حين حملت الأم الميِّتةُ منه، وقد وصل إلى ضعف عمره حين قتلَه. ركبَ درّاجة هوائية بعد أن سرق مسدّساً صغيراً من خاله وقصد الرجل الذي كان جالساً مع أصحابٍ له أمام متجر للمفروشات في السوق الكبير، عرفهُ حين رآهُ من بعيد ومع اقترابهِ سألَ عنه إيّاه، وقبل أن يجيب الرجل، قال ابن القاتل والضحيّة في آنٍ معاً مختصراً حكايتَه: «أنا حكمت ابن شريفة»، اتَّسعت عينا الشرطي إلى مداهما فعاجله برصاصتين في الرأس مباشرةً ليغرق في دمه قبل أن ينهض من مكانه، وهرب بعد أن تبادلا الأدوار عند خطّ النهاية. قبل إسدال الستارة، صار القاتل ضحيّة والضحيّة قاتلاً.[1]

هذه قصّةٌ مكتوبةٌ بخطٍّ صغير، من بين أشياء أخرى وصلَت من جدّي الأكبر إلى أمي قبل أكثرَ من ستين عاماً، فلماذا أستلُّها من ذاكرتي الآن قبل النهاية؟ جدّي الضابط في الجيش العثماني الذي رسم موتاً اشتهاه بعد أن حارب الميليشيات الصربية في زغرب ببلاد البلقان عقِبَ تخرُّجِهِ من الأكاديمية العسكرية العثمانية في اسطنبول، لتقوده الأقدار وهو برتبة رئيس «يوزباشي» قائداً لقوّات البدو في منطقة العريش المصرية، قبل أن يُصابَ في أعلى يده اليسرى على شاطئ قناة السويس خلال مواجهات الترعة بشظيّة مدفعية بريطانية، ليُنقل بعد ذلك إلى القدس حيث أجرى عدّة عمليات جراحية فاشلة أدَّت إلى نقلِه نهائياً إلى مستشفى الشاريتيه

[1] عرفنا كلّ هذا من أوراق وُجدَت ضمن مقتنيات الجدّ الأكبر وكان قد كتبها في القدس خلال انتظاره السفر بعد إصابته في الحرب.

في برلين ضمن تفاهم التحالف بين العثمانيين والألمان لعلاج الجنود المصابين في الحرب بغية إعادة زجِّهِم بالمعركة الألمانية في الأراضي الأوروبية ببلغراد وجبال التيرول بالمجر في حال شفائهم.

تلك القصاصة الورقية التي كتبها جدّي كانت في أغلب الظنّ ضمن أشياء أخرى أوصلها – إلى عائلة أمّي – اليوزباشي رضا اللبناني الذي صودف وجوده في حامية عكّا خلال الحرب، وقد أكَّد اليوزباشي – كما يروي الأحياء حينها في العائلة – أنَّ أصدقاءَ له عادوا من برلين قبل مغادرتِهِ فلسطين وقالوا إنَّ الذراع اليسرى لحكمت باشا قد بُتِرَت بالكامل فور وصوله إلى العاصمة الألمانية.

كان اليوزباشي رضا – كما تناقلوا وصفه – يملك وجهاً طويلاً بملامح صقر، يملك شارباً أشقر كثّاً أسفل أنفه، لخطواتِه وقعٌ على الأرض حين يسير، يرتدي دوماً معطفاً ربيعياً أخضر ويحملُ دائماً تحت سترتِه عدداً من جريدة الجيش العثماني تظهر فيها صورتُه بوصفه مقاتلاً مثالاً في الإخلاص للدولة العليّة، قال لمَن التقاهم حين زارَ عائلتي إنَّهُ تعرَّف إلى جدّي عام 1907 في الآستانة خلال دراسته في مدرسة «اسطنبول تكنيك» التي كان دائماً يُستعاض عن اسمها عند الحديث عنها بـ«المهندسخانة»، ثمّ نُقل إلى منطقة الفرات الأوسط ومنها إلى أدرنة فبغداد وأخيراً إلى الجيش العثماني الرابع في فلسطين مع بداية عام 1915 حيث تزامن وصوله مع غزو الجراد للسهول الفلسطينية مع نهاية آذار من تلك السنة، جرادٌ أحمر يميلُ إلى البنّيّ، كان ناقلُ القصة عن اليوزباشي يثني أصابع كفِّه على شكل تجويف مشيراً إلى حجم الحشرة الواحدة، حمراء بنّية إن كان الجراد ذكراً ومائلة إلى الصفرة إن كانت أنثى حاملاً، تضع بين مئة ومئة وخمسين بيضة. لقد أهلك الجراد الزرع حتى نصبَ الناسُ له الفخاخ في الخنادق التي ملؤوها بالماء، أحرقوه بالنار عبرَ قاذفات اللهب

المحمولة على الظهر، تلك التي تشبه إلى حدٍّ بعيد العُلَبَ البلاستيكية التي نستخدمها لرشّ المبيدات على الأشجار، فلحوا الأرض بالبغال والحمير والأحصنة كي يقضوا على البيوض، حتى إنَّ الوالي العثماني فرضَ على كلِّ مَن لم يُسَقْ إلى الجندية غرامةً تصل إلى ليرة عثمانية ذهبية، إن لم يجمع عشرين كيلوغراماً من بيوض الجراد.

أمام هذا المشهد الذي زاد من حصار البؤس في نفوس الناس، نُقل اليوزباشي رضا إلى غزّة التي نُقل جدّي إليها قبله، فالتقى الرجلان مرّة أخرى حيث شاركا معاً في الهجوم على القطعات البريطانية المتمركزة في جبهة قناة السويس قبل أن يُنقَل اليوزباشي رضا إلى عكّا بعد إصابة جدّي ونقلِه إلى القدس.

كثيراً ما كنتُ أردِّدُ تلك القصص الشفاهية، متأمّلاً مقتنيات جدّي التي تعاملت معها العائلة بكثير من التقديس والإجلال لرجلٍ غادر ولم يعد أبداً، خاصّةً بعد أن طلبت جدّتي لأمّي نجوى الطلاق نظراً لغيابِه الطويل، وتزوّجت باليوزباشي رضا مقنِعةً نفسَها بأنّ جدّي قد مات.

كان الجميع يتحاشون الحديث عنه أو عن جدّتي نجوى التي انتقلت للعيش مع زوجها الجديد في شمال البقاع، فيما كنتُ أبني دائماً قصصاً بطولية أنسبها لجدّي خلال أحاديثي مع الطلّاب في المدرسة الابتدائية. مرّةً قلت إنّه اختبأ في تنّور مشتعلٍ عندما دهم الجنود العرب مع الإنكليز مقارّ العثمانيين خلال رحلتِه من الشام إلى مصر مروراً بمنطقة الحجاز، ومرّة أنَّهُ ابتلع الليرات الذهبية العثمانية للحفاظ عليها في بطنه خوفاً من سرقتها خلال انسحابِه من إحدى المعارك التي خسرها في بلاد البلقان، وبعد أن كبُرت قليلاً، قلتُ إنّه استقرّ في برلين وتزوّج بامرأة ألمانية فاتنة الجمال، ثمّ عملَ على تزويد البلدان العربية بالسلاح اللازم للمعركة المصيرية مع

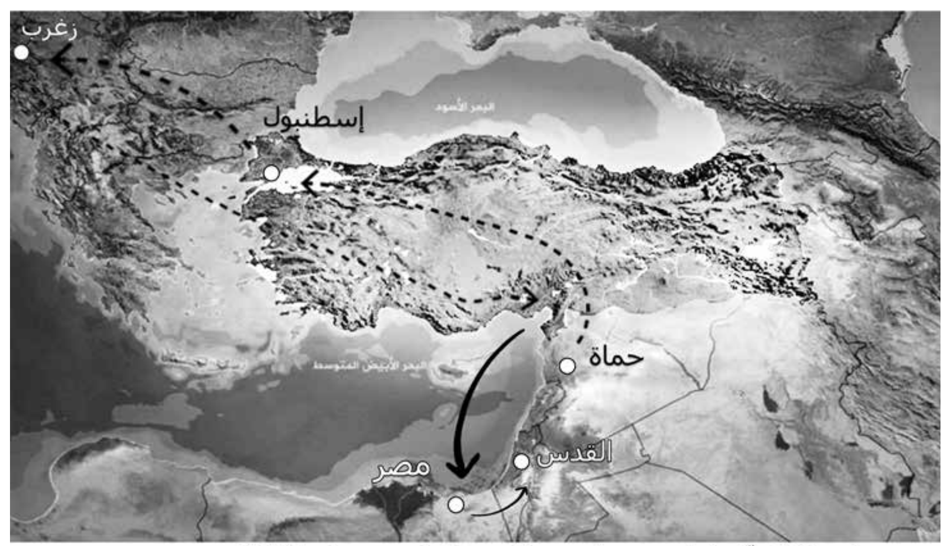
الاستعمار، ولم أتوانَ عن الإشارة إلى لقاءاتٍ جرَت بين جدّي حكمت وضبّاط من القيادة الألمانية ومقاتلي الحسين بن علي، حيث وجدوا أوراقاً تُثبِت علاقة جدّي بمكتب ألفرد روزنبرغ، العقل المدبّر للحزب النازي ومدير مكتب العلاقات الخارجية فيه!

بعد غياب جدّي الأكبر، خرج ابنه الأول إلى فلسطين للبحث عن أيّ أثرٍ منه، في الحقيقة أرادَ الهربَ للعيش في فلسطين، كانت أخباره تصل لماماً مع بعض القادمين من هناك للحصول على السلاح، قيل مرّةً إنّه يعمل في شركة تطوير أراضي فلسطين وإنّه وجد صديقاً ألمانياً يتحدّث العربية ويعمل مع الإنكليز، كان ذلك الرجل قد التقى بجدّي ذي الذراع المقطوعة في برلين خلال افتتاح أول مقبرة إسلامية لدفن الموتى المسلمين عام 1921.

أمّا أمّي فكانت تردّد دائماً أنَّ أصول العائلة تعود إلى عسكري فرنسي قدِم مع حملة نابليون بونابرت إلى مصر ومنها إلى عكّا حيث أُسر فعاشَ سنوات ثلاثاً مع المقاتلين المحاصَرين تحت إمرة أحمد باشا الجزّار قبل أن يدخل الإسلام ويُسمّي نفسه إبراهيم.

سألتُ – بقالب السخرية – مراراً، القائم بأعمال السفير الفلسطيني في العراق منذ وصولي إلى بغداد عن هذه القصّة، وَكان يجيبني دائماً بأنَّ جدّي اسمه «موشيه» وقد أتى – أغلبَ الظن – مع نابليون بونابرت عقب ندائه ليهود العالم للقدوم إلى فلسطين، إلّا أنّهُ عرف «درب الهداية» كما حدث مع بعض جنرالات الحملة الفرنسية على مصر فأسلم، وصار له امتداد وذريّةٌ في بلاد العرب، وتحوَّل من «موشيه» إلى «موسى».

أمّا أنا، فقد خرجتُ من البلاد قبل عشرين عاماً كاملة. لم أكن أملك سوى سنواتي العشرين وقصّة حبّ يتيمة ظلَّت ترافقني كلّما تقدَّم الزمن متجاوزةً الحروب والأزمات. تركتُ بلاداً تغرقُ في



خريطة توضّح خط مسير الجد حكمت باشا حتى عام 1917 م

الاعتقالات التي تستهدف كلّ شابّ وبيت في حماه وسط سوريا التي نفذتُ بأعجوبة منها مع إحكام الجيش السيطرة عليها، بينما اعتُقِلَ أبي بعد أن اعترف عليه الشيخ طاهر الذي ضبطوا في المغارة أسفلَ داره مخزناً للسلاح.

الشيخ طاهر واحدٌ من قادة الطليعة الثورية في تنظيم الإخوان المسلمين، درس في باريس الهندسة الوراثية قبل أن يعود إلى حماه منتصف السبعينيات ويبدأ نشاطه الترويجي للجماعة. كان شخصية تنفذ إلى القلب مباشرة، دمثاً، يصافح الصغير والكبير ويسأل كلٌّ باسمه عن الحال والأحوال. تداول الناس في سنوات عودته الأولى قصصاً غريبة عن فترة دراسته في فرنسا، تلك القصص بقيَت نقلاً عن غائب دون تأكيدٍ أو نفي، منها أنّ المخبز الكائن في الجادة الخامسة في العاصمة الفرنسية توقَّف عن العمل بسبب الفئران التي ظلَّت شهوراً تحتلّ مخازن الطحين وتُجهِز عليه، ما دفع بصاحب المخبز لإيقاف العمل، والإعلان عن جائزة لمَن يساعد في القضاء على

الفئران، واقترح الشيخ طاهر حينها وضع ذرور الجِصّ في أكياس تشبه الطحين ضمن المخزن، وإلى جانبها ماء بكمّيات كبيرة، فكان الفأر يأكل من الجِصّ ثمّ يشرب الماء وما هي إلّا ساعة أو أقلّ حتى تتحجَّر معدته فيموت. هكذا قضى الطاهر على فئران المخبز كلّها واستمتع بخبز مجّاني طيلة سنواته اللاحقة في باريس. كان يُعلِّقُ على تلك الحادثة دوماً بالقول: إذا أعطيتَ الفأر كأساً من الحليب فسيسألُك عن الكعكة التي أخفَيتَها عنه!

استنتجتُ في ما بعد أنَّ هذه هي القاعدة الذهبية التي آمن بها طيلة حياتِه، أمّا الجانب الآخر من تابعيه – بمن فيهم والدي – فكانوا يدركون حاجته الدائمة إلى أن يقفوا أمامه ويتلقّوا اللوم، فقد كان يدَّعي قدرته على كشف نيّات الآخرين مستنداً إلى قاعدة أخرى اعتمدها في حياتِه «من السهل دوماً توقُّع ردود فعل الآخرين». إلّا أنَّ الأقدار خانته في ما خطط إليه فاعتُقل خلال طريق هروبه الأخير بعد أن ضبطت – مصادفة – دورية من الأمن شحنة أسلحةٍ كانت في طريقها إليه أسفل حمولة من أكياس البطاطا، وهذا ما قادهم إلى المغارة في البيت حيث وجدوا قائمةً مكتوبة بحبرٍ أزرقَ جافّ على قطعةٍ من كيس إسمنت ملصقة تحت أحد الصناديق الخشبية العسكرية الخضراء، تلك القائمة تضمّ أسماء كلّ المنتسبين إلى التنظيم في المنطقة، وبالطبع كان والدي واحداً من أولئك الذين بحثوا طويلاً عن تاريخٍ يشبِهُ تاريخ عائلة زوجته!

أوصاني والدي الذي رأيتُ في وجهه حينها جيلاً كاملاً بأحلامٍ ضائعة، أن أُرافِقَ شابّاً آخرَ إلى خارج حدود المدينة. «الشيخ طاهر رتَّب كلّ شيء»، قال أبي، مؤكّداً عليّ ألّا أقلق. مشيتُ على الوصيّة حتى ارتمينا في بيتٍ ريفيّ قديم بحيٍّ سكني قريب من بستان السعادة الذي صارَ يُعرَفُ لاحقاً ببستان الأرامل بعدما أُعدِمَ ميدانياً

كلُّ الذكور الذين جاوزوا الخامسة عشرة من العمر فيه. صورةُ الموت في وجه أبي رافقتني يومين اثنين وأنا مختبئ في البئر الفارغ عند مدخل البيت العتيق، قبرٌ في قلبِ قبرٍ على شكل مدينة. اعتدت هذا الضيق لثلاثة أيّامٍ تاليةٍ، حتى وصلَ جرّارٌ زراعي رتَّب سائقهُ لهروبنا صندوقاً حديدياً يتَّسِع لأربعةِ أشخاص في المقطورة الخلفية. الصندوقُ يشبِهُ إلى حدٍّ بعيد خزانةً خشبية مُلقاة على ظهر الجرّار، يخرج من زواياه أربعةُ أنابيبَ رفيعة تنتهي بثقوب صغيرة وتتّصل بجسدِ المقطورة من جانبها لتُؤمِّنَ وصول الهواء إلى الداخل. لطالما احتجتُ إلى قلم وورقة لأرسم المشهد كلَّما حاولت الحديث عن غرائبية هذه الرحلة التي استمرَّت ثلاثة أيّام كما قال السائق، عشنا خلالها انفصالاً تامّاً عن الزمان، وحصاراً كاملاً في المكان، كما خضعنا لتعليمات صارمة رماها علينا قبل الانطلاق: ممنوعٌ الكلام أو الحركة التي تُصدِرُ صوتاً، وقضاءُ الحاجةِ يتمُّ في الثياب. حمل كلٌّ منّا إحدى وعشرين تمرة وقارورة ماء واحدة للشرب، قبل أن يُغلِق الصندوق الحديدي الصغير ويضع فوقه حمولةَ الجرّار التي كانت سماداً زراعياً من بقايا روث البقر المُجفَّف على شكل دائري.

طوَّقتُ طرفَ الأنبوب الداخل إلى الصندوق بشفتيَّ طيلة الطريق كي أتنفس منه، وحاولتُ تخيُّل الطريق في الخارج. كان الخيال أصغرَ من الواقع، فالواقعية في تلك الرحلة لا تعني ما حدَث فقط؛ بل كلَّ ما كان يمكن أن يحدث كلما مرّت دورية وأوقفت السائق ولحسن حظنا لم يكلِّف العناصرُ فيها أنفسَهُم عناءَ البحث في الروث، فاكتفوا بالسؤال عن الوجهة، ليأتي الجواب دائماً: القرية التالية.

عبرنا نصف الطريق قبل أن يموت اثنان من النائمين في الصندوق بجانبي. نوبةُ هلعٍ سكنتني رغم أنّي اعتدت حضور الموت والرحيل في الأيّام القليلة الماضية، أو بشكلٍ أدق كنتُ أعتقدُ دوماً

أنّي التالي في قائمة الموت، بينما أردِّدُ لروحي أنَّ فكرة النجاة ممكنة، فالخلاصُ ينطلِقُ من ضعف الآخر.

اعتيادُ العتمةِ العَتمةَ في صندوق حديدي يحكُمُ وجودي فيه وبقائي أنبوب مفتوحٌ للفراغ والعدم: أهربُ من هذه الصورةِ وكلما هززت رأسي أشعر بأنَّ أطرافي تصطدمُ بالحديد الساخن. رافقني ذلك لسنوات طوال. كنتُ كلما استحضرتُ الرحلة قفزت نحوي رائحةُ البئر في بستان الأرامل، رطوبة جوانبه الداخلية تملأُ الفراغ حتى يمتلئ بها، تخترقُ أنفي وتحضر من بعيد كلما دهمَ بغداد مطرٌ في بدايات نيسان.

وصلنا بعد ثلاثة أيّام شاقّةٍ إلى قرية حدودية احتضن ترابها الأموات منّا بعد أن عبرنا الطريق الصحراوي الطويل، وخلفنا صارت بلادٌ أنهت لتوِّها حفر قبرها الجماعي. قبل الحدود بمئتي متر افترق بعضنا عن بعض، وكأنَّ كلَّ واحدٍ فينا يقول للآخر: إنّه طريقُ النهاية وعليكَ أن تقطعه وحدك.

قفزت وحدي فوقَ الساتر الترابي الذي يرتفع قرابة مترين نحو الشرق حيث كانت وجهتي، وسلَّمتُ نفسي إلى أول نقطة عسكرية عراقية مُطلِعاً إيّاهُم على خطاب التوصية الذي حمَّلني إيّاهُ والدي للشيخ أبو عامر. بعد عدّة اتّصالات نقلوني إلى العاصمة بغداد، وأوصلوني إلى منطقة العامرية حيث يقيم أبو عامر الذي سيُقتَل مع عائلته بعد ذلك بسنوات خلال قصف ملجأ العامرية.

وكانت أيّامي الأولى في بغداد: شابٌّ في مقتبل العمر يحمل ثأر والده وجدِّهِ الأول معاً، ويبحث في ذات الوقت عن طريق للمستقبل، فأيُّ حربٍ مقدَّسةٍ مع الحياة بانتظاري!

عندما تسكنك الهواجس تبحثُ في بقاياك التي أثقلتك بحمولة زائدة عن شيء لا تستطيع تحديد جوهره، لا تعرف كُنهَهُ ولا يُمكِنُكَ

توصيف رائحته أو مساحته. هل يعيشُ العربيُّ غربةً في بلدٍ عربي؟ ظلَّ هذا السؤال يسكنني سنوات خلال محاولاتي الحثيثة الانصهار ضمن المجتمع الجديد، كنتُ مثل نباتٍ أُحضِرَ في رحلات القراصنة من بلادٍ إلى أخرى، قد يقاوم الجيل الأول منه الجغرافية متمسّكاً بملامحه الأصلية لكن لا يلبث أن يتغيَّر كي يصير واحداً من المشهد الجديد بصفاتٍ لم تكن فيه. درست الثانوية العامّة في بيت أبو عامر قبل أن ألتحق بجامعة بغداد لأدرس طبّ الأسنان. وها أنا اليوم، بعد عقدين كاملين، أملك عيادة صغيرة في شارع السعدون على الضفّة الشرقية لنهر دجلة وغرفة ملحقة بها للمعيشة.

غرفتي لا تتجاوز خمسة أمتار بعرض أربعة أمتار، احتَوَت سريراً خشبياً ومكتبةً فيها بعض الروايات والإصدارات الطبّية إلى جانبِ صورةٍ جمَعتنا – عبد الرحمن، زياد وأنا – على شطِّ دجلة، ولوحةً كنتُ أعملُ على إنهائها. الحرب الأميركية قد بدأت منذ أسبوعين ولا وسيلة تواصل مع العالم المحيط سوى الراديو الذي يعمل بالبطارية التي تُشغِّلُ أيضاً بعض الأدوات في العيادة نظراً لانقطاع الكهرباء الطويل. سحُب الدخان تغطي سماء العاصمة وأصوات الطائرات والمروحيات تخترق صمت المكان لتعلن سيطرتها التامّة عليه، رشقات رصاص مختلفة تنطلق من شوارع العامرية، الأعظمية، الدورة، الكرّادة، أستطيع تحديد الاتّجاهات الجغرافية للصوت وصداه معاً. خلال الأيّام الماضية لم أخرج أبداً من العيادة، اشتريت كلّ ما أحتاج إليه من سجائر وشراب وبعض الطعام، بالإضافة إلى كمّياتٍ من الماء والسولار مصفوفة بعُلَبٍ بلاستيكية بعضها إلى جانب بعض. أكتفي كلَّ يومٍ بالنظر إلى ساحة الفردوس من بعيد، المذياع في غرفتي، بقربي، بينما قبالتي، على الضفة الأخرى من نهر دجلة، وزارة الإعلام وقد اعتلتها الصحون اللاقطة بمختلف أحجامِها. حاولت

كتابة شيء ما لكنّي فشلت، لجأتُ إلى الرسم لكنّي لم أستطع تحديد ملامح للَّوحة، كان المشهد أكبر من كلّ اختزال، بغداد غارقة بدخان الإطارات التي تحترق في شوارع المدينة الرئيسية. في السنوات الأخيرة، تحوّلت العاصمة إلى عماراتٍ إسمنتية كالحة. غلب اللون الرمادي والبنّي على الأبنية وغابت الألوان عن بغداد. صرنا نراها بالأبيض والأسود فقط، وكأنّها هاربة من زمن مضى إلى زمن وقعَت فيه بالخطأ، وكلما حاولَت الضغط على آلة الزمن للنجاة فاجأها البؤس الذي سكنها بأنيابِه كي تستكين. أغلب الذين أعرفهم في العاصمة غادروا مع بدء الحرب إلى الريف، وحيداً بقيت في البناية المكوّنة من أربعة طوابق معظمها يعود لأطبّاء، وكنتُ أسكن في الطابق الثالث، ما يتيح لي رؤية ساحة الفردوس من بعيد.

أنقل إبرة المذياع من محطّةٍ إلى أخرى، أستمع إلى المواجز الإخبارية والنشرات المُطوَّلة، وقصائدَ وأغانٍ تُمجِّدُ صمودَ الجيش العراقي الذي كنتُ أراه ينهار من شبّاك غرفتي الصغيرة في شارع السعدون. صارَت ملامح اللوحة على وشكِ الاكتمال، وجهٌ مزَّقتهُ سنواتُ الحصار، تُغطّيه كفّان جعَّد طيّاتهما شظف الحياة، أرضيةٌ خضراء لبُعدٍ أزرق يسيطر على صدر اللوحة، ونورٌ يأتي من جهةٍ ما من الصورة غير المكتملة بعد. في الدقيقة ذاتها أسمع الخبر ونفيه معاً عبر الإذاعة: القوّات الأميركية تسيطر على مداخل بغداد وقوّات الحرس الجمهوري العراقي تنفي ذلك. وأسمع الأخبار المتواترة عن هروب أركان السلطة، لا مجال هنا اليوم لأيّ نقاش، فالواقعُ يُنهي أيّ نقاش حتى قبل أن يبدأ.

مع بداية الحرب، دعاني القائم بأعمال السفير الفلسطيني في بغداد – نظراً للعلاقة الشخصية التي بنيتُها معه منذ وصولي إلى العراق ودراستنا معاً في الجامعة – للنزول في مبنى السفارة في شارع

السفارات بمنطقة الكرخ، لكنّي فضَّلتُ البقاء في عيادتي الصغيرة في شارع السعدون بالرصافة. قرارٌ لم أكن أعي كم سيكلِّفني لاحقاً.

قبل ثلاثة عشر عاماً مات زياد، فقدناه في ليلةٍ مقمرة من ليالي بغداد في شارع أبي نوّاس. أنظرُ إلى صورتنا معاً على شاطئ دجلة، شعر رؤوسنا الكثيف، البناطيل ذات الحجول الواسعة والخصور الدقيقة، القمصان المُقطَّعةُ إلى مربَّعات مختلفة الأحجام بأزرار مفتوحة تُظهِرُ الصدر كاملاً، يمدُّ زياد ذراعيه إلى كتفي وكتف أبو الكرم، مستنداً إلينا، مُطلِقاً ضحكةً كنتُ أسمعُ صداها كلّما نظرتُ إلى الصورة التي التقطها لنا هيثم. إلى هذا الحدّ كان زياد قريباً، فكيف خطَفَهُ الموت من بيننا؟ حَلَمَ دوماً بصُنعِ فيلمٍ عن شارع أبي نوّاس الذي طالما اعتبره خلاصة الخلاصةِ من بغداد، فدرسَ الإخراج السينمائي في الجامعة وما إن تخرَّجَ حتى أُرسِل بعد دورةٍ عسكريةٍ سريعةٍ إلى الحدود ليقوم بتصوير جبهات الحرب المُشتَعِلة مع إيران. المشاهد التي نقلها كانت جزءاً واحداً من الحرب فقط، الباقي اكتشفناه في القصص التي حكاها لنا خلال إجازاتِه القصيرة في ليالينا على شطّ دجلة: إحساسُه باللاجدوى والعدم حين يجلس في الخندق مُنهَكاً مع بدء لحظات صمت الرصاص ليقرأ رواية مترجمة بلغةٍ بليدة، محاولاته الدائمة لبناء عالمٍ خاصّ به خلال أربعِ سنواتٍ قضاها على ساقٍ واحدةٍ – كما كان يصفها دائماً – وهو يحاول اللحاق بالرصاص وقذيفة الدبّابة، صورة الصواريخ الأرضية العراقية وهي تطارد الجموع الهاربة نحو المخيَّمات المؤقتة، «حقول السُكّتين»، التي أحاطتها القوّات الإيرانية بسياجٍ من الأسلاك الشائكة في محيط المدن القريبة من الحدود أو بامتداد الصحراء الواسعة، نزقُ الجندي المتمترس خلف أكياسٍ من الرمل هارباً من تصوير ملامح وجهه،

زيـارات الرئيس للخطوط الأولـى، حديثه مع الجنود والضبّاط على مقربةٍ من شطّ العرب...

صـورةُ زياد كانت تحضرُ دوماً في جلساتنا، أبو الكرم وهيثم وأنـا. نتذكَّرُه وهو ينقلب على ظهره من الضحك حين يـروي لنا عن زيارات الرئيس للجبهة، تلك الجلسات التي تحدث بينه وبين الضبّاط في الاستراحات القريبة من خطوط النار أمام الكاميرات. يقول زياد:

«الكلُّ يكذب على الكلّ، والكلُّ يعرف أنَّ الكلَّ يكذب. كان الضبّاط الكبار يختلقون أحـداثاً يروونها أمـام الآخرين عن بطولات الرئيس في شبابِه، ويتلون لهم ذكريات لم تحدث أبداً بينهم وبينه، «ربّ القواد»، في إشارة إلى صدّام – بعد أن يلتفت زياد للجهات الأربع خوفاً أن يسمعه أحد – متابعاً وسط الضحك: «وكان «ربّ القواد» يهزُّ رأسه مؤكِّداً حدوث القصة، واصفاً المتحدِّث بأنّه كان شجاعاً في تلك الليلة التي حدثت فيها محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم».

وُلِد زياد لأب شيعي من النجف وأمٍّ سُنيّة من ضواحي بغداد. قادَتهُ الأقدار وقرارات مجلس الثورة في سنتِهِ الأخيرة بالجيش لتصوير حفلات الإعدام بعد أعوامٍ قضاها على الخطوط الأمامية في جبهة البصرة مع إيران، تلك مرحلةٌ دمَّرَت ما بقي في نفسِ زياد تماماً، كان يبكي وهو يرسم، مستعيناً بغصنٍ مرميٍّ على شطّ مياه دجلة، اصطفاف الجنود الهاربين مرَّتَين قبل أن يتمّ إعدامهم، بـآذانٍ مقطوعة وأيدٍ مشدودة للخلف؛ شفاهٌ ترتجِف ودماءٌ تسيلُ من الوجوه لتغطي الطرف العلوي من البدلة العسكرية الخضراء الممزَّقة من الضرب، ثمّ يضحكُ على طلبِ الضابط المشرف دائماً على تنفيذ الإعدام وهو يؤكِّدُ ضرورة ظهوره في الفيلم الذي سيُرسَل إلى القيادة عن حفلات الإعدام. كان الضابط يمسِكُ بيد زياد بينما يضع يده الأخرى على جبهة العسكري قائلاً: «الصورةُ يجبُ أن تُظهِرَ كيفَ ينفرُ الدم من جبهة الخائن، من

هنا تماماً»، رافعاً سبابته إلى جبهة العسكري الجامد الجاهز لتنفيذ حكم الإعدام.

«ربّ القواد» شتيمة يطلقها صديقنا وهو يسترسل شارحاً تلك الأيّام التي انتهت بمرضٍ نفسي بعد أن شهِدَ إعدامَ أخيه الأصغر من بين الجنود الذين هربوا من الجبهة التي كانت تمثِّلُ حدّاً فاصلاً بين إسلامَين. صار يشرب حتى السُكر، ثمّ يشربُ حتى يهذي، ثمّ ينام على الأرصفة. انتقل من العقلانية إلى الجنون كمن ينتقل من الكفر إلى الإيمان أو من الإيمان إلى الكفر، انتقال يضعُ الرجلَ في مكانٍ يطابِقُ قوّة الدافع في الموقع الأول ويساويه بالتطرّف والحجم واليقين، يقين الكفر مثل يقين الإيمان ويقين العقل يساوي يقين الجنون عند الواقع في الحالتين.

وفي ليلةٍ ماطرةٍ من ليالي بغداد، حينما كانت الغيوم تتزاوج اثنتين اثنتين معلِنةً هبوط الماء إلى الأرض العطشى، وُجِدَ زياد ميِّتاً بثيابٍ متَّسِخةٍ لم ينظِّفها ماء السماء في شارع أبو نوّاس الذي حلم به دائماً.

زياد الذي خرَجنا من يومياتِهِ مُرغَمين بعد أن أنكرَنا مرّاتٍ عديدة ونحنُ نلاحقهُ من مكانٍ إلى آخر، تحضر ذكراهُ الآنَ وأنا أنقل بصري بين الصورةِ في المكتبة وظلام بغداد بالخارج في ليلة التاسع من نيسان أبريل لعام 2003 وقد مرَّ على الحرب ثمانية عشر يوماً. يرفضُ حضورُ زياد ورحيله إلّا أن يكون مشهداً في فيلمٍ غاب مخرِجُه. الذاكرةُ وقودُ الأحياء لاستمرار الأيّام، فكيف يصطبرُ أولئكَ الذين سُرِقَت منهم أيّامهم؟

يكادُ زياد ينقلب على ظهره من الضحك وهو يرانا – في غيابِه – نفعل ما كان يفعل بالقهوة بعد غليانِها، يبلِّلُ أطراف أصابعه راشّاً الرذاذ فوق الرغوة التي تفور كحمَمٍ بركانيةٍ في بدايتها للانطلاق، وهو

يردّد في كلِّ مرّة: بغداد مدينة صامدة، يحفُّها سلامٌ كاذب لدرجةِ أنَّكَ تُصدِّقُه، كاذبٌ على نحو غريب، يشبهُ هجوم رغوة القهوة إلى الفضاء خارجَ مدارِها.

لوهلةٍ تراءى لي زياد يتحرّكُ من الصورة نحوي حينَ طُرِق باب العيادة بكثيرٍ من الاستعجال في تمام الساعة الرابعة والنصف فجراً. أفتح الباب فأجد نفسي أمام رجل نحيل يبدو في بداية الخمسين من العمر، تمكَّنَ منه الإرهاق، بشاربٍ أسود عريض وقامةٍ تصل إلى مئة وثمانين سنتمتراً، تسبقهُ عينان حادَّتان، ولهجة محلية تشي، رغم محاولاتِه إخفاءها، أنه من الموصل. وقف على الباب يستأذن بالدخول لأمر طارئ، تنحَّيتُ قليلاً فمرَّ بقربي حاملاً حقيبة صغيرة، كان واضحاً أنَّهُ لم يستحمّ منذ أيّام، جالَ بنظره في العيادة ومشى خطوتين إلى الغرفة الصغيرة المجاورة بعد أن أشار لي بإغلاق الباب.

كلمات سريعة قالها قاطعاً صمت المكان ووحشته بمجرَّد دخوله إليه:

– دكتور، معي في الخارج شخصية هامة جداً، شيخ عشيرتنا، وهو يعاني من آلام في الأسنان، ولو لم يكن الأمر طارئاً لما أتينا في هذه الساعة، كما تعلم فإنَّ أغلب الأطبّاء قد غادروا شارع السعدون إلى خارج بغداد، والمشافي تعمل الآن بطاقتها القصوى لإنقاذ المصابين جرّاء الحرب، هل لديك مانع من استقبال الشيخ الآن؟

– أبداً.. أين الشيخ؟

– في الخارج.. قال الرجل فهممت أن أفتح الباب حينَ أشار لي بالتريُّث قليلاً، واتّجه نحو النافذة حيث ألقى نظرة على الشارع الفارغ تماماً إلّا من أصوات الرصاص البعيد، ثمّ مشى باتّجاه الباب وفتحه بهدوء تامّ وبكثير من الاحترام نادى:

– تفضَّل سيدي.

فتحتُ عينيَّ على أقصاهما حين صار الرجلُ في العيادة. لباسهُ العربي، شماغهُ الأسود والأبيض بعقالٍ عريض لم يمنعني من التعرّف إليه. تلعثمتُ وبدا التوتر واضحاً عليَّ حين انتبهت إلى أنَّ الرجل المرافق الواقف في الخلف عند الباب، يتحسّس شيئاً ما تحت عباءته، فمددت يدي مصافحاً ومشيراً بالتوجّه نحو الكرسيّ مباشرة.

كان ذلك الرجل القادم في ظلام الليل هو صدّام حسين.

الفصل الثاني

سبَق أن التقيت صدّام قبل سنوات بعيدة في حفل التخرّج من الجامعة، فقد كنت الأول على دفعتنا، وعادةً لم يكن الرئيس يحضر التكريم الذي تقيمه الجامعة للخرّيجين الأوائل، إلّا أنّه في ذلك العام قرّر الحضور نظراً للعدد الكبير الذي ضمَّته قائمةُ أسماء الخرّيجين من الطلّاب العرب. بعد تلك الحفلة بأيّام وصلني طرد بريدي من ديوان الرئاسة، يحتوي صورتي مع الرئيس الذي توسَّط بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة وهو يسلّمني الشهادة. علَّقت الصورة التي تحمل توقيع الرئيس بإطارها البنيِّ بجانب شهادتي الجامعية، كانت هذه الصورة بوابة عبور ومخرج طوارئ من أيّ مُخبِرٍ أراد التلصّص عليَّ خلال إقامتي الطويلة في بغداد. ما إن وقعَت عيناه على الصورة حتى لاحظتُ ابتسامةً مُخبّأةً تحت شاربه وهو يهمّ بالجلوس على كرسيّ المرضى بعد أن قال لمرافقه:

– اذهب واستحمّ، الدكتور علي ابنٌ لنا.

استغربتُ من هذا الوصف، بينما تلكّأ الحارس محاولاً الاعتراض على قول الرئيس لكنّي باغتُّهُ بالإشارة إلى الحمّام مُعتذراً عن سوء الأحوال التي أعيش فيها بسبب الأوضاع العامّة، وما هي إلّا لحظات

حتى صرت وحدي مع الرئيس في غرفة واحدة. رفع يده إلى الجانب الأيمن من فمه وأشار إلى مكان الألم، كان انتفاخاً واضحاً يحتاجُ إلى فتحٍ وتنظيف وحشو، بدأت العمل دون أن أنبس ببنت شفة، وما إن أنهيت حتى بدت علامات الراحة تظهر على وجهه، فعرضت عليه أن يشرب الشاي.

خلال إعـدادي للشاي المحلَّى كما يُحبُّه –حسب ما كان يُتَداوَلُ بين الناس– شممت رائحة سيجاره يعبق بالمكان. كانت البلاد في الخارج تحترق، أصوات معارك عنيفة تتردّد أصداؤها في كلّ اتّجاه، جسور بغداد السبعة كانت تعلوها كُرات حمراء ينبثق منها اللهبُ عند اعتلائها السماء لتنير الفضاء المحيط. كلّ شيء كان يشتعل في الخارج، لكنّ الرئيس الذي ينتظر الشاي الآن لم يكن يسمح للخوف بأن يتسلل إليه أو يؤثّر على أحكامه أبـداً. أيّ أقـدارٍ مُرتَّبةٍ ساقتني إلى هذه البلاد أو ساقته مع مرافقه في هذه الليلة إلى هنا! أخذَ يرتشِفُ الشاي بكثيرٍ من اللذّةِ وقد وقفَ أمام المكتبة الصغيرة ممسكاً الصورة التي تجمعني بزياد وأبو الكرم. قال الرئيس وعيناه العسليتان مثبَّتتان إلى الأمام:

– هذا القائم بأعمال السفير الفلسطيني، عائلته قدَّمت كثيراً للعراق، أمّا هذا؟ لقد رأيتُهُ مرّات...

بدا أنّه يحاول التذكّر حين عاجلته بالقول:

– هذا زياد... كان مصوّراً على جبهة الحرب مع إيران.

هزَّ الرئيس رأسه. كانت السماءُ في الخارج تشيرُ إلى بداية يومٍ جديد حين طُرِقَ البابُ على عجلٍ. ارتبكَ الجميع بينما بدا الرئيس هادئاً، وضعَ السيجار من يده بعد أن أشار باليد الأخرى لكلَينا بالثبات والصمت، مشى نحو الغرفة الصغيرة بعدما أوحى للحارس بطرف عينهِ للوقوف خلف الباب، هامساً لي:

– تصرَّف بطريقة طبيعية.

مشيتُ نحو الباب بخطواتٍ مرتعشةٍ وقلبٍ تتسارعُ دقّاته، وضعتُ أذني على خشبِهِ محاولاً الاستماع للصمت، ثمَّ قلت:

– مَن؟

في تلك اللحظة كان الحارس قد أخرج سلاحه واضعاً إيّاه أمام وجهه صانعاً زاوية تسعين درجة بين ساعدهِ وباقي الذراع، قابضاً براحَتي يديه على أخمص المسدّس الأسود.

أجاب الصوت:

– د. علي... أرسلني الأخ أبو الكرم كي أحضِرك إلى السفارة.

بدا الارتياح على وجوه الجميع بينما تنفَّستُ الصعداء وأنا أفتح الباب سادّاً إيّاهُ أمام الطارق كي لا يرى شيئاً من داخل العيادة.

– أهلاً وسهلاً، قلتُ خاطياً نحو الخارج بعد أن أمسكت الباب بطرف أصابعي.

– أهلاً دكتور، لقد أرسلني أبو الكرم كي أحضِركَ على وجه السرعة إلى السفارة.

– هل هناك طارئ؟ سألت الشاب الواقف أمامي والتوتُّر يحضرُ عميقاً في صوتي، فأحاول أن أبتلع ريقي الجافّ بين الكلمات.

– لا أعرف، فقط طلب منّي أن أخبرك برسالته هذه، يبدو أنّه يحتاج إليك.

– حسناً سأذهب إليه بنفسي اليوم، أرجوك أخبره أنّي مشغول بصيانة جهاز التعقيم في العيادة ولن أستطيع ترك الموادّ خارجه طويلاً، لهذا سألحق بك.

هزَّ الشابُّ رأسَه ومضى غير مقتنع بما قلت، فأغلقت الباب سريعاً مقفلاً إيّاهُ من الداخل، وعلى الفور سألني المرافق بصوت خفيض بعد أن أعاد المسدّس إلى مكانِه تحت الثياب:

– هل تعرف هذا الشاب؟

– نعم، إنّه من موظفي السفارة، يعمل سائقاً في المراسم.

– هل هو عراقي؟

– لا أعتقد، لكنّي أظنّ أنّه وُلِد هنا.

هزَّ رأسه ومشى نحو الشرفة كي يتأكّد من تأمين المكان وهو يقول: «تظنّ، تعتقد... في مثل هذه الحالات لا مجال للتخمين»، بينما خرج الرئيس من الغرفة الصغيرة عائداً لارتشاف الشاي. لاحظتُ على طرف أصابعِه بقايا ألوانٍ زيتية، فأدركتُ أنَّه تركَ أثراً منه على اللوحة غير المكتملة.

كما عادةُ التاريخ، فإنَّ المكائد لا تولَد إلّا في الليل. مع بدء سطوع النهار، رسمت أشعّة الشمس خطوطاً على تمثال صدّام الذي ينتصب في ساحة الفردوس على مقربة من العيادة. لقد استيقظت بغداد على أصوات معارك يتردّد صداها من جانب القصر الجمهوري ومجمع الوزارات بالقرب من فندق الرشيد. كلّ شيء في العاصمة كان هدفاً. شعرتُ للحظة بأنَّ الجملة العصبية في بغداد مشدودة إلى النهاية، وأنّ فتيل الاشتعال في كلِّ جهة قابلٌ للانفجار في كلّ لحظة. مضادّات الطائرات التي يعرفها العراقيون بالبطاريات توزَّعت بأعداد قليلة في الشوارع، بينما وُضِعَت الدبابات بالقرب من محطات التزوُّد بالبترول وانتشر العساكر بين البيوت. شبحُ النظام حاضرٌ على هيئة رجلٍ مريض ينتظر رصاصة الرحمة، بينما حركة الطائرات في السماء تزداد هديراً كلما نثرت قصاصات ورقية تُلقيها فوق الشوارع. استطاع المرافق الإمساك بقصاصة واحدة وصلت إلى طرف الشرفة الصغيرة التي تظهر منها ساحة الفردوس حيث يقف تمثال صدّام، ما إن قرأ محتواها حتى أخفاها، لكنّ الرئيس أشار بطلبها. بعد تململ قدَّم المرافق الورقة للرئيس الذي قرأها بصوت عالٍ:

«أيّها العراقيون، هذا العراق لكم بعد سقوط الديكتاتور، معاً سنبنيه»، قوّات التحالف الدولي.

شدَّ أسنانَه على السيجار قبل أن ينظر إلى ساحة الفردوس حيث ظهرت دبّابات ومدرَّعات أميركية كخيالٍ من بعيد، أرخى المرافق ستارة الشرفة الصغيرة ووقف الرئيس خلفها تماماً ينظر إلى اعتلاء جندي من المارينز سُلَّمَ الرافعة ليضع على رأس التمثال علماً أميركياً قبل أن يربطه بحبل متين، بعد أن اجتمع مجموعةٌ من العراقيين حاملين فؤوساً صغيرة محاولين كسر قاعدة التمثال. في تلك اللحظات، ربّما كانت تتداعى أمام الرئيس كلّ الصورِ التي اصطفَّ فيها الناسُ على أطراف الشوارعِ مُرحِّبين هاتفين لقدومه، وكنتُ أرى المشهد ذاته من خلف ظهر الرئيس. يمكنُ وضعُ هذه الصورة في إطار المحبّةِ الناتجةِ عن الخوف، فماذا يعني أن تمدَحَ شخصاً لا تملكُ في قرارة نفسك – بالسرِّ أو العلَن – حقَّ انتقادِه؟ أربعةُ أحرفٍ ثانيها مشدَّدٌ ألبَست العراق كلّهُ عباءة الخوف، لقد تدرَّبَ الجميعُ على ألفةِ الخوف والتعايش معه، بينما كانت قيادة البلاد تُطوِّرُ قدراتها وأهوالها لفرض السيطرة – نفسياً وجسدياً – على نفوس الناس الذين صاروا فئران تجارب بين يديها.

أصوات متقطعة مختلط بعضها ببعض تصل من بعيد، التمثالُ قد تلاشى تماماً ولم يبقَ منه انتصابٌ في الفضاء، الصحافة العالمية والعربية على مرمى حجر واحد من مكان وجود القوّات الأميركية والرئيس العراقي. ماذا يمكن أن أتحدَّث مع رجلٍ كان الجلوس معه قبل أسابيع بمثابة باب للخروج من كلّ أزمات الحياة في العراق! ماذا يمكن أن أتحدّث مع رجل فقَدَ للتوّ كلَّ شيء مرّةً واحدة! وإلى الأبد...

«العراق للعراقيين»، قطع صدّام الصمت، بينما انشغلت بنقل إبرة الراديو من إذاعة إلى أخرى بحثاً عن نشرةٍ نسمعها، والخبر

والحدث وأثمن رأسٍ تجمعني معه غرفة واحدة في شارع السعدون.
«العراق للعراقيين»، أعادها الرئيس موجِّهاً حديثه لي:

– ما اسم هذا الشارع؟

استغربت من سؤاله، لكنّي أجبت:

– السعدون.

– عبد المحسن السعدون، رئيس وزراء العراق، أنا الذي كنتُ وراء الحفاظ على التمثال البرونزي الذي أنجزه بياترو كانونيكا عام 1933 للدولة العراقية. أراد كثيرون وضعه في المتحف بعد افتتاح جسر الجمهورية ونقله من مكان إلى آخر. انظر يا دكتور علي إلى هذه المنطقة، هذه كانت للخواجات لكنّها منذ سنوات تحوّلت إلى منطقة شعبية. مَن الذي جعل الناس سواسية في العراق؟ ينتظر الأعداء منّي أن أنتحر كما فعل السعدون لكنّي لن أفعل.

هززت رأسي وهمستُ في سرّي: «لقد كنتَ عادلاً في توزيع الظلم يا سيادة الرئيس».

تابع الرئيس حديثه بعبارات غير مترابطة، للمرّة الأولى تظهر عيناه العسليَّتان بهذا الزَوَغان، بدت عليه علامات عدم تصديق ما يحدث. تحدَّث عن شارعٍ فرعي من شارع السعدون، عن قهوة قديمة كان يرتادُها أول قدومه إلى بغداد قبل عقود صارت بعيدة الآن، عن سينما سميراميس، عن منظمة «مجاهدي خلق» التي يقع مقرّها الرئيس على بُعدِ أمتار منّا الآن، ثمّ قال فجأة:

– هل تذكر خطابي الأول ليلة الغزو، لقد قلت بيتاً من الشعر، هل تذكره؟

– نعم بالطبع، لقد قلت: أطلِقْ لها السيفَ لا خوفٌ ولا وجلُ...

– نعم نعم، أطلقْ لها السيف لا خوفٌ ولا وجلُ، أطلق لها السيف وليشهد لها زُحلُ. هذا البيت كان كلمة السرّ وإشارة الصفر

لإطلاق كلّ الصواريخ الموجودة في صحراء البصرة وصولاً إلى صفوان وامتداداً حتى جزيرة الفاو نحو القوّات الغازية، لو تمّ تنفيذ تلك الخطّة لضمنتُ عرقلة قوّات الاحتلال أسبوعين أو ثلاثة، هذا كلُّ ما كنتُ أريدُهُ وأراهن عليه لإحكام الطوق السياسي دولياً لإفشال التحرّك الأميركي ومِن ورائه التحالف الدولي.

– لكن ماذا حدث؟ سألتُ بصوتٍ منخفِض بعد تردد.

– الحرب لا تأتي بالنهايات السعيدة أبداً، هذا ينطبق على طرَفَي المعركة، المنتصرون والمهزومون على حدٍّ سواء. والأصدقاء، حين ينتقلون إلى الضفّة الأخرى، يكونون أسوأ الأعداء تماماً، قال ثمّ صمَت.

كان زائغ البصر مُشتَّتَهُ وهو ينتقل من عبارة إلى أخرى، ومن موضوع إلى آخر. من مشهد سقوط تمثاله من بعيد في ساحة الفردوس إلى صعود الدخان من سيجاره، إلى الصورة التي تجمعه معي على الحائط، بدا لي لحظتها – رغم محاولاته إظهار التماسك – أنَّهُ لم يكن شجاعاً كفايةً ليتحمَّل نتائج ما فعل خلال حياتِه، أو أنَّه كان نادماً على كلِّ خطأ إضافي كان من الممكن أن يرتكبه ليبقى أكثر في السلطة، لكنَّهُ – قطعاً – لن يكون، كما ردّد أكثر من مرّة، مثل أدولف هتلر الذي قرّر الانتحار بطلقة واحدة برفقة حبيبته التي صارت زوجته قبل الانتحار بساعات.

سرَحتُ قليلاً في التاريخ الذي يعيد نفسه بشخصيات مختلفة. تقول الروايات المتخيَّلة إنّ هتلر لم يضع المسدّس على جانب رأسه الأيمن، بل أدخل مقدَّمته كاملةً في فمه ثمّ أطلق النار دون أن تهتزَّ أصابعه، كان يمكن أن يغيِّر رأيه لو رفع السلاح قليلاً إلى أعلى أو صوَّبَهُ مباشرةً إلى صدره، أرادَ موتاً سريعاً قبل وصول الجنود إليه تحت الأرض. قبل هذا المشهد بلحظات وقفَ أمام المرآة بكامل أناقته،

لم ينسَ أن يرتدي اللفحة السوداء الصوفية حول رقبته، أراد موتَهُ بهذه الطريقة الاحترافية دون تأخير وألم، وقبل أن ينهض من خلف مكتبِهِ الكبير تحت الأرض فتح الدرج الأخير واختار السلاح الأسود، نظرَ بعينين زائغتين إلى المسدّس الفضّي ذي البكَرة الدائرية، كان احتمال خروج الرصاصة منه واحداً إلى ثمانية، بينما مع المسدّس الأسود ليس هناك احتمالاتٌ لعدم خروج الطلقة من بيت النار نحو مستقرّها الأخير، كان هذا الدرب هو طريق الجبناء الذين يموتون دون عناء كما وصفه صدّام. ربّما كان المشهد الأكثر بعداً عن ذهنيَّتِه في تلك اللحظة هو إعدام الجنود الرومان لتشاوشيسكو رمياً بالرصاص بعد أن ألقوا القبض عليه برفقة زوجته.

رجلٌ بسبع أرواح وعدّة حروب وبتسعةٍ وتسعين اسماً، شجاع على الطريقةِ البدويّة التي لا تكفي للفوز بحرب، يصف الذين أسقطوا تمثاله قبل قليل بالغوغاء وهو جالسٌ برفقة اثنين آخرين – كنت أنا واحداً منهما – في غرفة صغيرة بشارع السعدون بينما كلّ قوات الاحتلال في العراق تبحث عنه بعد أن رصدت جائزة مالية كبيرة لمَن يُدلي بمعلومة تؤدّي للقبض عليه. ماذا يمكن أن تتحدَّث مع رجلٍ كان يعطي الفرصة لأشخاصٍ يدركُ جيّداً أنّهم سيقعون في مصيدة الغلط؟ لقد كان قادراً تماماً على التمييز بين الخطأ القادم من عدم المعرفة وذاك القادم عن وعي تامّ، فَعمَدَ – طيلة سنوات حكمه – إلى دفعِ الجميع نحو حتفهم بينما كانوا يسيرون واحداً واحداً كما خطَّطَ لهم نحو جرفٍ هارٍ من الهاوية التي لا يمكنهم أن ينهضوا بعدها. في الحقيقة، كانت النجاةُ من المصيَدةِ أشبَه بالعودةِ نحو الحياة التي نعرفها بعد ولوجِ الثقب الأسود. اصطيادُ الآخرين واحداً بعد الآخر كما يفعلُ القنّاصُ مع الفرائس في الغابة، إذ يتركُ الفريسة تركضُ في أيّ اتّجاه شاءت ثمّ حين يأتي الوقت ينقلها بحركة واحدة

نحو تقاطع النيران ويُرديها، تلك كانت لعبته المفضَّلة إلى جانب ولَعِهِ الشديد بفتح جبهات جديدة.

ماذا يمكن أن تتحدّث مع رجل يتفنَّنُ بصناعة الأعداء؟ قليل الكلام؟ لا يمكن للجالس معه أن يأخذَ منه أكثرَ من كلمتين، وفي أفضل الأحـوال خمس كلمات قاطعة المعنى، رجل يضعُ المقتول في مواجهةٍ أمام الرصاصة التي نُقِشَ عليها اسمه، يحفظُ وجوه مَن يلتقيهم سواء اغتالَهم أم لا، الانتقام – حتى لو تأجَّل – له مفعولٌ سحريٌّ يلمعُ في مخيِّلَتِه كلما حضر، كتمُ الأسرار عنده هو القيمة الكبرى، فالإنسان لا يمكن أن يكون على طبيعته بدون الأسرار التي يمتلكها عن نفسه أو عن الآخرين، ففي نهاية الأمر «لسنا أكثر أو أقلّ ممّا نختار أن نكشف عنه للآخرين»، كما قال آنفاً بعد صمتٍ حينَ وُصف عبرَ الراديو بالطاغية. قبل أن يُضيف: «طاغية... بعد 200 عام، كلُّ الأشياء التي فعلتُها لن توضَعَ في خانة الأخطاء».

ما هذا القدرُ الذي جاء به في هذه الليلة تحديداً إلى هنا؟ لقد كان في نظر نفسه وكثيرين آخرين يمثِّلُ كلّ الفضائل التي من الممكن أن تتجسّد في آدمي. ما زلت أذكر كيف تداول الطلّاب في الجامعة قراره كتابة القرآن والإنجيل والتوراة بدمه، كانت أكياس الدم التي يتبرَّعُ بها كلّ أسبوعين تُختَمُ بخاتمه الشخصي وتُسلَّمُ ساخنةً إلى الخطّاطين الذين يسكبونها بكثيرٍ من الحرصِ المبالَغ فيه في أوانٍ تحملُ صورته، ثمّ يبدأ العمل، صفحةٌ من القرآن وصفحةٌ من الإنجيل وصفحةٌ من التوراة، أعتقد الآن جازماً أنّه لم يكن يفعل ذلك إلّا ليُقالَ إنّه أوَّلُ رجلٍ في التاريخ يخطُّ من دمِهِ الكُتب السماوية الثلاثة، لم يكن مسموحاً أن تتسرَّب قطرةُ دمٍ واحدة إلى الخارج، تسريبُ قطرة دمٍ إلى الخارج كان يعني خروج أكبر أسرار الدولة إلى الضوء، فذلك الرجل يجب ألّا يظهر بمظهر الانسان العادي الـذي يحمل أمراضاً

وراثيةً أو التهاباتٍ في الأعضاء الحيوية من جسده. بعد ذلك بأشهر تداول الناس ثلاث مخطوطات لشجرات عائلية تشير الأولى منها إلى انتهاء نسبه بالنبيّ محمد صلّى الله عليه وسلم، والثانية تصلِهُ بالنبيّ عيسى المسيح عليه السلام، أمّا الثالثة فكانت تنتهي بالنبيّ موسى عليه السلام، وكلُّها مرفقة بتسعة وتسعين اسماً تؤرِّخ وترسم صورته ومراحل حياتِه.

أردتُ أن أُبعِدَ هذه الصورة عن حضوره الأعزل الآن أمامي، أردت أن أنبش في الجانب الإنساني فيه، فسألتُه عن العائلة، فقال بكلمات مقتضبة:

– خرجوا قبل أيّام.

ثمَّ نظرَ إلى الخارج من زجاج الشرفة ووجَّه كلامه للمرافق:

– سنذهب.

هزَّ المرافق رأسه وما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى هبط الدرج إلى الشارع بخطوات حذرة، نهض صدّام عن كرسيِّه واتّجه نحو المكتب الصغير، تناول ورقة بيضاء واستلَّ قلماً وكتب نصّاً وقبل أن يطوي الورقة فتحَ رأس الخاتم في كفِّه اليمنى وختم عليها. ومع عودة المرافق بتطمينات أنّ الطريق آمن للخروج، قام الرئيس مرّةً أخرى ليُحكِمَ ربطَ الشماغ على وجهه ولفَّ عباءتهُ جيّداً، وقبل أن يخرج، فتح الحقيبة الصغيرة وترك لي رزمة من الدولارات مع سيجار واحد ثمّ احتضنني شاكراً وخرج.

أصابني الذهول حين شعرتُ بالحزام الناسف الذي يرتديه الرئيس تحت عباءته، تردَّدَت أمامي كلماته التي قرأتها مراراً على الجدران في شوارع المدن العراقية:

«لا تُشعِل حرباً أنت تعلمُ أنَّكَ ستخسرُها»، «مَن لا ينزف عرقاً في التدريب، لا ينزف دماءً فداءً للوطن»، «إذا خانتك قيم المبادئ

فحاول ألّا تخونك قيم الرجولة»، «إنّ قوّة الحق عندما تجابه الباطل والانحراف تتحوّل إلى طاقة فعل هائلة»، «أعـرِفُ الخائنَ قبلَ أن يعرِفَ نفسَه».

لم يكن مروره بالعيادة خيالاً! لقد كان هنا! حين أغلقت الباب جيداً، أسندتُ ظهري إليه قليلاً، وتنفَّستُ الصعداء. ثمّ سارعتُ نحو الشرفة أرمي البصر بعيداً نحو الساحة والشارع، فرأيتُهُ من بعيد بعد دقائق مع ثلاثةٍ آخرين يمشي بعضهم خلفَ بعض حتى ابتلعهُم شارعٌ فرعي ثمّ اختفوا جميعاً. لقد كان يهربُ من قدَرِهِ الآنيّ ليواجِهَ قدَرَهُ النهائي!

بدأت الدقائق تمرُّ ثقيلة بالأسئلة. كيف وصلَ إلى هنا؟ إلى أين ذهب؟ ماذا تخبّئ الأيّام القادمة للبلاد؟ وهل سيمرّ هذا اللقاء من دون تداعيات؟ الأسئلة وحدها واضحة في رأسي، تدور مثل نحلٍ في خليّة لا تنام. أمّا الأجوبةُ، فكانت تتطاير في السماء كقصاصات الأوراق التي تلقيها طائرات التحالف في الخارج دون أن تحقق أهدافها.

تمدَّدت على كرسيّ المرضى بعد أن فتحته إلى أقصاه. البلاد تحترق في الخارج، أدرت المذياع على صوت الأخبار وغفوت في نومٍ قطَعَتهُ مراراً أصوات الطائرات والهتافات القادمة من الشوارع المجاورة.

ووجدتُ نفسي أعيد السؤال مرّة أخرى: ماذا يمكن أن تتحدّث مع رجلٍ فقدَ كلَّ شيءٍ مرّةً واحدة والعالم بأسرِهِ يبحث عنه؟ رجلٌ كان يؤمنُ طيلةَ حياتِه بأنَّ استعداده الدائم للتضحية بالجميع يجعله قائداً بلا نقطة ضعف. تداخلت عندي الأفكار بعضها ببعض، فالطبّ يفرض عليَّ معالجة المريض أيّاً كان، ومن جهة ثانية فإنَّه مريضٌ غير عادي، لا يتكرّر، نهضت مفزوعاً من نومي، تذكّرت جلوسه القصير على المكتب الصغير، وبخطوةٍ واحدةٍ وجدتُ الورقة التي ختمها

مطويّة على الطاولة، قبل أن أفتحها حضَرت صورةُ اللون الأسود على رؤوس أصابعه فقطعت خطوتين أُخريين نحو الغرفة الصغيرة، لقد ألغى الزاوية التي يأتي منها الضوء في اللوحة. الورقة بين أصابعي، فتحتها أمام اللوحة التي أطفأ الرئيسُ فيها الضوءَ، وعلى بعدِ أمتارٍ قليلةٍ من الكرسيِّ الذي جلس عليه، كانت عيناي تسابقان الكلمات التي كتبها بخطٍّ أنيق مائل:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحنُ صدّام حسين المجيد، قرّرنا منح الدكتور علي محمد ناظم حكمَت العمر وسامَ الرافدين من الدرجة الأولى، تقديراً لما قدَّمَهُ من خدمات جليلة للقيادة ولشعب العراق العظيم، وامتناناً منّا لسيرة جدِّهِ الأول حكمَت العمر الذي عمِلَ بإخلاص على دعم ثورة شعب العراق عام 1941.

صدر في بغداد – دار السلام

2003-4-9

صدّام حسين

تسارعت أنفاسي وبدأت ألهث، حجابي الحاجز يطبِق على صدري، أشعر برغبة في التقيّؤ والتبوُّلِ معاً، هل من الممكن أن أعيش كلّ هذه السنوات مكشوفاً إلى الحدِّ الذي لم أشعر به ولا أعرف عنه أبداً، أنا الهاربُ من صورة الديكتاتور كيف لي أن أكون في قلب دائرة النار كلَّ هذا دون أن أحترق.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

نحنُ صدام حسين المجيد. قررنا منح الدكتور علي محمد ناظم حكمت العمر
وسامَ الرافدين من الدرجة الأولى. تقديراً لما قدَّمَهُ من خدمات جليلة
للقيادة ولشعب العراق العظيم. وإمتناناً منَّا لسيرة جدِّهِ الأول حكمت العمر
الذي عمِلَ بإخلاص على دعم ثورة شعب العراق العظيم عام ١٩٤١

صدر في بغداد- دار السلام

٩-٤-٢٠٠٣

صدام حسين

الفصل الثالث

هذه البلاد تخاف من التعلُّق بالمطلق، منيعةٌ ضدّ الإطراء ولا يغريها أبداً النفاذ إلى الجوهر، أسقَطَت العثمانيين وطردت الإنكليز وها هي تخرجُ من وطأةِ الحكم المستبدّ. سنواتها الخاليةُ علَّمتها كيفَ تُصافِح مَن يأتيها باليد اليمنى، بينما تكون يدها اليسرى على السلاح، صفحات التاريخ فيها لا تحتفظ بروايات الضعفاء وقصصهم. هذه البلاد لا تخاف من البشر الساكنين فيها وإنّما تخافُ من أحلامِ الشيطان القابعِ داخلهم، عشتُ فيها على هامشِ حياتِها بين ثنائيّتَي المواطن الصالح والطالح، عارفاً تماماً الفرق الكبير – في شوارعها – بين الخصم والعدوّ. فكيفَ وضعتني، قبلَ أن تُسدِلَ الستار على المشهدِ الأخير من حقبة عراق صدّام حسين، في واجهةِ الأحداث؟

خرجتُ من العيادة باتّجاه شارع السعدون، لأول مرّة أمشي فيه منذ بدء الحرب، المحالّ العامرةُ بالفرح المؤقَّت الممزوج بالبؤس قد أُغلِقت، والطريق المؤدّي إلى مقاهي أبي نُـوّاس قد سُدَّ تماماً. تبدو المدينة وقد صارت مدينة أشباح خلا بعض الشبّان وكثيرٍ من الجنود والمدرّعات التي ترفعُ العلمَ الأميركي، أو السيّارات المدنية التي تعلوها الراية البيضاء، وجـدتُ نفسي فجأةً في ساحةِ معركةٍ

مُنتَهية، أو ربّما لم تحدث أصلاً، في المدينة. يركضُ بعض الجنود على الشريط الرملي الواسع الموازي لنهر دجلة، بعضهم دسَّ جسده بين أعواد البردي وآخرون رمَوا أنفسهم في النهر، الباقون ابتلَعَتهُم الخنادق المحفورة حديثاً بينما لاحقهم وابلٌ من الرصاص الصادر من بندقيات «إم 60». إنّها الجولة الأخيرة في المعركة، انفجارٌ يليه انفجار كأنَّ رأسَ نمرٍ جائعٍ يطيرُ فوق المدينة وهو بحالة الجهوزية التامّة للانقضاض على أيِّ فريسة. تبحثُ العاصمةُ عن أسلافِها بينما يأكلُ الذئبُ شوارعَها. حملتُ جسدي على قدمَيَّ مستحضراً حواسّي كلَّها؛ السمعَ والبصرَ واللمسَ والشمَّ والتذوُّقَ والقلبَ والعقل، حاولتُ أن أستحثَّها كلَّها لتعملَ بعيداً عن الذاكرة والحاضِر الذي يفرِضُ أدواتِـهِ الآن من أمامي ومِن خلفي ومِن فوقي بمنطق القوّة والأمر الواقع، مشيتُ حتى بداية ساحة الفردوس، الأحجارُ التي تناثرَت من قاعدة التمثال الذي أُسقِطَ قبل ساعات ما تزال مكانها بينما اختفت أجزاء التمثال كاملة من المكان، الصحافة والكاميرات في كلّ زاوية. رأيتُ بعض الوجوه التي أعرفها، لقد زارني مرافقٌ عراقي مع صحافي نرويجي مع بداية أبريل في العيادة، كان الصحافي يبحث عن ملاذٍ آمنٍ للسكَن إذا ما عمَّت الفوضى ببغداد بعد أن بدأ ممثّلو وزارة الإعلام بمضايقة الصحافيين الأجانب وابتزازهم من خلال إجبارهم على البقاء في أماكن محدّدة. تحاشَيت النظر إلى الجَمع، وأكملت الطريق باتّجاه جامع 17 رمضان ومنه إلى أمام فندق الشيراتون حيث وجدتُ سيّارة أجرة، ارتمَيتُ إلى جانب السائق ككتلةٍ صخرية هبَطت فجأةً من أعلى جبل، بعد أن أخبرتُهُ عن وجهتي نحو الكرخ.

– إلى شارع السفارات.

– أين في شارع السفارات؟

– بعد النفق، هناك تقيم أختي!

حقيقةً لا أخت لي في هذه البلاد أو خارجها، لكنّي لم أشأ إخبارَ السائق عن نيّتي الذهاب إلى السفارة الفلسطينية، فقد سمعت من بعض الصحافيين لحظةَ مروري بساحة الفردوس عن اعتداءات يمارسها العراقيون بحق الفلسطينيين في بغداد باعتبارهم كانوا مستفيدين من امتيازات خاصّة منحها لهم النظام الذي بدأ يُعرَّف رسمياً «بالنظام السابق». راح السائق يكيل الشتائم لصدّام باعتباره مسؤولاً عن كلّ ما حدث، حالةٌ من الفوضى والعشوائية في كلّ شيء.

«البلاد تسير نحو مستنقعٍ كبير، بينما صدّام يظهر في الأعظمية لدقائق ثمّ يختفي، الجيش العراقي كأنّه مجموعةٌ من الأشباح التي طارَت»، قال السائق ثمّ بدأت الدموع تنهمر من عينيه.

سرَحتُ في الأفق البعيد حتى وصلنا إلى جسر السنك الذي كان مغلقاً بسبب وجود شبّانٍ عرب يحملون أسلحة كلاشنيكوف قديمة ويربطون رؤوسهم بشماغات حمراء وبيضاء، فعاد السائق إلى جسر الجمهورية. شبّاكُ السيّارةِ نصف مفتوح عن يميني، شعرتُ بأنَّ الريحَ تعوي في شوارع بغداد بينما ترتفعُ طائراتُ التحالف الدولي والهيليكوبترات على مقربةٍ من الأرض بطمأنينةٍ كاملة. في مدخل الجسر كانت سيّارة مدنية تحترق وجثث ساكنة في سيّارات أخرى، الجسر مغلق وسيطَرات أميركية في المكان تفتِّشُ المارّة رجالاً أو راكبي سيّارات. تحسَّستُ الورقة المطويّة التي دسستها في جيب جاكيتي الداخلي، كأنّني أتحسّس قطعة سلاحٍ مخفيّة في بلادٍ بدأت تغرقُ بالسلاحِ حتى أُذُنيها.

رتلٌ من الدبّابات الكبيرة يحتلّ خطّاً كاملاً من الشارع فوق الجسر بينما سمحت السيطرة في مدخل الشارع لبعض السيّارات بالمرور من ضفة إلى أخرى. دباباتٌ تلتصقُ بعضها ببعض، مجمَّع القصر الجمهوري يبدو واضحاً على طرف الجسر، جنودٌ من المارينز

يتخِّذون وضعيات مختلفة في الرتل الطويل. هذه بغداد الجديدة التي تسير على إيقاع الرشّاشات الخارجة من فتحات الدبّابات العسكرية الأميركية.

الزمن يطول أكثر من المعتاد، هكذا تغدو الدقائق في مدينةٍ يسكنها الموت من الأرض والسماء، يهاجمها ويخترق أبوابها دون استئذان. قرّرت الذهاب إلى عبد الرحمن العايش أو كما يُحبُّ أن يُنادى باسمه الحركي «أبو الكرم». علاقتي به تعود إلى سنواتي الأولى في العراق، كبُرنا معاً، درسنا معاً، لقد وُلِد في بغداد ضمن الجيل الثالث من الفلسطينيين الذين قدِموا عام النكبة وقبلها. جدُّه الأول وصل إلى بغداد منفيّاً من فلسطين عام 1939 بعد إدانته بدعم الشيخ فرحان السعدي الذي أعدمته قوات الانتداب البريطاني وهو صائم. كثيراً ما كان العمّ أبو عبد الرحمن يتحدّث عن هذا الرجل وهو يشير إلى صورة تجمع الشيخ فرحان بالجدّ الأول مع آخرين في قضاء جنين، يحكي عنه بكثيرٍ من الاحترام والتقدير ويهاجم في ذات الوقت وجوه الحركة السياسية في فلسطين بذلك الزمان، الصورة نقلَها عبد الرحمن معه إلى بيتِهِ بجانب السفارة الفلسطينية بعد تعيينه فيها، كثيراً ما خضنا النقاشات حول تجربة السعدي كامتداد لحركة المقاومة الأولى التي قادها عزّ الدين القسّام من سوريا حتى فلسطين، التشابك الجغرافي، الزماني، المكاني، كله يفرِضُ نفسه في صورة واحدة تختصر مشهد اقتياد السعدي وهو في الثمانين من عمره نحو المِشنقة مواجهاً حبل الإعدام. قبل هذا المشهد بأسابيع اعتُقل جدّ أبو الكرم بعد الهجوم على قافلة إنكليزية في قرية المزار، دفعَ والده كثيراً من المال حتى يُخفَّف الحكم من الإعدام إلى النفي. لطالما ردّد والد أبو الكرم جملة قالتها جدَّته لابنها حين خروجه من البلاد كي تخفّف عليه من وطء الحدث:

– خلف الجسر سترى الجنّة.

ردَّ الابنُ يومها:

– هل ترينَ الجنّة بعدَ الجسر أم قبلَه يا أمّي؟

لم يترك الجدُّ الأول خلفه سوى بعض الحكايات التي تناقلها الأبناء في العائلة من جيل إلى جيل، وجَد أبو الكرم بعض الأوراق الصفراء التي كتب عليها الجدّ بقلم رصاصٍ كلمات بأحرف كبيرة في آخر أيّامِه ببغداد، أرادها الجدُّ حبلاً سريّاً يصلُهُ بهناك، رغم يقينه أنّه سيموت وسيُدفَنُ هنا في بغداد. ذاكرةٌ يُفرِغُها الرجلُ بكثيرٍ من الحرص، بشكلٍ قريبٍ إلى رسم المصحف، وكأنَّهُ يستعيد في داخله الطفلَ بكُتّابِ القرية، كثيرٌ من الكلمات ضاعَ مع الزمن لكنّنا استطعنا فكَّ بعض الرموز وربط القصص.

يقول الجدّ في حكاياته التي تناقلناها بيننا:

«كنتُ في السابعة من عمري حين ضرب الجراد البلاد، جاء على شكل غيمةٍ كبيرة غطَّت السماء، وانقضَّ على الأرض، ضاعت المحاصيل واستولى الجراد على المخزون من الغذاء، جرَّبَ الناسُ كلَّ شيء للخلاص منه، أخذوا بكلِّ نصيحة، أذكر ذلك المهندس اليهودي الذي أتى من مصر لعلاج المسألة، طلبَ من الناس حفر الخنادق وملأها بقطعِ القماش والأكياس ثمّ إضرام النار فيها، كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها النار بهذا الشكل، لقد كان الجراد مثل قشرة الأرض كأنّه يحمل الشرار من النار على ظهره، لكنَّ النارَ أتت على المحاصيل التي نجَت من الجراد. كان عاماً قحطاً، جاع فيه الناس حتى صارت المرأةُ تُزوَّجُ على مهرٍ مقداره كيس من القمح. جيش السلطان كان مشغولاً بمعارك أخرى، وحدهم الضبّاط العرب في الجهادية كانوا يتواصلون مع الناس، أذكرُ اثنين منهم كانا برتبة رئيس، الأول اسمه رضا وقد تزوّج بعمّتي عليّة لأشهر قبل أن تبتلعه

حياة العسكر، أمّا الثاني فكان اسمه حكمت، أُصيبَ بحروقٍ كثيرة في ظهره فمكَثَ أسابيعَ في الغرفة التي جمعت رضا وعمّتي، قبل أن يغيب الضابطان إلى الأبد بعد وصول أوامر من الوالي بضرورة الالتحاق بالجبهة».

كان لوقع هذا المقطع في عينيَّ حضورٌ كبير، فأيُّ الأقدار هذه التي تدفعُ بالبشر إلى دوائرَ لم تكن في حساباتهم أبداً، وكَم تتآمرُ الأيّامُ في ما بينها لتضعنا في تتاليها أمام معادلات صعبة، لقد كنتُ ذلك الحفيد الذي مرَّ جدّه الأول وزوج جدَّتِه نجوى بالعائلة الفلسطينية.

مات جدُّ أبو الكرم بعد ثلاثين عاماً من خروجِه من فلسطين، أي قبل وصولي إلى بغداد بعشرين عاماً تقريباً، مات بعد أن أخفى لعشر سنوات في بيتِه الصغير حزقيل ابن صديقه شمعون على أنّه واحد من أبنائه، عائلةُ شمعون قُتِلت جميعاً في أحداث الفرهود ببغداد يوم الثاني من حزيران لعام 1941، نجا الطفل حزقيل حينها فوجده جدُّ أبو الكرم الذي رعاه وآنسَه بعد خوف، ولم تمضِ عشر سنواتٍ حتى انسلَّ الطفل الذي صار شابّاً خارجَ أسوار المنزل قاطعاً الحدود والبراري نحو فلسطين، تاركاً خلفه بعض الصور التي تجمعه مع والد أبو الكرم وبعض أصدقائه في بغداد.

طيلة سنوات علاقتي بهذه العائلة لم أسمعهم يُردِّدون اسم «فلسطين»، كانوا يستخدمون وصف «البلاد» حين يأتي الكلام عنها، وكأنَّ كلّ الأرضِ ليست بلاداً لهم بعد أن صار الوطنُ لآخرين.

أصواتُ الطائراتِ تعلو في السماء، فيعود سائق سيّارة الأجرة للعن الزمان والمكان وصدّام والاحتلال، في الحقيقة لم يتوقف عن ترديد الشتائم طيلة الرحلة حتى وصلنا بالقرب من السفارة، على وقعِ كلماتٍ غاضبةٍ تخرجُ من السائق، هبطتُ ومشيت خطواتي نحو مبنى

السفارة، كان هناك بعض الرجال الواقفين، وما إن اقتربت حتى حيّاني أحدهم قبل أن يرشدني إلى مكان أبو الكرم. وأنا أقطع الخطوات نحو مكتبِه كنتُ أفكِّرُ في شهر نيسان الذي شهِدَ ميلاد البعث وسقوطه.

الآن، وقبل أيِّ شيء آخر، يحضر نيسان أمامي بوصفه الشهر الذي تلى شهر الجراد في فلسطين، وربّما هو الشهر الذي أُحرِقَ فيه ظهر جدّي، لكنَّ التاسعَ من نيسان في ذاكرتي وذاكرة أبو الكرم ارتبط بمجزرة دير ياسين التي بحثناها معاً، بنينا – زياد، أبو الكرم، هيثم، وأنا – مع طلبةٍ آخرين، وعلى مساحة مترين في باحة الجامعة، ساحةَ قرية دير ياسين، وضعنا أحجارَ الشطرنج بمثابة جنود الآرغون والشتيرن، بكَينا حين أدخلنا الجنود من جهتي الشرق والجنوب في القرية ليفاجئوا أصحاب البلاد الآمنين النائمين، ذبحوا الرجال وبقَروا بطونَ النساء الحوامل، كان الجنود يتراهنون على جنسِ الجنين قبل قتل أمِّهِ وإخراجِه ميِّتاً.

هدمنا البناء المُصغَّر في ساحة الجامعة ببغداد كما فعل الصهاينة في بيوت القرية بفلسطين التي أعادوا بناءها بعد ذلك باثنين وثلاثين عاماً وأطلقوا على أحيائها أسماءَ القتَلة.

وصلتُ إلى باب المكتب وَعيناي تسبقانني نحوَ بابه المفتوح، كان أبو الكرم يجلس وحيداً حين دخلت عليه، وقد بدا أكبر من عمره بعد أن أطلق لحيته. أمامه – على غير عادته – نصف سيجارة مشتعلة يتصاعد منها الدخان مختلطاً بالرائحة الخارجة من كوب القهوة الذي يبدو ساخناً. أثرُ الدموعِ في عينيه كان واضحاً حين اقتربت منه، تبادلنا العناق وجلست ساكتاً.

غالباً ما تكون إشارات العيون – دون كلمات – أبلغَ من أيِّ تعبير. تقاطعت عيوننا بعد صمتٍ فهززتُ رأسي بينما ضربَ بيدِه اليسرى على فخذي الأيمن قاطعاً الصمت:

– لو لم تسقط دير ياسين، لما وصلنا إلى هنا!

أصابني الجمود:

– قبل أن أدخل من الباب كنتُ أفكِّر في هذا.

– منذ الصباح وأنا أستعيد من ذاكرتي الأشياء التي حدثت في هذا اليوم، أو في شهر نيسان. كلها إشاراتٌ إلى زمنٍ لا يشبِهُ ما سبَقَه.

أهزُّ رأسي ساحباً عن الطاولة الصغيرة بيننا سيجارةً من علبةٍ نقصت عدّة سجائر فقط، بينما يتابع أبو الكرم:

– مجزرة قانا في لبنان، اغتيال كمال عدوان وكمال ناصر وأبو يوسف النجّار في بيروت.

– ميلاد البعث وسقوطه.

– اتّفاقية رودس بين إسرائيل والدول العربية.

– حادثة بوسطة عين الرمّانة التي شكَّلت الشرارة الأولى للحرب الأهلية في لبنان.

– مجزرة مدرسة بحر البقر بمحافظة الشرقية في مصر.

– لقاؤنا الأول مع هيثم في الصفّ الأخير من المدرسة الثانوية حين انتقل من كربلاء إلى بغداد مع عائلته، وكنت قد وصلت حديثاً إلى المدرسة.

عند هذه الجملة، ضحكَ أبو الكرم حتى اختلط الضحكُ بالبكاء، ثمّ استدرك نفسه:

– لماذا لم تأتِ أمس، كان هيثم هنا وأراد أن يراك، لم يكن لديه الوقت الكافي للمرور بك، جاءني على عجَلٍ مُودِّعاً قبل أن يعود إلى كربلاء.

– كيف هو؟ سألت.

– كان منهاراً تماماً، خلَعَ بدلته العسكرية هنا ولبسَ من ثيابي بدلة مدنية قبل أن يطلب أن يوصله السائق إلى أطراف بغداد، كان منكسراً تماماً.

صمت أبو الكرم وتناول نصف السيجارة من أمامه، بينما سرَحتُ في هيثم.

صديقٌ قديم، والده مات في سنوات الحربِ الأولى مع إيران، لم يتسلّموا جثّةً له، قيلَ إنَّهم استدلّوا على موتِه مِن بقايا هويَّتِه المقطَّعة إلى جانب قطَعٍ من اللحم البشري بعد انفجارٍ كبير على الجبهة.

انتسبَ هيثم في صغره إلى أشبال صدّام ثم تابع الدورات التدريبية بعد موت والده وصولاً إلى الكليّة العسكرية التي تخرّج منها ضابطاً، ليتابع دراسته حتى أصبح أستاذاً في كليّة أركان الحرب قبل أن يُنقل إلى هيئة أركان وزارة الدفاع منتصف عام 2002. لقائي الأخير معه كان بحضور أبو الكرم في العيادة مع نهاية شباط أو بداية آذار قبل الحرب بعشرين يوماً تقريباً أو أكثر قليلاً.

بدا حينها غير واثق ممّا سيحدث، كلماته ظلَّت عالقة في ذهني:

– الجيش سيخوض المواجهة بأسلحةٍ تعود للستينيات في حربٍ تحدث عام 2003!

سأله أبو الكرم يومها:

– هل التقيتم بالقيادة؟

– قبل أيّام، أخبرونا عن طريق مكتب رئاسة الأركان في وزارة الدفاع عن رغبة الرئيس في رؤية الضبّاط من قادة الكتائب، ذهبنا إلى الوزارة ومنها صعدنا بسيّارات عادية إلى قصر الراية بالرضوانية، لم تكن هناك ترتيبات حقيقية لرؤية الرئيس.

– كيف؟ سألتُه حينها.

– عادةً تكون هناك ترتيبات مختلفة، كأن يتمّ إخطارنا بمكان الاجتماع ثم يُبدّل في الطريق إلى مكان آخر، في مثل هذه اللقاءات يركب الضبّاط سيّارات بنوافِذَ مخفيّة ويخضعون لتفتيش وفحص أمني شديد، كلّ هذا لم يحدث، حتى دخل كثيرٌ منّا بسلاحه الفردي إلى صالة القُبّة بالقصر دون أن يسأله أحد، أمّا الرئيس فقد بدا أكبر من عمره بكثير، لقد رأيتُ الهَرَمَ في عينيه، التجاعيد في ظاهر يده، كان على صورة هزيمة رغم محاولاتِه الاستعلاء على هذا الإحساس، شعرتُ بالخسارة تحاصرنا في ذلك اللقاء رغم حرصِه على السؤال عن الإعداد والخطط، في نهاية اليوم أدرك الجميع أنّها الخطوات الأخيرة باتّجاه الحرب ونحو النهاية، بعد ذلك اللقاء لم يعد السؤال: هل هناك حرب؟ بل كان السؤال الذي سكننا: متى ستبدأ؟

– ألم تكونوا جاهزين لذلك؟ قال أبو الكرم.

– لقد بدأ الإعداد عملياً للحرب منذ عام تقريباً، واكتمل مع نهاية آب أغسطس من عام 2002 حين تمَّ تنفيذ المشروع العسكري «لعبة الحرب»، لكن هناك شيء ما ناقصٌ، يريدون أن تصمد بغداد مِن 3 أشهر حتى 6 أشهر، هذا شيء غير ممكن في ظلّ العتاد والإمكانيات الموجودة.

– ألا توجد خطة محكمة للدفاع عن بغداد؟ سألتُ.

– نعم، هناك خطة وضعها ضبّاطٌ أكفاء لكنّ تنفيذها يقع على عاتق قوّات الحرس الجمهوري وهذه لا تتبع عسكرياً لوزارة الدفاع أو الأركان كما تعلمان، فكيف سيضمن الجيشُ تنفيذها في الوقت الذي تُهاجَمُ فيه مدنٌ أخرى، العراق ليس بغداد فقط!

تابعَ هيثم حديثه وهو يهزُّ رأسه: العراق ليس بغداد فقط، منطقٌ حربيٌّ غريب لم أسمع أو أقرأ عنه في حياتي العسكرية، يعتبرون دخول التحالف إلى المدن العراقية الأخرى حصاراً لتلك القوات.

أصابع كفِّهِ كانت ترتجف حين تناول ورقة عن الطاولة في العيادة وراح يرسم خرائط، طبعاً تخلَّصتُ منها فورَ مغادرتهما المكان. قال هيثم حينها:

– تخيَّلا؛ لنفرض مثلاً أنّ القوّات الغازية دخلت إلى البصرة، إلى مركز البصرة تحديداً، وسيطرت عليه. هذا يعني، بحسب منطق القيادة في الحرس الجمهوري ووزارة الدفاع، أنّها أصبحت محاصرة تماماً من الشعب العراقي وممّا هناك من جنودٍ في صفوان والزبير والجِبايِش وصولاً إلى العمارة، كيف هذا؟

قال أبو الكرم:

– هناك رهانٌ على وقوف الناس ضدّ الغزو.

تابعتُ:

– لكنَّ الناس يا هيثم – وأنت تعلم ذلك جيداً – لن تكون إلّا مع مَن يفرِض القوّة على الأرض، أنت تدرك أكثر من غيرك ما حدث في الجنوب عام 1991. كيف عاد الناس بعد أن قاموا بنصف ثورة، لقد حفروا قبرهم الجماعي بأيديهم طيلة السنوات اللاحقة. هل تُنكِر ذلك؟

– أعلم... والله أعلم، لكن لا أحد يريد أن يسمع، قصيّ يقود قوّات الحرس الجمهوري في معركة بغداد بدون خبرة عسكرية حقيقية، هناك مسافة كبيرة بين الضبّاط القادة والضبّاط في الميدان والجنود في القطعات، مسافةٌ تجعلُ الأميركان أقرب إلى الأرض من العساكر، لكنّنا سنقاتل، سنقاتل لأجل عيون العراق... قال هيثم ذلك قبل أن تنهمر منه دمعتان.

قطعَ استرداد أصداء هذا الحوار الذي جرى منذ أسابيع وأكَّد هيثم علينا للإبقاء على سريَّته المطلقة، صوتُ أبو الكرم قائلاً:

– لقد مرَّ إلى هنا، كان التعبُ قد تمكَّن منه، قبل أن يغادر إلى كربلاء.

– التعب أم الهزيمة؟ ثمّ أردفت قبل أن يجيب: هل قال شيئاً؟

– لقد قال إنّ بغداد سقطت عملياً يوم 4 نيسان/أبريل. تناول أبو الكرم ورقة عليها بعض الخطوط من الطاولة الجانبية ووضعها أمامي وقد انحنى بشقِّهِ الأعلى نحوها، متابعاً: لقد قال هيثم إنّ المطار سقط يوم 4 أبريل/نيسان وبهذا أمَّن الأميركان اتّصالاً مباشراً مع العاصمة من جهة الغرب عن طريق الدورة، وأيضاً من اتّجاه الجنوب الشرقي عن طريق الكوت-بغداد، بعد ذلك بثلاثة أيّام دخلت قوّةٌ صغيرةٌ تمَّت تقويتها بإمدادات سريعة من التحالف عن طريق الدورة إلى القصر الجمهوري ظُهر يوم السابع من أبريل نيسان، في ذات الوقت اندفعت أرتال من المدرّعات والمُجَنزَرات من الجهة الجنوبية الشرقية نحو مركز المدينة بعد أن اجتازت جسر ديالى، وخلال هذا الوقت انتقلت قوّةٌ رديفة للقوّة الأولى من فوق جسر المثنّى قادمة من منطقة أبو غريب في الشمال، وبهذا اكتملت الصورة لدى مَن بقي في هيئة الأركان بأنّ بغداد أصبحت مطوَّقة بالكامل وسقوطها صار مسألة ساعات.

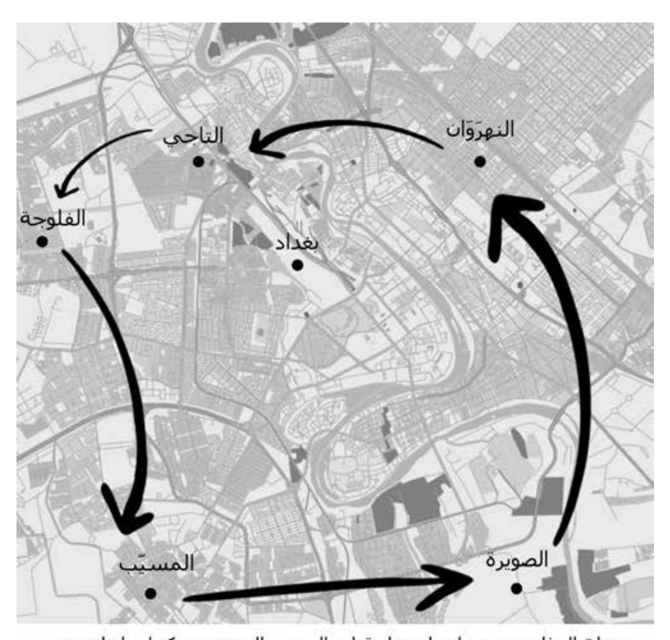
لهذا انسحب هيثم من الوزارة وقدِم إلى السفارة بعد أن علِم من عدّة مصادر أنّ كربلاء قد سقطت مساء السادس من أبريل نيسان.

كأنّني في حلُم، أشبكُ أصابعي فوق رأسي سائلاً أبو الكرم:

– هل سألته عن خطّة الدفاع عن بغداد؟

– نعم سألته، فكما تذكر، تحدّثنا في العيادة عندك عن هذه الخطّة لكنّه لم يُفصِح عنها حينها، وحين سألته عنها أمس قال: «كان من المخطّط أن تبدأ القوّات الخاصّة منَ الحرس الجمهوري بالانتشار على خطّ يبدأ من الفلوجة على الضفة الشرقية لنهر الفرات حتى جسر

المسيِّب ثمّ تنعطِفُ شرقاً وصولاً إلى الصُويرة ومنها إلى النهرَوان شرقيّ بغداد، ومِن تلك النقطة تتّجه القوّات بامتدادها شمالاً نحو الطارمية والتاجي لتصنع ذراعَ دجلة الذي يشتبك مع نقطة البدء الأولى في الفلوجة، وبهذا الشكل يتمّ إحكام دائرة من الخطّ الدفاعي المتكامل على طوق العاصمة».



خطة الدفاع عن بغداد وانتشار قوات الحرس الجمهوري كما رواها هيثم

– وماذا حدث؟ قلتُ متلهّفاً بينما كان أبو الكرم يُعيدُ يديه من الهواء بعد رحلة الشرح عن الجهات تلك.

– ببساطة، لم يحدث هذا الانتشار، لأنَّ قوّات الحرس الجمهوري – المشغولة أصلاً بحصار القوّات الغازية في المدن المختلفة بحسب الخطة – استُنزفت بمعارك متنوّعة في الشمال والجنوب، لهذا خسرت أكثر من 40 بالمئة من تعدادها بحسب هيثم، كما أنَّ كثيراً من الجنود قرّروا العودة إلى مدنهم في الناصرية

وكربلاء والنجف والحلّة والديوانية والموصل والأنبار بعد ورود أنباء من ذويهم تُفيدُ بسقوطها.

– يا إلهي، ما كلُّ هذا يا أبا الكرم؟

– شبَّه هيثم قصّة ما حدث للنظام بطاولةٍ من الخشب تقفُ صلبةً لسنين لكنَّ الدود أكلَها من الداخل، فصارَت مثل هيكلٍ سقطَ ما إن فُتِحَ البابُ لتيّارٍ هوائي. لقد كان هيثم منهاراً تماماً، مهزوماً، لذلك أراد أن نجتمع لكنَّكَ لم تأتِ، صحيح لماذا لم تأتِ؟ ما الذي شغلك؟

أتجاهل سؤاله وأعيدُه إليه سؤالاً عن العائلة، ليجيب فوراً:

– هكذا تسير الأقدار، سافرت سهام والأولاد قبل أيّام إلى الأردن، كنتُ قلقاً عليك، لم أستطع الخروج من السفارة خلال الأيّام الماضية، لقد خطّطت مراراً لزيارتك في العيادة، نعيد بعضاً من أيّام زمان التي انتهت، آخر مرّة خرجت من هنا كانت في الأيّام الأخيرة من شهر آذار، ذهبت إلى المقبرة في الأعظمية لزيارة قبر والدي وجدّي، لم يكن أحد يعلم ما ينتظرنا.

قاطعته:

– أبو الكرم، هل ما تزال المكتبة الصغيرة التي فيها كتُبُنا في الغرفة الداخلية؟

كانت هذه إشارة إلى رغبتي في الحديث بأمر هام خارج نطاق أجهزة التنصُّت التي تزرعها عادة أجهزة المخابرات أو العاملون في السفارة. الغرفة الداخلية بناها أبو الكرم قبل عام تقريباً وهذا يجعلها المكان الأكثر أمناً في بغداد الآن لحديث سرّي.

– تعرف يا علي، والله اشتقت لملاحظاتنا على الروايات، كتب التاريخ واللوحات... تعال...

نهض ونهضت وراءه، مشينا حتى سحبَ الباب مُغلِقاً إيّاه بعد دخولي، فاقتربت منه وهمست:

– زارني صدّام قبل ساعات في العيادة! حين أرسلتَ الشابّ لإحضاري كان صدّام في الداخل.

فتحَ عينيه ويديه، بدَت الصدمة على وجهه، لقد تجمَّد تماماً، لا يعرف بماذا يردّ، تابعت حديثي:

– لقد أتاني مريضاً بالتهاب في السنّ، يبدو أنَّ الألم ساقه إلى الطبيب الذي يضمن أنّه لن يشي به أبداً.

– ماذا قال؟ سألني.

– لا شيء.

– ماذا سألته؟

– ماذا يمكن أن تسأل رجلاً فقد كلَّ شيء؟ المفارقة أنّنا شاهدنا معاً سقوط التمثال في ساحة الفردوس من شرفة العيادة.

بدا أبو الكرم وهو يزمّ عينيه ويفتحهما كأنّه يحاول تخيُّل المشهد من بعيد، هزَّ رأسه قائلاً:

– لا بدّ أنّك تمزح.

أخرجت من جيبي الورقة التي تركها لي صدّام ومددتها إليه فراح يقرأ.

– هذا رجل مجنون، خارج الزمان والمكان والتاريخ والجغرافية.

قاطعته:

– بل خرجَ من الجغرافية ودخلَ التاريخ.

– أين ذهب؟

– لا أعلم... بقي ساعات قليلة في العيادة وخرج مع مرافق مصلاوي[1] بعد أن ترك رزمة من المال وسيجاراً واحداً، وبالطبع بعد أن منحني وسام الرافدين!

[1] من الموصل.

– إنَّه يذكر جدّكَ الأول «حكمت» الذي مرَّ بعائلتنا في البلاد كما ذكرت لنا بعد أن اكتشفنا مذكّرات جدّي الناقصة...

– كما تعلم فإنَّ كلّ ما أعرِفهُ عن جدّي أنّه كان ضابطاً عثمانياً قبل أن يُصاب ويُنقل إلى ألمانيا، وكلّ القصص اللاحقة التي وصلتنا، لا تُعدُّ أكثر من كونها شفاهية يتناقلها أحفاده بكثير من التفاخر بمن فيهم أنا.

– يعني هل أقام بالعراق؟ وكيف عرف به الرئيس؟

– تحليلي المنطقي يقول إنَّ هناك علاقة ما نشأت بين قيادة الثورة في العراق وجدّي الذي أقام في برلين، لكن ما هي لا أعلم، علاقة جدّي بذرّيَّتِه انقطعت تماماً بعد أن طلبت جدّتي نجوى الطلاق وتزوّجت باليوزباشي رضا.

– هذا التاريخ لعين.

– أمّا كيف عرف صدّام بأمره، فلا بدّ أنّه – أو أحد المحيطين به – وضع قائمة لكلّ الأماكن التي من الممكن اللجوء إليها في العاصمة، إذا ما دخلت قوّات التحالف، وبالتأكيد كانت العيادة مكاناً آمناً في ظلّ حضور الأعداء المحتمل في كلّ مكان في بغداد، باعتباري أسكن وحيداً وسبَق لي أن دخلت إلى عيادة القصر الجمهوري مرّات قليلة كما تعلم.

– وحين وُضعتَ في هذه الخانة، لا بدَّ أنّه طلب دراسة شافية عنك، وأجهزة الأمن لديها كلّ شيء عن عائلتك، حتى الأشياء التي لا تعرفها. قال أبو الكرم.

– كلّها تخمينات يا صديقي، لا تُعدُّ أكثر من ذلك.

– ماذا ستفعل الآن؟

– سأخرج إلى الأردن، بعد هذه الزيارة صار وجودي في بغداد كوجود خروف بين قطيعٍ من الذئاب.

– قلتُ لكَ من زمن بعيد، تزوّج وكوِّن عائلة، لو فعلت هذا لما وُضعتَ في قائمتهم المحتملة...

دخلنا معاً في نوبة ضحك، وكان المساء قد حلّ تماماً في سماء بغداد. ثمّ سمعنا جلبةً في الخارج. فتح أبو الكرم باب الغرفة الصغيرة فواجهتنا مجموعة من جنود المارينز يضعون على أكتافهم اليمنى العلم الأميركي، بدأ العسكر بالصراخ طالبين من كلينا الجلوس على الأرض والبقاء في مكاننا.

حاول أبو الكرم الصراخ بأنّ هذا مكان دبلوماسي له حرمة ومصون بالقانون الدولي، لكنَّ أصوات الجنود كانت أعلى وحراب بنادقهم كانت أقرب إلى رأسينا، جثوتُ على ركبتي بعد أن دسستُ الورقة في جيبي، همس أبو الكرم بكثير من الهدوء:

– لا تقلق، كلّ شيء سيكون بخير.

اقترب الجنود من الغرفة الخالية إلّا من كرسيٍّ ومكتبة صغيرة، توزَّعت الكلاب البوليسية في قلب مبنى السفارة، قبل أن يقترب عسكري يبلغ طوله تقريباً المترين أو أقلّ قليلاً، برائحةٍ فم كريهة، راح يصرخ في وجهي طالباً منّي الوقوف بعد أن وضع القيد البلاستيكي في معصميَّ، وكذلك فعل مع أبو الكرم.

اقتادنا الجنود نحو بهو السفارة، وإذا بكلّ الموظفين قد وقفوا مديرين وجوههم للحائط والقيود تشدُّ أيديهم إلى الخلف، مشى المارينز أمامنا وخلفنا وعن يميننا ويسارنا، ركبنا حافلة بيضاء صغيرة أحضرتها الدورية الأميركية معها، توزَّعنا فيها بينما بقي جنود آخرون على باب السفارة، وضع أبو الكرم كتفه على كتفي، ألصقتُه به أكثر، علاقتنا الطويلة تجعلنا نفهم بعضنا بالإشارات، هززت رأسي فزمَّ شفتيه، كأنّي أقول له: إنّ الورقة في جيبي ولا أستطيع إخراجها

لأرميها، وكأنّه يجيب: إنّها كارثة، تخلَّص منها حين تحين فرصة لذلك، لهذا بدأت بالصراخ طالباً الذهاب إلى الحمام لقضاء حاجتي.

ضربني الجندي بأخمص البندقية، فانتابني صمت رهيب، ثَبَتَ رأسي دون حراك بينما عينايَ راحتا تفحصان وجوه موظفي السفارة المعتقلين والجنود. ثمّةَ خطأ ما، قبل أقلّ من ساعة عبرت الطريق من الرصافة إلى الكرخ في بغداد التي تحترق بين ثنائية التحرير والاحتلال، والآن أعبرُ ذات الطريق بهيئة مختلفة وَجِهة معاكسة نحو وجهة لا أعرفها، فماذا يُخبِّئ في جعبته يوم التاسع من أبريل هذا الذي لا يريد أن ينتهي!

يتبادل الجنود الأميركيون الإشارات في ما بينهم، يشربون الماء من أنبوب يتدلّى خارجاً من حقيبةٍ تبدو ثقيلةً على ظهورهم، أسلحة في كلّ مكان، بندقية كبيرة «بومب أكشن» في اليدين، مسدّسان يختلفان بالحجم مربوطان على كلّ فخذ، سكّينٌ تظهر لمعتها أسفل الركبة بقليل، وما خفي في الحقيبةِ لا بدَّ أنّه أكثر، لا يدرك هؤلاء الجنود أنّ التاريخ يُكتسَب يوماً بيوم، ليتكرّر الأمر نفسه حتى الموت، يظنّون أنّهم كسبوا التاريخ والحاضر قبل وصولهم إلى هنا، كانت هذه حربهم المقدّسة التي لا تهدفُ للوصول إلى الجنّة الموعودة، بل كي يتذكّرهم الناس بصفتهم أولئك المحاربين الذين لا يخسرون مهمّةً يتعهّدون بها بغضِّ النظر عمّا إن أكان النصرُ أخيراً لهم أم لا، فهل يتحقق مرادهم؟ ويتذكّر العراقيون وجود جنود المارينز في شوارع مدنهم التي حكمها العثمانيون، وأخرجت الإنكليز، ولم تمارس فعل الاعتياد تحت حكم الأجنبي؟

قبل عبورنا الجسر فوق دجلة، بدأ جنديان بوضع رؤوسنا في أكياسٍ من البلاستيك الأسود، حاولت أن أتخيَّل الشوارع التي نسير بها، فأنا أحفظ بغداد مثل باطن كفّي، لكنَّ التشويش في رأسي يمنع

قدرتي على رسم المكان، كان نهر دجلة آخر ما رأيته قبل أن تغيب عيناي في ظلمة الكيس، عـادَت إلى الذاكرة الليالي التي قضيتها على ضفّته بصحبة أبـو الكرم وهيثم وزيـاد، صيد السمك، شواء المسكوف، الضحكات التي انطلقت هنا وغابت هناك. على عادةِ الأنهار، دجلة يحفظُ الأسرار...، أقاومُ رغبةً صادقةً في البكاء، فيضغط أبـو الكرم بكتِفهِ على عضُدي لتسري في جسدي قشعريرةُ رائحة ذكرياتنا بالمكان.

بعد عشرين دقيقة أو أكثر بقليل توقف الباص، يتحدّث الجنود في ما بينهم صراخاً بينما الأجهزة اللاسلكية المُعلَّقةُ بجيوب ثيابهم لا تصمت عن البلاغات، ضمن هذه الجلبة يقول أحد الموقوفين إنَّ هناك سيّارات أخرى أمام الباص يبدو أنّها تحمل معتقلين آخرين، فلا يلبث العسكري أن يضربه حتى يصمت. خلال ذلك، كان أبو الكرم يردّد همساً «نيسان يا أقسى الشهور»، كانت هذه قصيدة «الأرض اليباب» التي طالما ردّدنا مقاطعها معاً. حتى زياد، قبل موتِه على رصيفٍ منسيٍّ في ليلة ماطرةٍ في شارع أبي نـوّاس، كان يصيحُ من أبياتها دائماً:

«الدمُ يخضُّ قلبي؛ الجرأةُ المرعبةُ في لحظة استسلامٍ لا يقوى على سحبها دهرٌ من الحصافة».

القافلةُ تسيرُ بنا خارج بغداد، خمَّنتُ أنّنا ذاهبون باتّجاه المطار إلّا أنَّ تخميني كان خاطئاً، شعرت بتبلّل الكرسيّ تحتي، كان أبو خالد المسؤول المالي في السفارة مصاباً بسلس بولي، منعته سنوات عمره – وخوفه من احتمال اعتداء العسكري عليه بالضرب – من القول إنّه يحتاج لقضاء الحاجة، لحظات وبدأت أسمع نشيجه.

امتلأ الفضاء أمـامـي بكتلةٍ كبيرة عرفت حين تـحـدَّثَ أنّـه عسكري كان يصرخُ بالرجل ليتوقف عن البكاء، فقلت له:

– إنّه مريض، أُنظر إلى الماء الذي بلَّل الكرسيّ.

فصرخ في وجهي آمراً إيّاي بالصمت.

مرَّ أكثر من يومَين على بقائي مستيقظاً، بدأ الخدَر يتسلَّلُ إلى دماغي، جفوني تطبِقُ رويداً رويداً على صوت بكاء أبو خالد الذي بدأ ينحسر، ارتخى جسدي بالكامل حتى هوى رأسي إلى الأمام فناولني الجندي صفعةً أيقظتني صائحاً: «لا تنم، النوم ممنوع».

عاودت الكرّة ثلاث مرّات قبل أن يتوقف الباص الصغير. يداي مشدودتان خلف ظهري، حين سحبني جنديٌّ من كتفي باتّجاه الأسفل وأنزلني من الباص، مدَّ حبلاً تحت إبطي مربوطاً بإبط الذي أمامي والذي خلفي وأمرنا بالمشي، يبدو أنّنا نمشي على الإسفلت، أو شيء يشبه الإسفلت، شعرتُ بأنّنا عبرنا بوابةً كبيرة ثمّ أخرى صغيرة قبل أن نجلس متجاورين والأكياس تغطّي رؤوسنا، الإضاءة تسيطر على المكان، أكاد أشعر بالضوء يصل إلى عينيَّ إلّا أنّني لا أستطيع تمييز شيء أبداً، كلّ شيءٍ يبدو كخيال، أصواتٌ متقاطعة، صراخٌ من جهات مختلفة بلهجات ولكنات متنوّعة، أصوات الطائرات في سماء بغداد لم تهدأ.

اقتربت مجموعة من الجنود من مكان جلوسنا على الأرض، رفعوا الأكياس السوداء عن رؤوسنا، أغمضت عينيَّ في أول الأمر من شدّة الإضاءة ثمّ انتبهت إلى أنّ بعض موظفي السفارة قد عُصِبَت أعينهم بقطعةٍ قماشية، ما تزال القيود تشدّ ذراعيَّ إلى الخلف وقد شعرتُ بأنّها بدأت ترسم خطوطاً على معصميَّ، أبو الكرم على بعد ثلاثة أشخاصٍ منّي، بينما أبو خالد في الصفّ أمامي مباشرة، التفتُّ نحو أبو الكرم وأشرت بعينيَّ إلى عبارةٍ مكتوبةٍ أعلى الجدار، فوق باب الصالة مباشرة، «أهلاً بجنود القائد في الكليّة العسكرية الثانية»، هزَّ رأسهُ مشيراً إلى أنَّهُ استطاع التقاط المعلومة.

إذاً لقد أُحضِرنا إلى الكليّة العسكرية الثانية على أطراف بغداد، وكلُّ هؤلاء الشبّان والرجال اعتُقلوا في أماكن مختلفة بالتأكيد، الصفوف تتّصل بعضها ببعض، والجنود فوق رؤوس الجميع يسألون عن صدّام، حاولت أن أحصي عدد الموجودين فوجدتهم يفوقون الخمسمئة معتقل، الأنفاس تتشابكُ في هذا المكان والجنود يقفون بكامل استعدادهم وأصابعهم على الزناد، يقتربُ بعض العساكر نحو مجموعتنا مرّة أخرى، كلُّ اثنين يجرّان واحداً. أمسكَ بي أيضاً اثنان، كلُّ واحدٍ من كتفٍ، واضعاً يدهُ تحت إبطي ويده الأخرى خلف رأسي بحيث لا أرى سوى أحذيتهم خلال المسير. بزاوية تسعين درجة صعدت سلَّماً حجرياً ثمّ انتقلتُ عبرَ ممرٍّ نحوَ بناءٍ آخر يبعد حوالي عشرين متراً من الصالة الرئيسية، حتى وصلنا إلى ساتر كبيرٍ من القماش انفتحَ على مجموعة من أجهزة الحاسوب التي توزَّع خلفها شبّانٌ وشابّاتٌ على شكل صندوق مفتوح، في وسط القاعةِ الواسعة وُضِعَ كرسيٌّ وطاولةٌ صغيرة، أعاد الجنديّان الاستقامةَ لظهري قبل أن يبدآ بخلع ملابسي وتفتيشها، فكَّ أحدهما وثاق يديَّ بينما خلع الثاني ثيابي، وقفتُ عارياً تماماً أمامهم، لاحظتُ أنَّ أحداً لم يكترث، وصلَ صوتُ أبو الكرم من الجوار يصرخ بهم:

– أنا دبلوماسي، هذا عارٌ عليكم... كلُّ الذين معي موظفون في السفارة.

لحظاتٌ أخرى تمرُّ عصيبة عليّ، أنا الذي لم أنم منذ يومين كاملين، ولم أتناول طعاماً كافياً منذ عدّة أيّام، بدأ العرقُ يتصبّب منّي خوفاً من القادم، كنتُ قد خضعت لتفتيش سريعٍ في مكتب السفارة قبل صعودي في قلب الحافلة البيضاء الصغيرة، لكنَّ الحالة هنا مختلفة، يقترب جنديٌّ ثالث يلبس كفوفاً طبّية ويحمل كيساً صغيراً، بدأ بحمل الأشياء التي وجدوها معي، علبة سجائر، ولّاعة

تحتاجُ إلى جهد كي تعمل، علّاقة مفاتيح، فكّةٌ معدنية، ورقةٌ واحدة من فئة 10 آلاف دينار حمراء اللون، خمسة أوراق من فئة 250 ديناراً ذات القطع الكبير الزرقاء اللون، هويّتي العراقية، بطاقة انتسابي لنقابة أطبّاء الأسنان، بطاقة اشتراك في نشاطات ملعب الشعب، ورقةٌ بيضاء مكتوب عليها بالعربية. فتحَ العسكري الورقة ومع فتحها اتّسعَت عيناه ورفعَ حاجبَيه، يبدو أنَّهُ لا يفهم العربية لكنَّه استطاع تمييز اسم «صـدّام حسين» على الورقة لكثرة ما رآهُ منقوشاً في الشوارع وعلى الحيطان في كلِّ مكان، صرخَ بأعلى صوتِه إلى الضابط الأعلى رتبة في المجمَّع، عمَّ الصمتُ في المكان وازداد تعرُّقي أكثر، شعرتُ، حرفيّاً، بأنّني أذوبُ.

اقتربَ الضابطُ يرافقه ثلاثةٌ آخرون بينهم واحدٌ يتحدَّث العربية بملامح شرق أوسطية، بادرني بالسؤال قبل أن يرى الورقة التي أعطاها الجندي للضابط هامساً بأذنه بشيء ما.

– أنت عراقي؟

وقبل أن أجيب مدَّ الضابط الورقة للمترجم طالباً منه تأكيد تخمين العسكري، وما هي إلّا لحظات حتى رأيتُ ملامح النصر في عيون الجميع. في اليوم الأول لاحتلال بغداد يقع بين أيديهم شخصٌ اجتمع مع الرئيس العراقي في ذات التاريخ ويحمل ورقة تنصُّ على منحه أرفعَ وسامٍ في تاريخ الدولة المُنهارة.

سألني الجندي ذو الملامح الشرق أوسطية:

– أنت من عائلة صدّام؟

– لا.

– هل أنت من مرافقيه؟

– لا.

– هل أنت من تنظيم فدائيّي صدّام؟

– لا.

– ماذا تعمل في الحياة؟

– طبيب أسنان.

يبدو أنّ الإجابة الأخيرة لم تكن متوقَّعة، فغرق الجميع في الضحك بعد أن توقفوا عن ممارسة مهامّهم في الإنصات ومراقبة ما سيحدث، ما إن ابتسمت حتى اقترب جنديّان منّي ودفعاني بقوّة نحو الطاولة التي تتوسّط المكان، نام جذعي الأعلى على الطاولة بحيث يلاصق بطني خشبَها، فصرتُ كما هيئة الركوع في الصلاة، اقترب جندي ثالث وباعد بين قدميّ ثمّ أدخل قضيباً حديدياً في شرجي، صرختُ من الألم، قبل أن يبطحاني على الطاولة ويبدأ جندي يرتدي كفوفاً بلاستيكية بإدخال أصابعه في شعري باحثاً عن آثار جرحٍ جديد في فروة الرأس، وفي فمي للتأكّد من أنّي لا أحمل قنبلة موقوتة أو جهاز تسجيل بين أسناني، من هذه اللحظة صرتُ شخصَين بجسد واحد، الأول هو الذي اغتُصب قبل قليل والثاني يحمل ذاكرة الاغتصاب، قطرات الدم الساخن تهبطُ على فخِذي، تتوقَّف بسبب بعض الشعرات أعلى ساقي، تتخثَّرُ فأراها بطرف عينيَّ، يتكوَّرُ الجسدُ الثاني على الأوَّل، يريدُ أحدُهما أن يدفِنَ صاحبَه، لحظات تمرّ كأنّها دهرٌ كامل، سحبوني فوراً بعد التأكّد من خلوِّ جسدي من أيّ آثار إلى مبنى مجاور بعد أن ألبسوني قطعة قماشٍ واحدة تشبِه إلى حدٍّ كبير ثياب المرضى.

عارياً إلّا من تهمتي وشعوري بالاغتصاب الذي تعرّضت له قبل قليل؛ أسير معهم مكبّل اليدين والقدمين في ممرّ ثانٍ قبل أن نهبط درجاً طويلاً ومنه إلى بوّابةٍ صغيرة تُفضي إلى مبنىً فارغ تماماً، أجلسوني على ركبتيَّ لعشر دقائق تقريباً، غاب الصوتُ تماماً، وكأنّي دخلتُ عالماً آخر. تحضرني تفاصيلُ رحلتي في الظلام تحت السماد

الزراعي داخلَ صندوق حديدي يُشبِهُ التابوت في جرّارٍ زراعي نحو الحدود العراقية، كنتُ أُلصِقُ فمي بالأنبوب كي أتنفَّس، أشعر الآنَ بأنَّ المكان ضيِّقٌ أكثرَ من ذلك التابوت، الحكّةُ التي مسكَتني أعلى كعبِ قدمي اليمنى طيلة الطريق ذاك، تحضرُ الآنَ على شكلِ حرقةٍ في شرجي، هناك لم أستطِع تحريك يديَّ أو ساقي الأخرى لأحكَّ جلدي، وهنا ليس بالإمكان النهوض أو تغيير هيئة الجلوس التي وضعني فيها العسكري الواقف بعتادِه الكامل إلى جانبي.

تتباطأ الثواني كأنّها عمرٌ كامل، ومعها تمرُّ حياتي أمامي، حياةٌ متداخلةٌ متشابكة، مصدر الضعف فيها هو ذاته مصدر القوّة، ومركزُ القوّة فيها هو ذاته مركز الضعف، لهذا أجهِّزُ نفسي الآن – رغم الخوف – لجولاتٍ لم أكن أتخيَّل ولو في الأحلامِ حدوثها. بدأتُ بترتيب الأفكار لأميِّزَ جيداً – حين الضرورة – بين الخيار الجيِّد والخيار الصحيح. لقد وضعتني الحياةُ دوماً في اختيار بين مكانَين، فإمّا أكون بجوار الذئاب وإما أظلّ بين قطيع الأغنام، مِن حسنِ حظي أنّي أدركتُ أنَّ وجودي بين الذئاب لا يعني تحوُّلي إلى مفترس، ووجودي بين الأغنام لا يعني الانحياز إلى خياراتها في الحياة. في هذه اللحظة تحديداً قرّرت أن أُركِّزَ على اللعبة بدلاً من التصرُّف كأحمق، لقد صارت الصورة أكثر وضوحاً في ذهني الآن.

يقطعُ خلوتي القصيرة جنديّان يرافقهما رجل يرتدي ثياباً بيضاء، وبكثيرٍ من الأدب المُبالَغ فيه يطلب أن أبصقَ من ريقي على لوح زجاجي صغير لا يتجاوز حجم الإصبع الواحد، بينما يرفع أحد الجنود قطعة القماش عن جسدي ويأمرني أن أبول في علبةٍ بلاستيكية، أمّا الثالث فقد مرَّرَ لصاقات على أصابعي ورأسي، تحت إبطي وبين فخذيَّ. بعد كلِّ هذا وضعوا الكيس الأسود في رأسي واقتادوني باتّجاه بابٍ جانبي.

الفصل الرابع

الحقيقة يتبعها العميان من دون تفكير، والنجاةُ ممّا هو قادمٌ تعني مزيجاً منَ الإعداد الجيّد والكثير من الحظّ. لم أُعِدّ نفسي يوماً لمثل هذا الموقف، لكنَّ بغداد مدينةٌ حُبلى بكلّ المفاجآت التي لا يمكن توقُّعها، علَّمتني الحياةُ فيها أن أُصبِح مهووساً بالأمس والتاريخ بدلاً من التفكير في التدخّل بصنعه، لهذا عشت سنواتٍ طويلةٍ – كما كلّ الآخرين – لا أتدخَّلُ بصناعة الأمس، لكنَّ الأقدار المجنونة أبَت إلّا أن تضعني في الصفّ الأوَّل للأحداث في غرفة مع الحاكم الجديد للبلاد. طاولة مستطيلة الشكل يجلسُ خلفها رجلٌ يرتدي بدلة المارينز، وفوق رأسه قبَّعة تحملُ نجمتين، بجانبِه شابٌّ يتحدّث العربية بشكل واضح يشير إلى أنّها لغته الأمّ، إلى جانبه امرأة تبدو في أواسط الأربعينات من العمر وتحمل ملامح أقصى الشرق من آسيا. في زاوية الغرفة يمكثُ رجلٌ هادئ ببدلةٍ سوداء أنيقة، يضع ساقاً على ساقٍ وفي حضنه ملفٌّ بنيّ اللون. أدخلني الجنود دون تعنيف جسدي، سحبَ أحدهم كرسيّاً إلى الجانب الآخر من الطاولة وأشار لي بالجلوس ويداي مقيَّدتان إلى الخلف، فوراً سألني الرجل ذو القبّعة عن رغبتي في شرب بعض الماء، هززت رأسي فتقدَّم جنديٌّ وفتح علبةً صغيرة من الماء مُقرِّباً إيّاها

نحوي، رفعت رأسي، فتحت فمي على مصراعيه وكرعتها، تساقطت قطرات ماء على ذقني فملتُ برأسي تجاه كتفي كي أمسحَ الماء، لحظتها أشار الرجل ذو القبّعة للعسكري بفكِّ قيد يديَّ، شممت رائحةً كادت تدفعني للتقيّؤ وهو يقرّب رأسه نحوي، فكَّ يدي اليسرى وربط الأخرى بساقِ الطاولة.

قدَّم لي سيجارةَ مارلبورو أبيض، أشعلها العسكري لي فابتلعت دخانها بالكامل، شعرتُ بدوخةٍ صغيرةٍ من جرّاء سريان النيكوتين في دمي بعد غياب ساعات، قطعَ استمتاعي باللذّة صوتُ الضابط إثر إشارةٍ من الرجل ذي البدلة السوداء، كان هناك صوتان يندفعان نحوي في ذات الوقت، واحد بالإنكليزية من الرجل ذي القبّعة بنجمتين والثاني بالعربية من صاحب الملامح الشرق أوسطية:

– اكتب عنوان عيادتك بالتفصيل. ودفع نحوي بورقة بيضاء مع قلم جافّ.

– بغداد – شارع السعدون، بناية سينما سميراميس، الطابق الثالث. وضعتُ القلم فوق الورقة ورجعتُ إلى الخلف.

سحبَ الرجل الناطق بالعربية الورقةَ وكتب تحتها بالإنجليزية ثمّ أعطاها للعسكري الذي قدَّم لي الماء، مشى الجندي خطوات نحو الباب وسلَّمها لجندي آخرَ وعادَ إلى مكانِه، وما هي إلّا ساعة ونصف تقريباً حتى وُضِعَت على الطاولة ضمن أكياسٍ بلاستيكية مُغلقة الإحكام كلُّ التفاصيل الصغيرة التي كانت في العيادة.

لنبدأ الحكاية من البداية، يقول الرجلان بلغتَين مختلفتين وعيونٍ مثبَّتةٍ نحوي:

– من أنت؟

– علي محمد ناظم حكمت العمر.

– جنسيتك؟

– عراقي.

– أين وُلِدت؟

– سوريا.

– متى وأين؟

– حماه 1965.

– ماذا تفعل في العراق؟

– أقيم هنا منذ عام 1982، وأحمل الجنسية العراقية.

– منذ متى لم تزر سوريا؟

– منذ خرجت منها أول مرّة.

– لماذا خرجت؟

– هرباً من الاعتقال بعد أن اختفى والدي.

– مَن والدك؟

– محمد ناظم حكمت العمر.

– ماذا كان يعمل؟

– نجّاراً.

– لماذا اعتُقل؟

– كان عضواً في الطليعة الثورية لتنظيم الإخوان المسلمين.

– كيف عرفت أنّه كان كذلك؟

– هو قال لي عندما طلب منّي المغادرة إلى العراق، بعد أن سلَّمني رسالة توصية إلى صديق له هنا.

– من هو الصديق؟

– أبو عامر الذي عشت في بيته في العام الأول من وصولي إلى بغداد.

– أين كان يعيش في بغداد؟

– منطقة العامرية.

– أين هو الآن؟

– لقد مات مع كلّ عائلته.

– حادث سيّارة؟

– لا، لقد قُتِل خلال قصف ملجأ العامرية عام 1991.

– كيف أتيت إلى العراق؟

– بالسيّارة.

– هل تمزح؟ طبعاً لم تأتِ مشياً على الأقدام أو على جمل مثلاً... أضاف المترجم طالباً الاستفاضة في الشرح.

– أوصلتني سيّارة من ريف حماه الجنوبي إلى تدمر، ومنها خرجت مع أبو سامر، دليلي، إلى الطريق نحو الحدود.

لا أعرف لمَ لم أرغب في الحديث عن رحلتي الحقيقية، ربّما لأنّي لم أشأ أن أفتح باباً للغرائبية يدفعهم للاعتقاد بأنَّ حياتي كتلة من السحرية والمفاجآت التي أنجو منها دائماً.

– ما هي المدّة التي قطعت فيها المسافة من تدمر حتى العراق؟

– ثلاثة أيّام، توقفنا كثيراً في قرىً صغيرة.

– ثمّ؟

– وصلت إلى الرطبة ومنها إلى بغداد حيث قابلت المرحوم أبو عامر.

– وبعد ذلك؟

– حصلت على الثانوية، ودخلت جامعة بغداد، درست طبّ الأسنان وتخرّجت بتفوّق، ثمّ عملت في المشفى العسكري قبل أن أفتح عيادة في شارع السعدون حيث أقيم أيضاً.

– متزوِّج؟

– لا.

– ما هي ميولك الجنسية؟

– ابتسمت رغم القلق ثمّ قلت: لم أفهم السؤال.

– هل أنت مثلي؟

– لا...

– هل كنتَ في منصبٍ قيادي أو مدني ضمن الدولة العراقية؟

– لا.

– هل تعرف أحداً من المطلوبين الخمسة والخمسين؟

– أعرفهم كلهم، أو أغلبهم.

– كيف؟

– كلّ مَن يقيم هنا يعرفهم، لكن لا علاقة شخصية لي مع أحد منهم.

– أمامنا ورقة تفيد بلقائك اليوم بصدّام؟ هل هذا صحيح؟

– نعم.

– أين وكيف ومتى ولماذا؟

– في العيادة، نهاية الليلة الماضية أو فجر هذا اليوم، دخل مع مرافق له، كان يعاني من وجعٍ في الأسنان، تحديداً التهاب خُراجٍ في ضرسه الثاني من الفكّ الأيمن، عالجته، وجلس عدّة ساعات حتى تأكَّدَ من ترتيب طريق الخروج ومن ثمّ مضى.

– من كان معه؟

– مرافق واحد.

– ماذا كان يرتدي؟

– من؟

– صدّام.

– لباساً عربياً، دشداشة رمادية، عباءة بنّية غامقة اللون، شماغاً أبيض منقَّطاً بالأسود وعقالاً عريضاً.

– هل أطلق لحيته؟

– لا... لكن كان يبدو أنّه لم يحلقها منذ يوم أو اثنين.

– في أيّ ساعة وصل وأيّ ساعة غادر عيادتك؟

– على وجه الدقة لا أستطيع التحديد، ربّما في الخامسة صباحاً أو قبل ذلك بقليل، وغادر بعد أن شاهد سقوط التمثال في ساحة الفردوس!

– هل شاهده فعلاً؟

– نعم كنت بالقرب منه، أقف خلفه مباشرة، لقد كنتُ ملاصقاً له في الحقيقة.

– ماذا قال حينها؟

– لا شيء... آه تذكّرت، قال إنّه لن ينتحر كما يتمنّى الأعداء.

– ماذا تحدَّثت معه خلال وجوده في العيادة؟

– لا شيء بشكل محدّد، ماذا يمكن أن تتحدّث مع رجلٍ فقد كلّ شيء؟ أيُّ حديث لا قيمة له.

– هل فعلاً كان صدّام؟ أم شبيهه؟

– كان هو على ما أعتقد.

– نحنُ لا نصدِّقُك.

– حتى أنا لا أصدِّق أنَّ هذا حدث معي!

– أين اعتُقلت؟

– في السفارة الفلسطينية.

– لماذا ذهبت إلى هناك؟

– قبل بدء الحرب تلقيت عرضاً من صديقي القائم بأعمال السفير للإقامة معه في مبنى السفارة، باعتبارها أكثر أماناً من عيادتي، لكن من الواضح أنّ المكان الذي كنتُ فيه كان أكثر أمناً.

كانت أشيائي الصغيرة التي جُلبت من العيادة قد وصلت قبل قليل، بدأ الرجال بتفحُّصها، في تلك اللحظة نهض الرجل ذو البدلة السوداء وتقدَّم نحو الضابط تاركاً ورقةً مكتوباً عليها كلمات متداخلة بأحرف إنكليزية متّصلة بعضها ببعض، لمحتها بطرف عيني من بعيد، وما هي إلّا لحظات حتى سحب الرجل ذو البدلة السوداء الكيس الشفّاف الذي يحوي الأدوات التي أعمل بها، مشرط الجراحة الصغير، المثقاب الكهربائي، المِبضَع ذو الرأس المعقوف، وآخر ذو رأس مدبّب، قطعة قطن عليها بعض الدماء، قطعةٌ أخرى عليها سائلٌ أصفر اللون، تأمَّلها جيّداً ثمّ تناول ورقةً صفراء صغيرة، كتب عليها بضع كلمات فقط، وألصقها على الكيس قبل أن يقترب منّي الجندي ويُعيد تقييد يديَّ نحو ظهري، ودون أن يضع الكيس الأسود احتضنَ رأسي تحت ذراعه وشدَّني فمشيت بجانبه منحنِياً بزاوية تسعين درجة، خطوات قليلة كانت رائحته تخترق أنفي فبدأت التنفّس من فمي حتى صرت ألهث.

نصعدُ درجاً صغيراً ثمّ نسير في ممرّ طويل وصولاً إلى غرفةٍ انتصب فيها عمودٌ حديدي. شدَّ وثاق يديَّ نحو الأعلى إلى العمود، وفعلَ ذلكَ بقدمَيّ أيضاً قبل أن يركلني بركبتِه على بطني فيتقوَّسَ جسدي، أغلق الباب بقوّةٍ حتَّى صرَّ الصوتُ أذنيَّ، وعمَّ الظلام.

كان الظلام يعني لي كثيراً من الأشياء في حصار بغداد، الاستغراق في ذكرى قصّة الحبّ العنيفة التي مررت بها في بداية شبابي وإخلاصي الأبديّ لتلك الذكرى، حتى إنّني بنيت سوراً يقيني من كلِّ أنثى بسبب وجودها في داخلي. الشوقُ حالةٌ متقدِّمةٌ من الحبّ، تراكمٌ إغوائيٌّ للنفس لردمِ هُوّةٍ تخلِقُها الحياة. أينَ هي الآن؟ وماذا فعلَت بها الأيّام؟ كلُّ ما حلمتُ به في حياتي كان أن تضع كفَّ يدها اليمنى على جبهتي وتقرأ أيَّ شيء، عائلتي وعائلتها

تقمعان الحبّ، لهذا حتى أحلامي عنها كانت عفيفة، ظلّت طيلة السنوات تظهر وتختفي مثل سرابٍ أتبعُهُ دون توقُّف آملاً وضع يديَّ على أطرافِه.

أقف الآن مشدود الوثاق إلى عمودٍ حديدي خلف بابٍ مغلقٍ بإحكام عليَّ. تسترجعُ الذاكرةُ نفسها، تتوالدُ المشاهدُ من جديد. بعضها كان غائباً تماماً. عليك، حين يُغلَقُ بابٌ عليك، ألّا ترفع يدك للضرب على الحديد رجاءً بفتح الباب، بل استحضار سلاحك من جانبك وإطلاق رصاصةً على الذاكرة، التي لن تستطيع ضبط مسارها أو التحكّم في تدفُّقِها بفعل الخوف، وستعرف حينها أنَّكَ قافلٌ من معركة في حربِك، حتى لو كانت مواجهةً مع الحياة، ستفتحُ الذاكرةُ أبواباً انتابها الصدأ حتى ظننتَ أنّها لم تعد موجودة، تنفضُ الغبار عن مشاهدَ منسيّة، إنّها لحظة احتضان جنديٍّ مهزوم بالنسبة لها، وهذا يمنحُها إحساساً بالنصر على الحاضر، حتى لو كان نصراً كاذباً ومؤقتاً... نصراً من سراب تتبعه دون وصول.

الفصل الخامس

أيُّ قدَرٍ ساقني إلى هنا؟ أحاول أن أستنهضَ كلَّ ذاكرتي مرّةً واحدة لأبحث فيها لعلّي أفهم كيف ستجري أحداث الأيّام اللاحقة. كنتُ قد تعلَّمتُ أن أقطعَ الوقت بإجراء فصلٍ بين الحواسّ أولاً، ثمّ أبدأ بعدِّ الألوان التي أعرفها، وتحت كلِّ لونٍ أجمعُ الأشياء التي تحمله، مثلاً أقول: أخضر، فيحضر أمامي العشب، الشجر، عمامة الحسين كما تظهر في أغلب الصور، قباب الجوامع، إبريق القهوة المرّة في بيت أبو عامر، جانبٌ من أرضية فندق السدير في بغداد.

ثمّ أقول: أزرق: السماء كما نراها، البحر كما نراه، سيّارة عائلة هيثم التي منحها لهم صدّام بعد موت والده، حائط مطعم الطبيخ في نهاية شارع السعدون، باب المقبرة الإنكليزية في الأعظمية، حجابها في آخر مرّة رأيتها من بعيد.

وهكذا أفعل مع باقي الألوان، أقطع الوقت بالتذكّر، لكنْ في السجن فائضٌ من الوقت لاستعادة كلّ التفاصيل، زمنٌ إضافيٌّ غير محسوس من الزمن. نمتُ واقفاً هنيهات قليلة قطعها ضربٌ على الباب الحديدي من العسكري الذي كان ينظر كلّ دقيقتين من الغلّاقةِ الصغيرة أعلى الباب، فإذا وجد رأسي قد ارتخى بين كتفيَّ

سارع لضرب الباب بقطعة حديدية، فعلَ ذلك خمس مرّات أو ستّاً، في المرّة السابعة صرت أنتظر ضرب الباب لأحدِّد اتّجاهات الصدى في الممرّ خارجه، كان واضحاً لي أنّ الصوت يتوزَّعُ أفقيّاً إلى يمين الباب وشماله، وهذا يعني أنّ الامتداد ضيِّقٌ عرضياً في المكان، والصالة الكبيرة التي أشارت إلى وجودنا في الكليّة العسكرية الثانية ببغداد صارت في جهةٍ ما غير التي أنا فيها، قادتني الأفكار إلى تخيُّلِ المكان مقاوماً رغبتي في النوم، لا بدَّ من أنَّ هذه زنازين عسكرية منفردة استخدمها الضبّاط لمعاقبة الجنود بالسجن. الزمنُ تغيَّر والتاريخ يفرِضُ نفسه على المكان بعَلم وسلطة مختلفين، وبلغة أخرى.

بغداد التي عرفتها يافعاً، مراهقاً، وشابّاً لم تُورِّطني بقصّة حبّ تكون ملاذي للتذكُّر والهروب من هذا الواقع، فلجأت إلى خمسة وعشرين عاماً ماضية كي أهرب. كنتُ في السابعة عشرة من العمر حين وقعتُ في الحبِّ لأول مرّة. لماذا أستخدم الآن فعل «وقعت» فيما الحبّ «يرفع» البشريَّ نحو طبقةٍ أخرى؟ كلُّ حبٍّ بعد الحبِّ الأوَّل زائفٌ، لكن متى يأتي الحبُّ الأول؟ وهل الحبُّ الأوَّل حسب توقيت وروده الزمني في العمر هو الحبُّ الأول الحقيقي الذي يعيش في داخل الرجل؟ أم كلُّ حبٍّ هو حبٌّ أوَّل؟

رغم مرور كلّ هذه السنوات، لم أستطع التخلُّص منها، كانت أشبه بالمعجزة التي تخترقُ الواقع فتفتحُ فيه أخدوداً لتكون جزءاً منه لوقتٍ قصير ثمّ تمضي تاركةً خلفها أثراً لا يزول بالتقادم بل يزداد، كلّما تعتَّقَ الزمنُ وشاخَ ازدادت لمعتها وحضورها، المعجزاتُ ترتقي إلى المُقدَّس لهذا ما تزال ماثلةً في مخيِّلتي صورة عن الأنثى المُشتهاة، وكأنّنا التقينا أو افترقنا أمس. لكنّ الوطن لم يُمهلني وقتاً كافياً لأقترب منها كي تفتح على روحي نوافذَ من نورٍ ونار كما تفعل

المعجزات. «نحنُ جيلُ الخيبات المتكرّرة»، لطالما ردَّدت لأبو الكرم الذي كان يُصحِّح بالقول:

– بل نحنُ جيلُ الهزائم على كلِّ الجبهات، مهووسون نحنُ بالتاريخ، نريدُ مكاناً فيه بدلاً من التدخُّلِ في صنعه! رصاصاتنا كلُّها تشبه تلك الرصاصة التي تنطلِقُ في بداية كلِّ سباقٍ نكون فيه – بطبيعة الحال – خارج المضمار. نكتفي دوماً بمشاهدة أيِّ سباقٍ من المدرّجات.

إحصاء الزمن وحصره في السجن فعلٌ لا جدوى منه، لهذا كنت أنتظر طرق أو فتحَ الباب قاطعاً تأمُّلاتي في هذا الظلام. يقترب عسكريٌّ واحدٌ نحو يديَّ، يفكُّ واحدةً بينما يُبقي الثانية مشدودة إلى العمود. جندي ثانٍ يضعُ خوذةً على رأسه، ينطلِقُ منها ضوءٌ نحو وجهي، يُمسِك بيده اليمنى علبةَ ماءٍ صغيرةً مقسومةً إلى قسمين، الأول فيه حفنةٌ صغيرةٌ من الأرزّ الأصفر البارد، والثانية يصل الماء إلى ربعها تقريباً. مدَّ لي العلبة التي تحوي الأرزّ بعد أن بصق فيها وحرَّك بُصاقَهُ بسبّابته، صارخاً في وجهي آمراً إيّاي بالأكل، مسحتُ أثرَ الرذاذ الذي تطاير من شفتيه الغليظتين على وجهي وبدأت آكل من دون أن أُبدي أيَّ ردّة فعل. حين أنهتُ دفعَ بكمّية الماء القليلة نحوي بكثيرٍ من الجلافة ثمّ سحبها من فمي، جرَحت حافات البلاستيك طرفَ شفتي السفلى، تلمَّستُ نقاط الدم الساخن قبل أن يُعيد الجندي الأول شدَّ يدي إلى العمود، صرخت أريد أن أذهب إلى الحمّام فأشار لي صاحب الخوذة بأن أبول في ثيابي مكان وقوفي، وقبل خروجهما معاً ضربني أحدهما على رأسي الذي ارتطم بالعمود فشعرتُ بارتجاجٍ خفيف قبل أن ينزل الدمُ ساخناً من أنفي مُبلِّلاً ذقني.

ساعة أخرى أو أكثر لا سبيل إلى النوم فيها، والزمنُ فيه فائضٌ من الوقت. شعرتُ بتخثُّر الدم فوق شفتي، أصابتني حكّةٌ شديدة

فأملت برأسي نحو ذراعي اليمنى رافعاً قدميَّ على رؤوس أصابعي إلى الأعلى، هرشتُ وجهي بثيابي، أردتُ أن أزيل ملامحي كاملة، فأنا الآن أشبِهُ أيَّ شيءٍ إلّا نفسي.

ساعة ثانية، ثالثة، رابعة، خامسة، امتلأ المكان بالبول حتى إنّي تغوَّطت في الثياب التي ألبسوني إيّاها، الرائحةُ تكادُ تقتلني، منذ بدء الحرب – التي لم أرَها – صارت علاقتي مع الطعام نادرة، لهذا كان إخراجي للبراز قليلاً لكنّي أشعر بالتصاق الثياب بي.

ساعة سادسة، سابعة، ثامنة، ولا سبيل إلى النوم أبداً، فكلّما ارتخيت ضربَ الجندي على الباب بعصاه الحديدية.

أخيراً فُتِح الباب، جرَّني عسكريان بعد أن فكّا وثاقي ووضعا رأسي في الكيس الأسود، أمسكا بي من كتفيَّ وقدماي تُسحلان خلفي على الأرض، كمشلول أتحرَّكُ بينهما عابراً الممرّ الذي تخيَّلته.

أدخلاني إلى خيمة كبيرة، رُفِع الكيس عن رأسي فانكشفت الحال عن أربعة أشخاصٍ يلبسون لباساً عسكرياً. ثلاثةُ رجال وشابّةٌ تتحدّث العربية بركاكة، جلسوا على كراسيَّ حديدية متَّخذين شكل القوس دون طاولة، هناك كرسيٌّ خامس يبعدُ عنهما مترين تقريباً، هو أقربُ إليَّ في باب الخيمة. مشيتُ خطوةً نحوه قبلَ أن يركلني الجنديُّ على ظهرِ ساقي، فنزلتُ جاثياً على الأرض، ليقترب منّي الجندي رافعاً ثوبي عن جسدي. حين انحشرت القيود في يديَّ مع الثوب مزّقه فظللت عارياً أمامهم. رفعت الشابّة التي تتحدّث العربية بركاكة ساقاً فوق ساقها الأخرى بزاوية تسعين درجة، حتى صار حذاؤها العسكري ذو الساق الطويلة المربوطة بإحكام في مقابل وجهي تماماً، كان طرف الحذاء يحجب رؤيتي لبقيّة الأشخاص.

– أمامكَ خياران فقط لا ثالث لهما، إمّا أن تعيش حياتك كما كنتَ تخطّط، وإمّا أن تموت هنا، والسبيل إلى الاختيار هو مدى تعاونك معنا الآن.

هززت رأسي مومئاً بالموافقة.

سألني الرجل الأكبر سناً:

– أين صدّام؟

– لا أعلم.

– تقول إنّه مرَّ بك يوم سقوط التمثال.

– هذا صحيح.

– هل لك أن تحدّد المرافق الذي كان معه؟

– رجل في نهاية الأربعينات أو بداية الخمسينات من العمر، له شاربٌ كث، نحيف، طوله تقريباً 190 سم، ذو ملامح حادّة، يرتدي لباساً عربياً.

حمل من الملفّ الذي في يديه بعض الصور ومرَّرها إلى الفتاة التي كانت تترجم كلامه:

– هل تستطيع التعرّف إليه من بين هذه الصور؟ وراحت تقلِّب الصور المطبوعة على ورقٍ أبيض أمام عينيّ، وبعد تدقيقي في كلّ صورة كنتُ أهزُّ رأسي نافياً أنّه صاحبها.

– ماهي اللهجة التي كان يتحدّث بها الرجل؟ هل هو بغدادي؟ من الجنوب؟ كردي؟

– من الموصل، لكنّه كان يحاول الحديث خلال كلماته المقتضبة بلهجة بغدادية على طريقة أهل الأعظمية.

– أين اتَّجها؟

– لقد خرجَ المرافق قبل صدّام بخمس دقائق تقريباً ثمّ عاد. حين نظرتُ من الشرفة كانا يمشيان برفقة ثلاثة أو أربعة آخرين

بعضهم خلف بعض باتّجاه ساحة الفردوس، قبل أن ينعطفوا نحو شارعٍ فرعي.

– هل أنت متأكّد؟

– نعم.

– أكملوا الطريق سيراً على الأقدام؟

– لا أعلم، ربّما كانت هناك سيّارات بانتظارهم.

– هل رأيت سيّارات؟

– لا.

– هل كان صدّام مصاباً أو يعاني من رضوض، أو جروح حتى لو كانت طفيفة؟

– أبداً، كان سليماً بصحّة جيدة، فقط كان عنده ألم شديد في الأسنان.

هزَّ الضابط رأسه، ورفعَ كيسين تناولهما من الأرض أمامي قائلاً:

– من خلال مقتنياتك في العيادة حيث تقيم، وجدنا رزمة المال هذه والسيجار من النوع الذي يُدخِّنه صدّام، وأيضاً صورتك مع صدّام كانت معلَّقة على الحائط؟

– نعم، قبل خروجه من العيادة أخرجَ من حقيبة صغيرة كانت مع المرافق هذه الرزمة والسيجار وتركهما، أمّا صورتي معه فهذه تعود إلى حفل التخرّج في الجامعة قبل خمسة عشر عاماً تقريباً، ستجد نفس هذه الصورة عند كلّ من تخرَّج بتفوّق من جامعة بغداد في تلك الدفعة.

– متى حصلت على الجنسية العراقية؟

– بعد وصولي إلى بغداد بأربع سنوات.

– كيف؟

– ساعدني والد صديقي عبد الرحمن العايش، فقد كان من تجّار بغداد.

– تقصد والد السفير الفلسطيني؟

– نعم هو والد أبو الكرم.

– ماذا كان يعمل في بغداد؟

– جدّه هو من أدخل إلى العراق صناعة الصمّون، «الفينو»، وقد اشتهرت العائلة من بعده بالمخابز المُختَصّة بهذه الصنعة، ستجد أنّها منتشرة في أغلب مناطق بغداد.

– هل التقيت بأحد من أعضاء مجلس قيادة الثورة في العراق؟

– نعم، خلال بعض المناسبات.

– ما هي هذه المناسبات؟

– الحفل السنوي للسفارة الفلسطينية، بعض الفعاليات التي كانت تقيمها وزارة الثقافة، أيضاً خلال وجودي في الخدمة التطوّعية السنوية التي تمتدّ لأسبوعين من كلّ عام في الكليّة العسكرية الثانية.

– تقصد هنا؟ استدرك فوراً...

– لا أعرف، هل نحنُ في الكليّة العسكرية الثانية؟

– نحنُ من يطرح الأسئلة، ماذا كانت طبيعة وجودك التطوّعي؟

– كنتُ في الوحدة الطبّية، أمارس مهنتي طبيباً للأسنان.

– هل كانت هذه الفترة مدفوعة الأجر؟

انتبهت حينها إلى أنّه بدأ يجرّني نحو أسئلة بديهية يعرفها القاصي والداني في العراق كي يتأكّد من أنّي لا أكذب، فقلت:

– لا، كانت مجّانية، ولم أكن أنام خلالها في الكليّة العسكرية إلّا وقت المناوبات الدورية.

– كم طبيباً كنتم في الوحدة الطبية؟

– أربعة أطبّاء أو خمسة، يختلف العدد من عامٍ إلى آخر.

– وكم عاماً خدمت تطوّعاً في الجيش العراقي؟

– منذ تخرّجي من الجامعة.

– كم كان دخلك الشهري من العيادة؟

– بين 25 ألف دينار إلى 30 ألف دينار.

– هل كنت تتلقى راتباً من جهة ما؟

– وزارة الصحّة العراقية.

– لماذا؟

– كنتُ موظَّفاً في المركز الصحّي بشارع السعدون، أداوم يومين بالأسبوع فقط، إضافة إلى مناوبات مختلفة.

– كم كان راتبك؟

– بحدود 5000 دينار.

– هل كنتَ عضواً في حزب البعث الحاكم؟

– نعم.

– ما هي درجتك التنظيمية؟

– لا درجة لي... انتسبتُ لأنَّ هذا كان شرطاً لكلّ شيء في العراق.

– ما رأيك بالتدخّل العسكري بالعراق؟

– لا موقف عندي، اللاموقف هو موقف.

ركلتني الشابّة التي تتحدّث العربية بركاكة بقدمها على وجهي فانفتح جرح أنفي، بدأَت بشتمي بكلمات مختلطة بين الإنكليزية والعربية، قبل أن يمسك ذراعها الرجل الأكبر سنّاً، مشيراً لي بكفِّ يده الأخرى كي أتابع الحديث.

– لا موقف عندي، لم أخرج من عيادتي منذ بدء الحرب، التزمت كما الجميع بموقف المتفرِّج على ما يحدث.

– لكنّك رأيت صدّام في الوقت الذي يبحث عنه الجميع؟

– هذا قدري الأحمق الذي وضعني في واجهة الأحداث.

– هل رأيت أحداً من المجاهدين العرب الذي قاموا بعمليات عسكرية ضدّ قوّات التحالف؟

– قلت لم أخرج من عيادتي منذ بداية الحرب.

– نعم أم لا؟

– لا.

– ما علاقتك بالسفير الفلسطيني؟

– صديق أحبه ويحبّني، تربطنا علاقة أخوية قديمة.

– لماذا ذهبت إليه؟

– سبق أن قلت: لأنّني ظننت أنَّ السفارة مكان آمن.

– آمنٌ من ماذا؟

– من كلّ المخاطر التي من الممكن أن تقع.

– هل كنتَ تتوقع أن تطالك العمليات الانتقامية التي تحدث في المدن العراقية؟

– لا، فأنا لم أضرّ أحداً في حياتي، لكنّ الخوف سكنني بعد زيارة الرئيس.

– من هم أصدقاؤك في بغداد؟

– كثيرون، لكنَّ أغلبهم خرجَ إلى الأرياف، وبعضهم عادَ إلى محافظته خلال الحرب.

– كيف عرفت ذلك؟ هل كنت تتواصل معهم؟

– تحدّثنا قبل بدء الحرب، وقلت سأبقى في العيادة، وهكذا فقد كان بعضهم يمرّ في الأيّام الأولى للحرب حاملاً لي بعض الأشياء.

– أشياء مثل ماذا؟

– سجائر، شاي، سكَّر... ماء... سولار... أشياء أخرى.

– هل كان بينهم ضبّاط في الجيش أو الأمن؟

– لا.

– هل أنت متأكد؟

– نعم، أغلبهم كانوا معلّمين أو مهندسين موظَّفين في الدولة.

– أين كنتم تجتمعون؟

– في مقاهي أبو نوّاس، شارع المتنبّي، أيضاً في مقهى بشارع السعدون مكان سينما النصر، ومع اقتراب الحرب التقينا مرّةً أو اثنتين في العيادة عندي.

– وهل كان يأتي السفير معكم؟

– أحياناً... ليس دائماً، بالمناسبة هو القائم بأعمال السفير وليس السفير.

هزَّ الضابط رأسه وكأنَّ المعلومة لا تعنيه، أو أنّها أمرٌ تافه فهو الآن معتقلٌ مثله مثل أيّ معتقلٍ آخر، مدَّ لي ورقة بيضاء مع قلم وطلب أن أرسم شجرة العائلة التي أنتمي إليها، قال بالحرف:

– أُكتُب أسماء جميع أفراد عائلتك، أعمامك، أخوالك، أجدادك الذين تعرفهم، أبناء عمّك وعمّاتك، أبناء خالك وخالاتك، أصدقاء والدك الذين كانوا معه في التنظيم، الأصدقاء الذين بقيت على تواصل معهم في سوريا منذ خروجك. الجميع. ولا تنسَ أحداً.

قلت:

– لا بدَّ أنّك تمزح، لقد خرجت من تلك البلاد منذ عقدين من الزمان، لا بدَّ أنّ البيوت تغيَّرت، نسيتُ معظم الأسماء، أتذكَّر ملامحهم فقط، تلك الملامح التي بالتأكيد قد تحوَّلت وتبدَّلت الآن، لا أعلم من هو حيّ ومَن هو ميِّت، أنا هنا منذ...

قاطعني صارخاً:

– أُكتُب ما تتذكّر...

وأضافت المترجمة إلى جملته كلمة «يا عرص».

حاولتُ أن أعصر مخّي. بدأتُ بجدّي الأكبر وصرتُ أُردِّد الأسماء بصوتٍ عالٍ. كان الجندي قد فكَّ يدي اليمنى بعد أن سألني بأيِّ اليدين أكتب، بينما ربَط الأخرى بالقيد إلى الكرسيّ الحديدي الذي ظلَّ فارغاً.

بيدي التي فيها القلم رحتُ أرسُم على الأرض خطوطاً، وجدتها فرصة ذهبية لتشكيل العائلة التي طالما حلمتُ بأنّي أنتمي إليها. أفرُك رأسي بالقلم بين حينٍ وآخر، أُمثِّلُ محاولة التذكُّر وحين أفشلُ أُسجِّل اسماً من خيالي، كانت فرصة نادرة الحدوث لتشكيل عائلة، وخطرَ ببالي حينها أن أنسِب نفسي كما فعل كثيرون إلى بيت النبوّة!

أنهيتُ الرسمَ وكتبتُ بالإنجليزية تحتَ الشجرة «حتى عام 1982» في إشارة إلى توقُّف تحديث تلك المعلومات منذ ذلك التاريخ. سحبت المترجمة الورقة من يدي وقدَّمتها للرجل الأكبر سناً وبدوره دسَّها فوراً بين أوراق الملفّ الذي يحمله.

نهضَ الجميع وبقيتُ جاثياً على الأرض، ركبتاي تخدَّرتا تماماً، قال الرجل:

– سيتم ترحيلك من هنا بعد قليل.

– أريد أن أرى أبو الكرم.

هزَّ الرجل رأسه وخرج الجميع وراءه. تقدَّم الجنديّ من باب الخيمة وبيده قطعة ثياب غير التي تمزَّقت وعلبتا ماء من الحجم الكبير. الرائحة تنبعث من جسدي نفّاذة لدرجةٍ أنّي نفسي غير قادر على تحمِّلِها، سكب العسكريُّ الماءَ على جسدي، وفوق الماء وضع قطعة الثياب. تأكَّد من إحكامِ شدّ وثاقي خلف ظهري، وضع الكيس الأسود في رأسي ونكزني، فسِرتُ أمامهُ بعد أن جمَعَ معصميَّ بكفِّه الكبيرة، راسماً خلف خطواتي خطّاً من الماء الذي ينقطُ على الأرض.

لحظات أخرى وتركني في غرفة فارغة إلّا من طاولة وكرسيّين وصورة للرئيس رُمِيت على الأرض بعد أن أُنزِلَت عن الحائط تاركةً بقعةً بيضاء مكان وجودها ومسماراً ينتظر صورة أخرى ستُعلّق بعد حين.

الفصل السادس

غرفةٌ صغيرةٌ في الكليّة العسكرية الثانية ببغداد. في داخلي الآن عدّةُ أشخاص، أحدهم يكادُ ينفجرُ غضباً، والثاني يضحكُ على سخرية الأقدار حين تنصبُ شِراكاً له، والثالث يبدو غير مُكتَرِثٍ لكلّ ما يحدث، أمّا الرابع فكان أنا، خليطٌ بين كلِّ أولئك جميعاً. ينفتحُ الباب ويدخل أبو الكرم مدفوعاً من جنديَّين اثنين. كان مقيَّد اليدين مثلي. أجلسوه على الطرف المقابل من الطاولة. ذاكرتنا كانت تشغل الحيِّز من الفراغ بيننا فوق الطاولة. بدا شخصاً آخرَ غير ذلك الذي نشأتُ وإيّاهُ. لم يكن هو ذلك الشخص الذي ركضت وإيّاه حافيَين على التراب الممزوج بالماء بعد المطر على ضفاف دجلة، لم يكن ذلك الذي شاركني تشكُّل الوعي خطوة بخطوة. تجنَّبنا بدايةً النظرَ إلى بعضنا، عيوننا تتّجه نحو اتِّجاهَين مختلفين، نتبادل عبارات التحيّة والاطمئنان، وفي لحظةٍ واحدة تشابكت أحاسيسنا فنهضت ونهض نحوي، تعانقنا بجسدينا وأيدينا موثقة إلى الخلف، ومن دون وعي غرقنا في نوبةِ بكاء، نشيجٌ تبعهُ صراخٌ خفيف وندبٌ للواقع قبل أن نتدارك نفسَينا. نحنُ هنا الآن. قطعَ انثيال الأحاسيس صوتُهُ المتقطِّع.

– سألوني عنك طويلاً في التحقيق، سألوا الجميع عنك.

– مشكلتنا أنّنا اقتربنا من دون أن ننخرط في اللعبة كلها، لم نكن كالآخرين الذين ضلّلهم القربُ من السلطة فاعتقدوا أنّهم يستخدمونها، قلتُ وأنا أنشقُ الماء عن طرف أنفي.

– لقد سألوا عن كلّ تفصيل يتعلَّق بك، فتَّشوا بيتي وبناء السفارة، أحضروا كلَّ صورنا معاً، دفاتري القديمة... أشياء لا يمكن أن تتخيَّلها. نحنُ ندفع ثمن بقائنا هنا.

– المهمّ أنت الآن، هل توضَّح لك لماذا اعتقلوا طاقم السفارة؟

– كان التحقيق كله عنك، لكنّ تقديري الشخصي أنّ اعتقالنا قرار إسرائيلي.

– مفهوم، مفهوم. ما أخبار أبو خالد المدير المالي؟

– لقد مات، لم يتحمَّل قلبه هذا الضغط، مات ونقلوه قبل ساعات.

مع كلمته الأخيرة دخلَ عسكريٌّ إلى الغرفة، وضع الكيس في رأسي فرُحتُ أتحدَّث مع أبو الكرم من داخل الحجاب:

– ربّما تكون هذه المرّة الأخيرة التي أراك فيها، إنّي أشكر الحياة التي جمعتني بك يا أخي، هذه الحياة التي تشبِهُ كلَّ شيءٍ إلّا الحياة، لكنّها قد تكونُ كريمة إلى هذا الحدّ.

أغلق العسكريُّ البابَ على كلمات أبو الكرم المتداخلة بنشيجه. لم أستطع فهمَ ما قال.

يدفعني الجنديُّ برأسِ بندقيَّتِه إلى الأمام، أتعثَّرُ بقيدِ قدمَيَّ؛ خطوات وأستعيد التوازن، ويلفحَ جسدي الرطبَ هواءُ بغداد في الخارج، الأشعّةُ تخترِقُ الكيس الأسود على رأسي، جلَبةٌ غير منتهية، يُمسِكُ بي عسكريان اثنان فأسير بينهما حافيَ القدَمَين حتى أركب سيّارةً مُغلَقة. شعرتُ بأنّ المكان أكثر دفئاً من الخارج، أصواتُ الجنود

تختلط بصوت الأغاني الصادرة من مذياع السيّارة لتصطَدِم بالأوامر التي تأتي عبر المقابض اللاسلكية المعلَّقةُ في بدلاتهم العسكرية.

ساعةٌ أو أكثر بقليل والسيّارة تسير بسرعةٍ ثابتة. يبدو أنَّها ضمن قافلةٍ على طريقٍ خارجي. حاولتُ تخيُّلَ المكان الذي نسيرُ إليه فوجدتني أتّجه نحو مطار بغداد، تذكَّرتُ الأخبار التي تـوارَدَت في المذياع حين كنتُ أستمعُ له في العيادة عن معركة مصيرية في مطار بغداد، التحليلات التي تحدَّثت عن استخدام أسلحة مُحرَّمة دولياً، القنابلُ التي تنشطرُ فيخرجُ منها سائلٌ يحرقُ المقاتل، غاز السارين، المقاومة التي نفَّذها الشباب العرب ضدّ الدخول الأميركي إلى المطار، صورٌ متتالية تقفزُ إلى مخيّلتي عن شكل المكان الآن، وآمال كثيرين التي عقدوها على خطّة المقاومة في بغداد، ما تـردَّدَ عن خندقٍ محفور سرّاً حول العاصمة والذي سيُفتَحُ حين تندلعُ منه النار مع اقتراب قوّات التحالف من حدود العاصمة، رأسي يكادُ ينفجر حتى أكَّدَت هواجسي أصواتُ الطائرات. تنحرفُ السيّارةُ يميناً ثمّ يساراً، تقف أمام حاجزٍ ينفتحُ على بوابة، ترتفعُ على مطبٍّ صناعيٍّ ثمّ تهبِط، يتبادل الجنود الحديث مع جنود آخرين ثمّ تسير السيّارة كأنّها انفصلت عن القافلة لأنَّ السرعة اختلفت عمّا كانت عليه سابقاً، ثلاث دقائق أو أقلّ من ذلك وتتوقف السيّارة، ننزل منها، أسيرُ بين الجنود إلى داخل بناء، ما إن يرفعون الكيس عن رأسي حتى تقع عيناي على بقايا صورة للرئيس العراقي على الحائط. صورته كانت في كلِّ مكان من هذه البلاد، كان يعتقد أنّ الولاء لا يكلِّف إلّا فتات الأشياء، وأنّ كراهية الآخرين لا تسبّب أيَّ خسائر. في ثورة الأفكار برأسي يقترب جندي منّي ليسحبني إلى غرفةٍ مغلقة بالكامل، وُضِعَت على جدرانها أغطية سوداء أخفت معالمها السابقة، وثُبِّتَت في زاويتها كاميرا صغيرة. فكَّ قيدي وأمرني بخلع قطعة الثياب الوحيدة التي

ألبسها. وقفتُ عارياً مرّةً أخرى. دخلت شابّةٌ في أواسط العشرينات من العمر وبـدأت بالتقاط الصور لي من كلّ الجهات، صورٌ قريبةٌ للوجه، صور للجسد العاري بالطول الكامل، ثالثةٌ من جانبي الأيمن، ورابعة من جانبي الأيسر، وأخيرة لظهري. خرجت بعد ذلك بلحظات دون أن تتحدّث معي. ومع خروجها دخل جنديان وضعا الكيس في رأسي والقيد في قدميَّ ويديَّ وجرّاني إلى الخارج، عشرُ خطواتٍ أو أكثر، قبل أن يبطحاني على الأرض، فكَّ أحدهما يديَّ وشدَّ وثاقاً على عضلات عضديَّ يسحبُ أطرافي كلّاً في اتجاه، شممتُ رائحةَ رطوبةٍ في المكان، انتزَعَ أحدهما الكيسَ من رأسي وأبقى على عصابةٍ تغطّي عينيَّ تماماً، أسمعُ صوتَ الماء بدأ يحاصرُ جسدي، يبلِّل رقبتي ورأسي من الخلف، أحـاولُ شدَّ يـديَّ نحوي فأفشل، يهتزُّ جسدي بالكامل، أنتفضُ بكلِّ خلاياي، لا أريـدُ أن أمـوتَ غرقاً، أصيح لإله السموات والأرض بالرجاء، ثمّ أستسلمُ حين يصل الماءُ إلى أطرافِ أذنيّ.

تغيّرت حركةُ الماء، فهي لم تعد ترتفعُ نحو جسدي من الأدنى، بل تهبِطُ على وجهي تـارةً وعلى صـدري طـوراً آخـر، أفخاذي غرقت بالماء تماماً، خدودي كذلك، بقيَت أرنبةُ أنفي، يتوقف الماء برهةً بعد أن صار يدخل من أطراف فمي ثمّ يضربني مثل تيّارٍ كهربائي على وجهي، أصرخُ، أستنجدُ، أبكي... لا أحد... فأستسلم للموت.

دقائق أخرى حتى توقَّف الماء وبدأ يتسلَّلُ نحوَ مَخرجٍ ما في زاويـةٍ لم أرهـا، كان ذلك إيهاماً بالغرق، انتزَع العسكريُّ الرباط عن يديَّ والعصابة عن عينيّ، ومع حركته تلك أُطفئت الأنوار في الغرفة، بينما سُلّط ضوء يبدو أنَّـهُ تمَّ فكُّه من سيّارةٍ ذات دفع رباعي على مكان جلوسي، النور العالي نحو عينيَّ حجب رؤيـة الرجال الذين دخلوا يتبعهم جنودٌ يحملون أربعة صناديق من حجم واحد، وضعوا الصناديق على الأرض وفتحوها قبل أن ينسلّوا من المكان نحو الباب،

جلس الرجال الآخرون على كراسيَّ حديدية فتحوها بأيديهم، بينهم من يتحدّث العربية، بيني وبينهم أشعّة الضوء موجَّهة نحوي، وصناديق تحوي الأكياس والملفّات التي تحمل معلوماتي!

– مساء الخير، اسمي «إدوار». أنا من لبنان وأتحدّث العربية، يتشاركُ معنا في هذا التحقيق نخبة من ضبّاط وكالة الاستخبارات الأميركية، المطلوب منك أن تكون متعاوناً معنا إلى أبعد الحدود، وتجيب عن كلّ الأسئلة، هل أنت جاهز؟

– نعم... جاهز... رددت بصوتٍ منخفض، أتبعتها بطلبٍ لتخفيف الضوء لأنّه يؤذي عينيَّ، فرفض المحقق ذلك مباشرة.

– أين صدّام؟

– قلت في وقتٍ سابق إنّي لا أعلم.

– حسناً، سنبدأ معك من البداية، من سوريا، مَن تعرف من تنظيم الإخوان المسلمين؟

– لا أحد، لقد انقطعت علاقتي بذلك المحيط منذ سنوات طويلة.

– مَن تعرف من المخابرات السورية؟

– لا أحد.

– هل هناك أيّ اتّصال لك مع سوريا؟

– إطلاقاً.

– ولا حتى بابنة الشيخ طاهر؟

جمُدتُ في مكاني، تسارعت دقّات قلبي، بدأت يداي ترتجفان، أمام عينيَّ بدأت الأشياءُ تصغر وتكبر، شعرتُ بأنّ الأرض تعلو وتنخفض.

كرّر المحقّق السؤال مرّة أخرى بصوت أكثر حدّة.

– ولا حتى بابنة الشيخ طاهر؟

– أبداً... يا ليت ذلك حدث.

– عموماً لقد تزوّجت وأنجبت وأخوها موجود هنا!

كان يريد أن يمرّر لي المعلومة. لقد أدركتُ من اللحظة الأولى أنّي في دوّامة ستجرُّني إلى قاعٍ بعيد، لهذا فالقواعد فيها مكسورة أساساً ولا مجال لاحترامها أو البقاء في كنفها. أنا في خطرٍ حقيقي واستباحةٍ كاملة، لا أعرفُ هل عليَّ أن أضحكَ أم أبكي؟ أغضبُ أم أتعاملُ باسترخاءٍ تامٍّ مع الحالة.

يعودُ الرجل لطرح الأسئلة:

– ما هي الخدمات التي قدَّمتها للشعب والقيادة العراقية؟

– لم أقدِّم شيئاً، إلّا إذا اعتبرتَ أنَّ علاج الرئيس خدمة جليلة للشعب!

– هذا ما هو مكتوب على الورقة التي تشير إلى تاريخ أمس في حوزتك؟

– نعم، لقد كتبها صدّام.

– خبير الخطوط لدينا أكَّد أنَّ الخط يعود لصدّام، حسناً، لقد أرسلنا عيِّنات من الأدوات التي استُخدمت في علاج صدّام إلى ألمانيا لاستخراج الحمض النووي، وللتأكّد من أنّ الذي زارك هو صدّام ذاته وليس أحد الشبيهين الذين كان يستخدمهم، كما أرسلنا عيّنة من خلاياك إلى ذات المكان لمعرفة مَن تكون، لهذا أمامك حتى الصباح لقول كلّ شيء قبل وصول النتيجة، فكما تعلم – بالتأكيد – يا دكتور، الحمض النووي دليل إدانة كامل.

– دليل إدانة على ماذا؟

– أنت متّهم بإخفاء الرئيس العراقي المخلوع والتستّر على مكان وجوده.

– غير صحيح.

– إذن، أنت تنفي التهمة عنك بالكامل؟

– نعم.

– لكنّ بصمات صدّام موجودة في عيادتك؟

– أنا لم أُنكِر مروره بي، لكنّي لا أعلم إلى أين مضى أو أين كان قبل قدومه.

– مَن هو جدُّك الذي أشار إليه صدّام بالرسالة التي كتبها؟

– حكمت العمر.

– ماذا قدَّم للعراق؟

– لا أعلم عنه شيئاً، أنت تسألني عن أشياء حصلت قبل مئة عام تقريباً.

– حسناً، نحن سنعرف من هو، خلال حديثك مع أبو الكرم، بدوتَ أكثر تماسكاً منه، هل أنت منتسب لمنظمة التحرير وتقع في درجة قيادية أعلى منه؟

– لا، أبداً.

– هل لك أيّ علاقة بالمعارضة العراقية في الخارج؟

– لا، أبداً.

– قلت في تحقيق سابق إنّ معظم أصدقائك كانوا من المعلمين والمهندسين الموظفين في الدولة العراقية، كم هو متوسّط راتب المعلّم في المدارس العراقية؟

– حوالي 7000 دينار، يزيد أو ينقص حسب سنوات الخبرة.

– هل كنت الطبيب الخاصّ لصدّام حسين أو أيّ أحد من عائلته أو أيّ أحد من أعضاء القيادة العراقية في وقت ما؟

– لا، أبداً.

– هل لك أيّ علاقة بعسكريين عراقيين؟

– نعم، أعرف كثيراً من الضبّاط في سياق علاقات اجتماعية فقط نشأت خلال فترة التطوّع التي كنتُ أخضعُ لها.

– هل تحدَّثوا أمامك عن مستوى التسليح في قطعات الجيش؟

– أبداً، معظمهم غادر مع عائلته إلى المدن والقرى العراقية مع بدء الحرب.

– كيف عرفت ذلك؟

– أحاديث تردّدت أمامي قبل الحرب عن نيّة مجموعة من الضبّاط عدم القتال والمغادرة.

– ماذا تعرف عن الطرق السرّية والأنفاق في بغداد؟

– هذه حكايات وقصص كانت تُروِّجها أجهزة الأمن والبعثيون عن وجود بغداد ثانية تحت العاصمة بغداد، وهي قادرة على الصمود سبع سنوات متواصلة، وأنَّ فيها سراديب وطرقاً سرّية تضمن الخروج الآمن للقيادات والمقاتلين على طريقة الحرب في فيتنام.

– كيف يعني؟

– يعني أنّ طريقاً ما تحت قصر الرئاسة في الأعظمية مثلاً قد يُخرِجُكَ في أبو غريب أو في المطار، وربّما خارج بغداد كلّها، بعضها كان يُقال إنَّهُ يوصِل إلى تكريت وتحديداً إلى العوجة مسقط رأس صدّام.

– ما هي أبرز المراكز التي كان يردّدها الناس عن هذه الطرق؟

– القصور الرئاسية، شارع الرشيد، تمثال أبو جعفر المنصور، اللجنة الأولمبية، الشعبة الخامسة، مطار بغداد، فندق الرشيد.

– ما رأيك في النظام العراقي؟

– كان بارعاً في تقديم النصيحة بدلاً من العمل بها.

– بتفصيل أكثر؟

– الحياةُ الآنية لم تكن مهمّة عنده بكلّ ما فيها، تركيزه انصبَّ على الإجابة عن سؤال: كيف سيذكره التاريخ؟ وما الأثر الذي سيظهر منه بعد 200 عام؟

– هل دخلت السجن يوماً؟ هل اعتُقلت في أيّ مكان؟

– أبداً.

– ضبطنا اتّصالاً منذ أشهر يحمل بصمتَك الصوتية مع أسامة بن لادن؟

– أنا؟!

– نعم.

– لم أستخدم الهاتف لاتّصال خارجي منذ قدومي إلى بغداد.

– هل تعرف أين أسامة بن لادن؟

– نعم... في أفغانستان!

– وكيف عرفت أنَّهُ هناك؟

– من الأخبار.

– هل تصدِّق الأخبار؟

– أسمعها، أنقلها وأتداولها مع الآخرين.

نهض الرجال الصامتون مع الآخر الذي يتحدّث العربية، وما إن اتّجهوا إلى الباب حتى تقدَّم جنودٌ آخرون، حملوني عن الأرض الرطبة، أعادوا وضع رأسي في الكيس فارتاحت عيناي من الضوء القادم من مصباح السيّارة المسلَّط عليَّ منذ بدء التحقيق، وبكثيرٍ من الغلظة أخرجوني عبر الممرّ إلى ساحةٍ واسعة، لفحني الهواء فبدأت أرتجف، أحاول الاحتكاك بالجنديّ الذي يمسكني لعلّي أحظى ببعض الحرارة.

مشينا حوالي 150 متراً قبل أن يزيل الكيس عن رأسي ويدفعني إلى عسكري آخر، بدوره قدَّم لي لباساً أزرق اللون على شكل «أفرول» من قطعة واحدة، فكَّ قيد قدميَّ ويديَّ فارتديته خلال ثوانٍ، كان

قياسه أصغر من قياسي فشدَّهُ العسكريُّ من ناحية اليدين نحو الأعلى حتى تدخل كتفاي فيه، بينما ظلَّت ساقاي بحدود 10 سم عارية مكشوفة من الأسفل، أمسكَ الجندي بي بإحكام ثانياً يدي اليمنى خلف ظهري بينما وضع يده الأخرى على رقبتي مع دفعها للأسفل، مشيتُ تحت أشعّة الإضاءة البيضاء العالية نحو سلكٍ شائكٍ رفعَ طرَفَه عسكريٌّ آخر، وقبل دخولي وضعوا في يدي سواراً بلاستيكياً أبيض فيه صورتي واسمي.

مساحةٌ واسعةٌ تمتدَّ على حوالي 250 متراً، يتوزَّعُ الجنودُ حولها في مراكزَ خشبية على شكل أبراج حاملين أسلحةً جاهزةً للإطلاق، الرصاصةُ دوماً في بيت النار، بينما مئاتٌ من المعتقلين نائمون على الأرض تحت الأشعّة العالية. مشيت بضع خطواتٍ فوق الجثث حتى وجدتُ مكاناً بين شخصين، فاندسستُ وغرقتُ في نومٍ عميقٍ كنتُ بحاجةٍ إليه.

الفصل السابع

علاقتي بوالدي بدأت في اليوم التالي من اختفائه، لطالما فكَّرتُ في هذه المسألة، رجلٌ التصقَ اسمه باسمي دون إرادةٍ منّي، لم يسألني أحدٌ عن والـديَّ، مكان ولادتـي، ديني، حتى دراستي قرّرها أبو عامر رحمه الله. لقد كان شبيهاً بوالدي الذي لم أعرفه جيداً، نظرات عينيه نحوي وهو يترك رسالة التوصية طالباً منّي المغادرة؛ لم تفارقني يوماً، غطّى عينيه بطرف يده اليمنى كي يراني وأنا أمشي خارجاً من أطراف أصابعه، لماذا لم يخرج معي؟ سؤال راودني كثيراً. لقد كان يبحث عن موتٍ لا يشبه الموت، موتٌ يتركهُ في تاريخ المرويّات الشفاهية عند أجيال كي يكون جديراً بنسبِ عائلة أمّي!

آلامٌ في الصدر، عضلاتُ بطني تؤلمني، يداي تكادان تنشقّان عن كتفيَّ. كنت أحاول النهوض عندما بدأ الجنود بالصراخ، دخلت مجموعة منهم بين النائمين مع بدء سطوع الشمس، لمحتُ جندياً من بعيد يضع قدمه على بطن النائم أو يركله على ظهره، كان يلقي بقدمِه فأينما أتت تأتي، على البطن، على الظهر، على الرأس، بعضهم استخدم حربات البنادق لإيقاظ النائمين الموتى. لحظات ونهض الجميع، وقفنا في طابور طويل، لا ماء كي نغسل وجوهنا، يبدو أنَّهم

اعتادوا هذه الطقوس، لهجات مختلفة تمتدّ من المغرب العربي حتى بلاد الشام. الخرائط ليست موجودة إلّا في خيالِ كلِّ مريض، قلتُ هذا وأنا أقف محاصراً بكلّ ما يمكن تخيُّله من الأسلحة، منتظراً كيساً أصفر اللون، تململ البعض من الواقفين من لون هذا الكيس، يبدو أنَّهم خلال الأيّام الماضية استطاعوا التمييز بين جودة الأكياس التي تضمُّ الوجبات وما تحتويه، ما إن تسلّمت حصّتي حتى ساعدني شابٌّ في أواسط الثلاثينات كان يقف خلفي على فتحه بعد أن أخذ كيسه، ألقى التحيّة بالسلام، مؤكّداً تخمينه بسؤال:

– يبدو أنّك وصلتَ أمس؟

– نعم... رددت بكثيرٍ من الألم الذي اشتد في صدري.

– يبدو أنَّهم أتعبوك؟

– نعم... كانت أيّاماً عصيبة.

– لا تقلق، ستمضي هذه الأيّام، نسيت أن أعرِّفك بنفسي: أنا إبراهيم من بلاد الجزيرة العربية.

– علي... د. علي.

– أنت طبيب؟

– طبيب أسنان.

– أهلاً وسهلاً، أين اعتقلوك؟

– في بغداد...

حاولت الانشغال بفتح محتويات الكيس فالجوع كان قد تمكَّن منّي، حين قاطعني الشاب:

– ألَن تُصلّي قبل الطعام؟

– لا وجود للماء... قلت. لم أشأ أن أُخبِره أنّي لا أُصلّي منذ أن خرجت من بيت أبو عامر وسكنت وحدي.

– الدين يُسر يا أخـي... تيمَّم، قال النبي الكريم: التيمُّم ضربتان، ضربةٌ للوجه وضربةٌ لليدين.

راقبتُ فعله وصلَّيتُ ركعتين ثمّ عدت لتناول الطعام.

قطعةٌ من البسكويت، صلصة بـاردة، قطعة جبنة، علبة من الزبدة، علبة صغيرة من مربّى الفراولة. أجهزت على محتوياتِه خلال خمس دقائق، كنتُ جائعاً جداً رغم أنّي أشعر برغبةٍ في التقيّؤ كلما استعدتُ طعم الأرزّ الأصفر ممزوجاً ببصاق الجندي في الزنزانة المنفردة بالكليّة العسكرية الثانية.

بعدما أنهيت تناول الطعام، انشغلت بتأمّل وجوه المعتقلين، قصص متحرّكة تبحثُ عن مخرجٍ من هـذه الـورطة، أقلّ من ساعة وظهر وجهٌ من بعيد في زاوية المساحة المُسيَّجة بسلكٍ شائكٍ مرتفع، زممت عينيَّ لأحصر النظر، عرفته رغم اللحية التي غطَّت وجهه، كان شبيهاً بوالده، ملامح العائلة الواحدة تظهر مهما كانت الظروف والأحوال، فيه شيءٌ ما من أختِه، بتثاقلٍ كبير وألمٍ في فخذيَّ نهضت ومشيت نحوه مستنداً إلى أكتاف الجالسين، عابراً كلّ تلك القصص التي التقطتُ كلماتٍ منها عن وصولهم إلى هنا، الكلُّ مشغولٌ بنسجِ حكايته الشخصية. لحظات أخرى ووجـدت نفسي أمامه، يصغرني ببضع سنوات، اجتمعنا معاً في جلسات تحفيظ القرآن لأبناء أعضاء الجماعة في بيت والده، كان أحمد ابن الشيخ طاهر.

– أحمد؟

– نعم... نظر إليَّ بكثيرٍ من الاستغراب.

– أَلم تعرفني؟ أنا علي.

– ما إن سمع اسمي حتى اعتدل في جلسته، زمَّ عينيه حتى كاد يُغلقهما ثمّ وقف واحتضنني، بدا أقوى منّي، طوَّقني بكلتا يديه شادّاً على ظهري، فصرختُ بصوتٍ منخفض.

– حاذر... حاذر يا أحمد... لستُ قدَّك.

– ضحكَ وقال: بعدك شباب دكتور علي.

لم أسأله عن سبب وجوده هنا، فقد انشغلنا بأخبار عقدين من الزمان. كان يتحدَّث عن تلك الفترة بكثيرٍ من الحياد، كأنّها ليست لنا، وكأنّه الآن شخصٌ آخر لا يشبِهُ ما كان عليه. كانت المشاعر في اللحظة صفراً عندما سرَد لي قائمة الموتى، فسألته عن الأحياء من عائلته، كان يشير إلى أخواتِه البنات بكلمة «أخواتي» مع خفض في طبقة الصوت، كرّرت السؤال أكثر من مرّة بطرق مختلفة، ما أذكره الآن أنّي قلت له:

– من هم أصهرتُكُم؟ كم حفيداً صار للعمّ طاهر رحمه الله؟ أنت خالٌ لكم ولداً؟

بعد عناء حصلتُ على المعلومات التي أريدها، لقد تزوَّجَت بقريبٍ لهم، يكبرها بأكثر من عشر سنوات، أنجبت ولدين، وتعيش الآن مع كثيرٍ من الأمراض التي يعاني منها زوجها. كانت هذه الأخبار تعني لي الفرح، هناك حياةٌ في مكانٍ ما، كلما ظننتُ نفسي أنّي تخلَّصتُ منها وجدتُ أنّها تحاصرني أكثر ممّا كان، لقد كانت من المُعجِزات التي تحدث مرّة واحدة في العمر كلِّه فلا تُنسى.

حين سألني أحمد عن سبب وجودي هنا، قلت:

– صدّام حسين.

ظنَّ أنّي أقول نكتة فانفجر ضاحكاً ومَن معه، وأردف:

– صدّام سبب وجودنا كلّنا هنا.

كان إبراهيم، الشابّ القادم من بلاد الجزيرة العربية، قد انضمّ إلى المجموعة، بدا لي أنهم لا يعرف بعضهم بعضاً، فسارعتُ إلى تقديمهم بعضهم لبعض، بعد لحظات سألني إبراهيم:

– د. علي، أنت سوري أم عراقي؟ لهجتك فيها كلمات عراقية كثيرة لكنَّكَ لا تشبِه العراقيين.

– أنا عربي يا إبراهيم، عربيٌّ وُلِدتُ في سوريا.

– كلّنا مسلمون يا أخي.

– لا، هذا كلام خاطئ، كلّنا عرب، مسيحيّون، مسلمون ويهود، سيتحوَّل العربُ إلى مسلمين فقط حين يكونون مسلمين، القوّةُ في التنوّع يا إبراهيم، أنا عربي قبل أيِّ انتماء آخر. بدا التفاجؤ عليهم من هذا الكلام، فهو لا يشبِه الذي سمعوه خلال الأيّام الماضية، باغتني أحمد بالقول:

– لو لم نكن مسلمين لما كنّا هنا، هذه حربٌ مقدَّسة!

قبل أن أردّ على حديثه اقترب جنودٌ من السلك الشائك حولنا، سلَّطوا بنادقهم نحو المعتقلين، فيما وقفت مجموعة أخرى عند الباب، يحمل واحد منهم أوراقاً فيها قائمة بالأسماء ينطقها بلغة عربية سليمة، بينما بدأ مَن يسمع اسمه بالنهوض متخلِّصاً من ثقَل المكان ليُنقل إلى مكان آخر.

بعد هذه الحادثة استبدل الجنودُ تحت طلب المعتقلين ذِكر قائمة المطلوبين بالأرقام الموضوعة في الأساور البيضاء الموجودة في المعاصم بدلاً من الأسماء، لقد أدرك بعضُ المعتقلين أنَّ ذكر أسمائهم يعني إحياءً للثأر من طرفِ مظلومٍ ما في مكانٍ ما وزمنٍ ما. الخوفُ يدفعهم إلى إخفاء هويّاتهم هرباً من المحاسبة الشعبية.

رحلَ الذين وردوا في القائمة، وبقينا في الساحة الواسعة نحو 70 معتقلاً، وما هي إلّا ساعة أو أقلّ حتى جاءت دفعةٌ أخرى من المعتقلين. مرَّ اليوم ثقيلاً بالقصص التي لا تنتهي، وما إن حلَّ المساء حتى دهم جنديان المكان بحثاً عنّي.

مرّةً أخرى أجلسُ أمام ضبّاط في جولة تحقيق جديدة، لكنّها تبدو هذه المرّة مختلفة تماماً، فقبل البدء قدَّموا لي كيساً بنيّاً – كنتُ قد سمعتُ من المعتقلين أنَّـهُ أفضل أكياس الطعام – مع تحذيرهم من ضرورة عدم أكل الحافظة التي تحوي اللحم – جلستُ على الأرض في الممرّ أتناول الوجبة التي ساعدني جنديٌّ واقفٌ قربي في فتحِ بعض أكياسها. عشر دقائق أو أقلّ من ذلك وأدخلني العسكري إلى الغرفة، مجموعةٌ من الضبّاط بينهم اثنان مدنيان، قيل لي إنّهما من مجلس الحكم المحلي الجديد في العراق، جلسَ الجميعُ أمامي مكشوفي الوجوه، خلفهم العلم الأميركي وبين أيديهم كثيرٌ من الأوراق، قدَّمَ أحدهم علبةَ ماء مختومة فاستأذنت بغسل وجهي مكان جلوسي فلم يمانع أحد، بعد ذلك مدَّ لي المتحدّث بالعربية سيجارة وقال:

– نعلم أنّك تدخّن... لا مانع من تدخين هذه السيجارة.

حفاوةٌ مبالغٌ فيها، لكنّي لم أفهم السبب حتى أخرج أحدهم ورقة عليها نتائج فحص الحمض النووي الذي وجدوه على الأدوات في العيادة، وقبل أن يبدأ عاتبني بنوعٍ من المداعبة التي لم أستسِغها:

– هل عادة الأطبّاء في العراق عدمُ تعقيم الأدوات الطبّية بين مريضٍ وآخر؟

قلت:

– لم أتوقَّع أن يكون هناك مريضٌ بعده، وها أنا هنا فليس ما قبل زيارته كما بعدها.

– لقد أثبتت فحوص الحمض النووي الموجود على الأدوات أنّها تعود إلى صدّام حسين، كذلك الدم الموجود على القطن.

– قلتُ إنّه زارني في العيادة، وهذه الآثار منه.

– لكن نحنُ لم نكن مصدّقين لما حدث.

– وهل صدَّقتم الآن؟

– هذا يعني أنّك تعلم أين صدّام؟

– قطعاً لا، لقد غادر دون أن يقول أين ستكون وجهته.

– لقد ظهر في الأعظمية.

– علمتُ بذلك من سائق التاكسي الذي أوصلني إلى السفارة الفلسطينية.

– كيف أخبرك بذلك ولماذا؟

– كان يلعن الأوضاع والزمان والمكان، ثمّ وصف صدّام بالمجنون قبل أن يتابع أنّه سمع بظهوره في الأعظمية.

– هل زرت الأعظمية؟

– قبل الحرب نعم.

– مَن تعرف فيها؟

– كثير من سكّانها أصدقائي، والد صديقي أبو الكرم مدفون في المقبرة هناك، وأزوره بين فترة وأخرى.

– ذلك الذي ساعدك في الحصول على الجنسية العراقية؟

– نعم.

– هل سافرت من العراق؟

– أبداً.

– مَن تعرف من المعتقلين الذين كانوا معك في الساحة؟

– لا أحد.

– وأحمد؟

– هو ابن الشيخ طاهر، لم أره منذ أكثر من عشرين عاماً.

– هل قال لك لمَ هو هنا.

– لا.

– وإبراهيم؟

– قال إنّه من بلاد الجزيرة العربية، ولم يقل ماذا يفعل هنا.

كان يُقلِّبُ ورقةً فوق أخرى، ثمّ يعود إلى الورقة التي سبَقَتها قبل أن يتابع الأسئلة:

– هل أخبراك عن قصّة اعتقالهما؟

– أبداً.

– قلتَ في تحقيق سابق إنَّك خدمت تطوُّعاً في الجيش العراقي؟

– نعم، في الكتيبة الطبّية بالكليّة العسكرية الثانية في بغداد. بدأت بذلك فورَ تخرُّجي من الجامعة.

– هل التقيت أو عالجت أو سمعت عن أحد من الأسرى الكويتيين في العراق؟

– لا.

– هل تعرف أماكن احتجازهم؟

– إطلاقاً.

– هل التقيت بكويتي خلال احتلال العراق للكويت؟

لم أفهم سبب هذا السؤال لكنّي أجبت بالنفي، متابعاً:

– الكويتي الوحيد الذي التقيتُه في حياتي كان طالباً في جامعة فرنسية، وقدِم إلى بغداد نهاية الثمانينيات حين كان يُنجِز رسالة لنيل درجة الدكتوراه عن العراق، كنتُ في بداية شبابي حين أخبرني أبو عامر – رحمه الله – عن وصول ذلك الشابّ، وقد رافقته مرّةً أو اثنتين في جولاتِه بالعراق.

– ما كان اسمه؟

– نسيت، أظنّ عبد الرحيم أو عبد الرحمن... كان ذلك منذ زمن بعيد.

– أين ذهبت معه؟ هل التقى مع قياديّين في العراق؟

– لا أعلم، لقد ذهبتُ معه برفقة سائق عراقي إلى النجف، التقى هناك مع أعضاء في الحوزة العلمية وعدنا بعد يوم واحد إلى بغداد، ثمّ سافر إلى الكويت أو إلى بريطانيا لا أعرف، لم يحدث أيّ تواصل معه أبداً بعد ذلك اللقاء.

– حسناً، هناك أمر أخير، قبل توجيه الاتّهامات الأخيرة لك: هناك تطابق في حمضك النووي مع حمضٍ آخر لمعتقلٍ مرَّ بالسجون الأميركية في برلين، لهذا ستُنقل إلى سجنٍ آخر لمتابعة التحقيق معك.

– غريب!

– ما الغريب؟

– تطابق الحمض النووي!

تجاهل تعليقي قائلاً بحزم وبكلمات واضحة:

– د. علي... أنت متّهم.

أولاً: بالتستُّر والمساهمة في إيواء وإخفاء صدّام حسين.

ثانياً: بالمشاركة في عرقلة تقدُّم قوّات التحالف الدولي ودعم الإرهابيين في العراق.

مع إنهاء كلمته نهضَ الجميع، فاقترب منّي عضوا مجلس الحكم المحلّي، وقال أحدهما بلهجة عراقية ثقيلة:

– قل لهم أين اتّجه صدّام، هذا أفضل لك.

وأكَّدَ الآخر:

– إذا تعاونتَ معهم فستتغيّر أحوالك وتخرج من هنا وتعود إلى عيادتك ونشاطك، وأضمن لك الإفراج عن صديقك أبو الكرم وفريقه.

عاد الأول ليقول:

– سأتحدَّث مع الميجر ليُبقِيكَ هنا ليلةً أخرى وتفكِّر.

رددت عليهما:

– لقد قلتُ كلّ ما أعرف ولا شيء عندي لأخفيه.

مضى الرجلان نحو الضابط الأعلى رتبة في المكان، بدا أنّهما يتحدّثان معه عنّي، فيما كان ينظر إليَّ بازدراء شديد، ثمَّ هزَّ رأسه ومشى، فاقترب منّي الجندي مُعيداً شدَّ وثاقي قبل إرجاعي إلى الساحة مع باقي المعتقلين، وحين دفعني إلى داخل السلك الشائك اقترب منّي إبراهيم مسنداً ذراعي قبل أن نتوجّه معاً نحو أحمد الذي بدا عليه الفرح حين رآني، نصف ساعة أو أقلّ ودخل الجنود مرّة أخرى لاقتيادي برفقة إبراهيم وأحمد ومعنا شابٌّ رابع لم أعرفه إلّا بأبو عُمر اليمني نحو الداخل مرّة أخرى، دفعونا معاً نحو زنزانة واحدة، تركوا إبراهيم في الخارج قبل أن يعيدوه إلى الزنزانة وقد نزفَ دماً من شدّة التعذيب، كان الدور التالي على أحمد الذي بقيَ معهم حوالي أربعين دقيقة وعادَ يصيح من الألم، أمّا أبو عمر اليمني فلم يعد أبداً بعد أن أخذوه.

قضيتُ تلك الليلة أفكر في صاحب الحمض النووي البرليني الذي تطابقَ حمضي معه، وفي سبب السؤال الذي طرحه المحقق عن الكويتيين. عادت إلى الذاكرة تلك الأشهر المريرة التي عشناها في بغداد عقب الثاني من آب عام 1990. شبّانٌ عربٌ في العاصمة العراقية يؤدّون دور شهود الزور على ما يحدث، لم نصدِّق أنّ شيئاً كالذي حدث سيقعُ في حياتنا حتى رأينا البضائع الكويتية تغزو شوارع بغداد، استُبيحَت البلاد بكلّ ما فيها، الجنود العراقيون القادمون من جبهة إيران وجدوا في بيوت الكويتيين في مناطق عبد الله السالم والشويخ وحَوَلّي فرصةً نادرة لأخذ كلّ ما خفَّ حمله وغلا ثمنه.

للحرب دائماً روايتان، وفي كلّ خطٍّ من خطوطها، روايةُ المهاجِم وروايةُ الطرف الآخر المتلقي للصدمة.

كنّا في نهاية العقد الثاني من العمر حين مرَّ هيثم ببغداد عقِب دورةٍ في كتائب القوّات الخاصّة العراقية تمّ ترفيعه بعدها مباشرة إلى رتبة رائد، النسر على كتفه يرسمُ طريقاً جديداً لضابط نُقل إلى آمرية الجنوب بعد الدورة. التقينا ليلتها في العيادة فأخبرنا عن تجييش في القوّات ضدّ الكويت، أكّد ذلك أبو الكرم من خلال سماعه بعض الاتّصالات التي تدور بين والده وبعض الفتحاويين في العاصمة العراقية.

– هل يمكن أن تقع الحرب؟ سألت حينها.

فقال هيثم:

– لن تكون حرباً، ستكون هجوماً واحداً تعبر فيه القوات العراقية الكويت بين خطَّي الحدود وينتهي الأمر، كلُّ ما يشاع عن حلول سياسية كلام فارغ، هناك قرار اتُّخذ سرّاً وما يحدث من لقاءات في بغداد أو جدّة محض تضييع للوقت، لا أعرف ماذا سأفعل إذا صدرت الأوامر بهذا الاتّجاه. أتبع كلامه بعد تلفُّت: البندقية العراقية يجب ألّا يكون ذاك اتجاهها.

بعد تلك الليلة بأيّام كانت القوّات العراقية تجتاح الكويت، فصارت لقاءاتنا محصورة ضمن نطاق ضيّق، صرتُ أشعر تماماً كأنّي أعيش في فقّاعةٍ من السيليكون ضمن محيط منفصلٍ عن كلّ ما يحدث حوله، لهذا وجدت نفسي أكثر التصاقاً بأبو الكرم وعائلته، في تلك الفترة تُوفي والده بحادث سيّارة في منطقة الكرّادة، أقسمَ أبو الكرم عدّة مرّات أمامي والدمع في عينيه أنَّ عناصرَ يتبعون أبو نضال هم الذين دبَّروا الحادث. في الجنازة التي حضرها ممثّل عن أبو نضال وممثّلون آخرون عن قيادة العراق في الأعظمية تعرّفتُ إلى منهل المحمودي، وهو ضابط ليبي انضمَّ إلى الجيش العراقي بعد انشقاقِه عن كتائب القذافي عقِب فشل المحاولة الانقلابية التي

دُبّرت نهاية السبعينيات. لمنهل المحمودي قصّة غريبة في هروبه عبر هضبة السلوم بين ليبيا ومصر، وصوله إلى القاهرة ولجوئه إلى السفارة العراقية في شارع محمد مظهر بالزمالك، ومن ثمَّ تهريبه بجواز سفر عراقي إلى بغداد التي وصل إليها حاملاً وزر أصدقائه الذين أُعدِموا في ساحة العزيزية بطرابلس، قدَّمني له أبو الكرم في الجنازة بشكل عابر ثمّ التقيته عدّة مرات بعد أن صار ينضمّ إلينا في جلساتنا بمقاهي أبو نوّاس أو سينما النصر.

أحداث تلك الأيّام تتسارع في مخيِّلتي، تقفزُ كلُّها متزاحمةً في رأسي، وبرد نيسان القاسي يسكن أرض الزنزانة التي لا تفصلني عنها إلّا قطعةٌ من إسفنجٍ لا تتجاوز سماكته سنتمتراً واحداً. أحمد وإبراهيم يغطّان في نومٍ يتخلَّلُهُ تأوُّهٌ نتيجة رضوض التعذيب كلَّما تقلَّبَ أحدهما، والعسكريُّ ينظر من غلّاقةِ الباب نحونا. تمدَّدتُ مثبِّتاً عينيَّ على السقف الرطب، كأنّني أشاهد فيلماً سينمائياً عن أيّامٍ خلَت في بغداد، في الحقيقة كنتُ أشاهِدُ فيلماً بخطَّين زمنيَّين ومكانيَّين عن بغدادَين اثنتين.

بعد الغزو بشهرين تقريباً مات والد أبو الكرم ففتحنا صندوقاً خشبياً كان يضعه تحت سريره، وجدنا فيه صوراً قديمة لبغداد، وصوراً أخرى يظهر فيها حزقيل بن شمعون. كان خطُّ الوالد الطفولي حينها مكتوباً خلف الصورة: «صورة الأخوة، بغداد».

الجيش العراقي كان مشغولاً بالغزو لهذا عاد هيثم إلى بغداد بعد الجنازة بأسابيع محمَّلاً بكثيرٍ من الأغراض، أحضر للعيادة كرسيّاً جديداً للمرضى، هو ذات الكرسيّ الذي جلس عليه الرئيس حين زارني ليلة سقوط التمثال. روى هيثم لي ولأبو الكرم في العيادة بعد ليلةٍ من السُكر المتواصل عن الأحداث في الكويت، السيطرات، النهب الممنهج الذي يجري، التململ من الطقس الحارّ وانتظار الخلاص

بـأيّ طريقة. كانت مهمّته إدارةُ مركزٍ للشرطة في إحـدى ضواحي العاصمة الكويت كما قال. بعد تردّد طلب أبو الكرم منه الاطمئنان على عمَّتِه وزوجها والأبناء في الكويت، فوجئنا بوجود أقارب للعائلة في الكويت، فأكَّد أبو الكرم وجودهم هناك منذ نهاية الخمسينيات، كانت تلك وصيّة والده الذي لم يتّصل بأخته أبداً فحمَّل تلك الخطيئة لابنه، وما هي إلّا أيّام قليلة حتى اتّصل هيثم بأبو الكرم من الكويت حاملاً الأخبار: «لقد قُتِلَ زوج عمَّتِه خلال الاجتياح، أمّا عمَّته والبنات فقد خرجن إلى الأردن عبر السعودية، والشابّ الوحيد في العائلة بقي متخفّياً في منطقة الشويخ، ذلك الشاب كان يبلغ حينها من العمر ما يقارب الثلاثين عاماً». وختم هيثم أنّه سيأتي إلى بغداد.

فوجئتُ من كمّ المعلومات تلك مرّة واحدة فسألت أبو الكرم حين أخبرني تلك التفاصيل:

– كيف نقلها هيثم لك عبر الهاتف؟ لا بدّ أنّ الخطوط مراقبة بين الكويت وبغداد.

ضحك الرجلُ من كلامي ثمّ قال:

– بالألغاز!

– كيف؟

– لقد قـال: «الأقـارب في كربلاء ذهبوا إلـى الجيران، هناك شابٌّ في الثلاثين سيزورك قريباً من أهلي، أرجو أن تؤمّن له عملاً في بغداد بأفران الخبز عندكم».

بعد تلك المكالمة بأسبوع تقريباً كان صدّام ابن عمّة أبو الكرم يعبر بوابة العيادة في شارع السعدون قادماً من الكويت، اختار أبو الكرم أن ينزل صدّام عندي لأنّ المكان آمنٌ من كلِّ خطر. صرتُ أتندَّرُ على اسمه لفتح آفاق الاتّصال بيننا، لكنَّهُ بدا جامداً غير مصدّق ما حدث معه، يتحدَّثُ لحظات عن الطريق إلى بغداد، كلّ مساحةٍ

حتى أراضي البصرة كانت تستعدّ للدمار تماماً، كأنَّها كانت تحتفي بالخراب، ركام تتطاير منه الأتربة في كلِّ اتّجاه مع هبوب الريح، تلالٌ من الخردة والحديد الباقي من السيّارات العسكرية التي يتوافدُ عليها العراقيون مشغولين بجمع ما استطاعوا منها لبيعه في ما بعد حديداً للصهر، كانوا يصهرون أيّامهم وماضيهم فيما كان مستقبل البلاد يحترق.

في الطريق إلى بغداد – التي تمثِّل بالنسبة لصدّام قلب المصيدة وبوابة الخروج إلى الغد معاً – الأرض تميل إلى السواد، سرابٌ من الدخان الذي يرسمُهُ أمامي على شكل دوائر كثيفة متداخلة، يتصاعد ويهبط في آنٍ واحد. حين كان يبني المشهد في الفراغ في بعض الأماسي كنت أتخيَّل السماء فوقي صارت باتّساع السواد على الأرض وكأنّها أخذت لونها من الرماد. تسبّبت النار التي أُضرمت في آبار النفط الحدودية بكلّ هذا المشهد. يتابع صدّام: «أدرتُ ظهري للحدود التي كانت تقذف حمماً من اللهب الأحمر مُرسلةً خلفي غيوماً عملاقةً من السواد الذي يبدو كأنَّهُ طائرٌ تدفعه الريحُ لابتلاع العراق».

توطَّدت علاقتنا قليلاً قليلاً حتى حكى ما حدث وما رأى قبل وصوله إلى بغداد التي كانت تعجُّ بكويتيين كُثُر، يبحثون عن طريقٍ للخروجِ إلى المجهول بعد أن سُدَّت كلُّ طرُق الخروج أمامهم، سوى درب إيران عبر البحر أو طريق بغداد التي أتاحت لهم في دوائرها المُظلِمة استخراج جوازات سفرٍ أخرى عبر السوق السوداء كي يسافروا بها من المطار أو من المعبر مع الأردن.

تلك السوق كانت مضبوطة من المخابرات العراقية، فقد مَنع – في كثيرٍ من الأحيان – الجنود العراقيون في الكويت كلَّ شابٍّ لم يتجاوز منتصف الثلاثين من العبور إلى السعودية، لهذا رُسِم الطريقُ

أمام من يريد المغادرة باتّجاهين: الأول نحو إيران والثاني إلى بغداد. بعضُ الذين دخلوا إلى العراق أكملوا العبور تهريباً عبر الجبال إلى حفر الباطن في السعودية وكثيرون فضَّلوا القدوم إلى بغداد التي كان الناس فيها يعيشون بين روايتين، النصر والخوف ممّا هو آت.

جوازات لبنانية، جزائرية، أردنية، عراقية متاحة في السوق السوداء للخروج دون ضامن العبور من نقطة التفتيش الحدودية. سألتُ صدّام:

– لماذا لم يرتّب هيثم خروجاً عبر المعبر الحدودي إلى السعودية من الكويت؟

أجاب:

– هذا مستحيل في الوقت الحاضر!

إجابته تلك كانت نقلاً حرفياً عمّا قاله هيثم بعد ذلك لنا بأشهر حين عاد نهائياً لمتابعة الدراسة في كليّة أركان الحرب ببغداد.

أمّا أبو الكرم فقد كان حازماً بعدم رغبته في إدخال ابن عمّته في لعبة القمار تلك التي تعتمد على ضربة حظّ في السوق السوداء، خاصّة بعد أن عُيّن ملحقاً بممثّلية منظمة التحرير الفلسطينية في بغداد. أراد أن يرتّب كلّ شيء دون أن يسمح للأقدار بفرض إرادتها في تغيير مصير صدّام، فاقترحت عليه حينها الاتّصال بمنهل المحمودي الذي اكتشفنا لاحقاً أنّه كان في باكستان لاختطاف معارض عراقي سبَّبَ صداعاً للسفارة العراقية هناك من خلال نشاطاته بتنظيم التظاهرات والوقفات الاحتجاجية أمام مفوّضية اللاجئين في إسلام أباد، وتلك رحلةٌ أخرى من المهمّات التي أُنيطت بالضابط الليبي الذي حلم بالتخلّص من القذافي فساقته الأقدار إلى بغداد يلاحقُ معارضي صدّام. كان يحكي لنا عن تلك المهمّة بكثير من الزهو بعد أن فاتحناه برغبتنا في إيجاد طريق لخروج صدّام من العراق، توقَّف عند الاسم

قليلاً قبل أن يستعيد ذكرياته مع والد أبو الكرم واحتضانه له بداية وصوله إلى بغداد لاعناً البندقية الفلسطينية التي يكون أيّ شيء غير طريق القدس وجهتها، في إشارة إلى نشاط جماعة أبو نضال في العراق وخارجه.

اقترح الضابط الليبي أن يطلب أبو الكرم جواز سفر أردنيّاً عاديّاً يحمل اسمه ومعلوماته الكاملة لكن بصورة تعود إلى ابن عمّته القادم من الكويت، ثمّ ألغى تلك الفكرة بعد أن استقرَّ على إصدار جواز سفر عراقي يحمل اسمي ومعلوماتي وصورة صدّام باعتبار أنَّ عائلة أبو الكرم معروفة في أرجاء العراق وربّما يُعرَف أنَّ صدّام ليس أحد أبنائهم في بغداد. «لا مجال للمغامرة مهما كانت ضآلةُ النسبة المئوية لانكشاف العملية»، قال منهل المحمودي قبل أن يحدّد وقتاً لي للذهاب إلى مصلحة الجوازات لاستخراج وثيقة السفر بدل الضائع. وهذا ما كان، وما هي إلّا أيّام قليلة حتى كان صدّام يستقلّ السيّارة إلى جانب مندوب من طرف الضابط الليبي كُلِّف بإيصاله إلى حدود طريبيل.

كان ذلك آخر عهدي بصدّام في بغداد حيث غادرنا تاركاً قصصاً شفاهية عن حربٍ لم تحدث في الكويت، وبعد أن حمَّلنا خدمةً مؤجّلة دائماً لمنهل المحمودي الذي لم يقم في بغداد بضع سنوات حتى غادر إلى مصر لتنفيذ مهمّة سرّية هناك، لكنَّ القاهرة اكتشفت هويّته بعد أن ضبطت اتّصالاً منه بأصدقاء قدامى له في الإسكندرية، فاعتقله جهاز المخابرات المصري وسلّمه إلى القذافي حيث أُعدِم بعد إقراره باعترافات متلفزة عن تورّطه في مؤامرة عراقية للإطاحة بالقذافي.

حين شاهدتُ بعض المقاطع المسرَّبة لتسجيل منهل المحمودي عبر جهاز الفيديو الذي أحضره أبو الكرم من الممثّلية

الفلسطينية، انتابتني مشاعر متضاربة تجاهه، فرحنا نتحدّث عن أيّامه في بغداد. كان كتلةً من التناقضات، وكان القذّافي يستثمر في هذا التناقض لإظهاره في التسجيل لمعارضيه، قلت لأبو الكرم:

– لا بدّ أنّه لم يستطع التخلُّص من بغداد فماتت ذكراها فيه ومعه.

– هل تذكر مهمّته في إسلام أباد؟

– لقد صدَّع رؤوسنا بها وهو يشرح كيف اختطف مراد العبّودي حين عودته من المقهى إلى مكان سكنه الفقير. يتابع أبو الكرم سرد الحكاية محاولاً تقليد لهجة منهل الليبية الممزوجة ببعض الكلمات العراقية: «أوقفت السيّارة، باهي، خويه أنت عربي؟، نبّو ولّاعة؟» وما إن اقترب مراد من النافذة حتى رشَّ المرافق وجه مراد برذاذٍ ألقاهُ على الأرض، ليستفيق بعد ذلك بساعات في مكتب السفير العراقي، قبل أن يُنقل بسيّارة خاصّة إلى طائرة الخطوط العراقية المتّجهة إلى بغداد حيثُ سلَّمهُ منهل المحمودي إلى المخابرات.

قصّة مراد العبّودي رحلةٌ أخرى من مغامراتنا في بغداد، فبعد مشاهدتنا تسجيل منهل المحمودي عبر الفيديو بسنتين أو أكثر، دخل إلى العيادة رجلٌ في منتصف الأربعينات من عمره، أسمر اللون، نحيف البدن، يشكو من بعض الآلام في أسنانه، وحين هممت بأن أفتح له سجلّاً بين المرضى، اكتشفت أنّ اسمه: مراد العبّودي. كان الاسم ما يزال محفوراً في ذاكرتي، صرتُ أخترع الأسئلة لأخذ القصّة المرضية كي أصل إلى تشكيل الصورة الناقصة عندي عنه.

– هل تناولت نوعاً واحداً من الطعام طيلة الفترة الماضية؟ سألته.

– نعم... التمَّن (الأرز).

– هل كنت تتعرّض للشمس بشكل طبيعي؟

بدأ يرتاب من الأسئلة فقال:

– أحياناً، ليس دائماً على وجه الدقة.

حينها لم أجد بدّاً من مواجهته فوراً:

– هل كنت في السجن؟

توتَّر الرجل قائلاً:

– هل لهذا علاقة بألم الأسنان؟

– إنّي أسأل فقط ولكَ الحرّية في ألّا تجيب، تعمَّدتُ أن أتحدّث بلهجة بيضاء بعيداً عن المفردات العراقية.

– نعم... قال الرجل.

– هل كنت في باكستان؟

فتح عينيه رافعاً حواجبه للأعلى ومادّاً ذراعيه إلى الأمام قائلاً:

– هل أنت رفيق في الفرقة الحزبية؟

– لا... لكنّي أحفظ قصَّتَك كاملة.

توقفنا عن الحديث حتى عالجته وتواعدنا على اللقاء مساءً في مقهى النصر حيث كان من المنتظر أن يأتي أبو الكرم وهيثم.

قبل وصوله حدَّثتُهما عنه، فقرّر هيثم المغادرة خوفاً من وجود مخبرين في المكان يرصدون وجود معتقل سياسي سابق مع ضابط في كليّة أركان الحرب ببغداد، هذا الأمر سيسبّب له متاعب عديدة، بينما كان أبو الكرم متحفِّزاً للّقاء. وما هي إلّا نصف ساعة أو أكثر حتى لمحت مراد في الطرف الثاني من الشارع يراقب المكان، خرجت نحوه فأصرَّ على عدم الدخول، مشيت معه نحو العيادة ولحق بنا أبو الكرم بعد قليل، برّر رفضه بأنّه رأى أحد السجّانين جالساً في المكان بصحبة آخرين، ارتاح مراد أكثر حين صرنا في العيادة خاصّة بعدم وجود عراقيين.

– نحنُ نعرف من خطفك من باكستان. قال أبو الكرم.

– «نحنُ»؟ مَن أنتم؟

– أصدقاء قدامى، قلت.

– لا نعرف بعضنا من قبل، قال مراد.

– بل نعرف الكثير عنك، ردّ أبو الكرم متابعاً: بحسب المعلومات عندنا أنّه تمّ سوقُكَ إلى الإعدام. فماذا حدث؟

– ليس قبل أن تحكوا لي حكايتكم.

قصصت عليه حكاية منهل المحمودي ومهمّاته ونهايته الغريبة، فتبسَّم الرجل قبل أن يقول:

– لقد أقسمت له في السفارة العراقية وفي الطائرة قبل الهبوط ببغداد على قتله يوماً، لكنَّه مات بأيدي آخرين، لابدَّ أنّ صورتي ظلَّت تطارده!

– ماذا حدث معك؟ سألته.

فأجاب:

– اتُّهِمتُ بالانتماء للحزب الشيوعي فهربت إلى إيران ومنها إلى باكستان عبر إقليم بلوشستان، فطاردوني هناك وأحضروني. حوكِمت صورياً قبل أن يُصدروا قراراً بالإعدام. قضيت أربعين يوماً في قاطع الإعدام، أربعين يوماً متواصلة، يأتي فيها السجّان – الذي كان يجلس في المقهى قبل قليل ويلعب الدومنة – حاملاً قائمة بأسماء الذين سيُعدمون في تمام السادسة من مساء ذلك اليوم. تخيَّلا حالة السجين حين يعرف في التاسعة صباحاً أنّه سيُعدَم في السادسة مساءً! أربعون يوماً متواصلة من الانتظار، أتوقَّع اسمي كلّ يوم، حتى أبلغوني صباح يوم الثامن والعشرين من نيسان/أبريل بوجوب تنفيذ حكم الإعدام في المساء، وأعطوني ورقة وقلماً لكتابة وصيّتي كما الآخرون. لا وصيّة عندي، مثلنا لا يحملُ وصايا لأحد.

– ماذا فعلت ذلك اليوم بين التاسعة صباحاً والسادسة مساءً؟ سألتُ بلهفة.

ارتشف من كأس الشاي المحلّى أمامه رشفةً قبل أن يقول ضاحكاً:

– نمت! ببساطة عدت للنوم، لا شيء يعادل لذّة النوم سوى العرق عندما يتجمَّد في رأس القارورة. قال مستخدماً لفظة «البُطُل» العراقية.

– وماذا حدث بعد ذلك؟ سأل أبو الكرم.

– لا شيء، تجمهر السجناء مودِّعين للراحلين في تمام الخامسة حيث تمّ سوقُ أكثر من عشرين رجلاً نحو ساحة الإعـدام، الساحة كبيرة جداً، أرضها نظيفة، تبدو آثار ماء الغسيل ظاهرةً للعيان، فيها قاطعٌ ارتفعت فيه المشانق الخشبية وتدلَّت منها حبالٌ ثخينة، وقفنا في صفٍّ أفقي أمام السلالم المؤدّية إلى منصّات المشانق، جاءنا إمامٌ يتلو بعض الآيات ويطلب منّا الإقرار بالشهادة، عادة يقرأ آمرُ السجن قرار الإعدام والأسماء ثمّ يتحدّث الشيخ، لكن في تلك الليلة كان الأمر مقلوباً، حين أنهى الضابط قراءة البيان، أتبعه بعبارة نزلت على رؤوس الجميع مثل الثلج في حرّ الصيف:

«اليـوم... الثامن والعشرون من نيسان أبريل، ميلاد السيد الرئيس حفظه الله ورعاه، لقد شملكم بالمرحمة الرئاسية ونالكم العفو في هذا اليوم المبارك».

هكذا، في ذلك المساء، صار الجميع يهتفون لصدّام في ساحة الإعدام التي كان من المخطّط أن تشهد نهايتهم!

رفـع ذراعَــهُ اليمنى وجمع أصابـعَ كفِّـه إلـى راحتـه هاتفاً بصوتٍ مبحوح:

– بالروح بالدم نفديك يا صدّام... إي والله... صارَ المحكومون بالإعدام يهتفون بحياةِ الجلّاد.

بعد تلك الجلسة بأسابيع رتّبنا، أبو الكرم وأنا، خروج مراد العبّودي إلى الأردن بجواز عراقي مزوَّر، وبعدها انقطعت أخباره تماماً. كنّا نتذكّره دوماً خلال السنوات اللاحقة كلّما حلّ ميلاد صدّام أو رأينا سجيناً خرجَ في يوم الرحمة، فيما كنّا سنقضي حكماً قضائياً بالسجن حتى ظهور المهدي أو قيام الساعة – بحسب القضاء العراقي – لو ضُبِطَ مراد وهو يعبر الحدود!

تتناسلُ القصص بعضها من بعض، شخصياتٌ تعبُرُ في الظلام، أسمعُ في الصمتِ طبقات أصواتهم، وأرى في الفراغ صورَهُم بيني وبين سقف الزنزانة الباردة، رجوع صدى الضحكات ممزوجة بأكواب الشاي في المقاهي البغدادية، كلُّ هذا صار الآن بعيداً، بعيداً جداً، وما يحيط بنا من طائراتٍ عسكرية تطوِّق المبنى يخترقُ المشاهد أجمعها.

حاولتُ النوم جاهداً في تلك الليلة منتظراً مصائرَ تشبِهُ تلك السنوات التي خلَت بأصحابها وما حدث فيها.

الفصل الثامن

الزنزانةُ قاتلةٌ للعُمر، مساحةٌ للحزن، الرفقةُ فيها تعني أنَّ هناك متَّسعاً لحديثٍ يكتملُ مع النفس ونقيضها، تصاحبُ ظلَّكَ المُختبئُ في الظلام بكلامٍ عن بغداد وضواحيها، عن الحلم الذي لم يكتمل، عن طيفِ بلادٍ تُطارد السجين ولا ترحل، لا سبيل ولا طريق إلى الحبيبة الغائبة فطيفُها حاضرٌ بجانبي بشخص أخيها. إبراهيم يبدو منهاراً تماماً، بدأ يبكي، راحَ أحمد يشدُّ من أزره ذاكراً مناقب السلف وتحمُّلهم، لكلٍّ منّا قصّة عن هذه الحرب، كما للأموات والأحياء خارجاً حكاياتهم الخاصّة عن أيّامها، أقول لنفسي ربّما هو الوقت للحديث عنها، أتذكَّر لفوري اللقاء المُسجَّل مع أبو الكرم فأتراجع عن رغبتي في طرح الأسئلة، نحاول التمدّد على الأرض، في الزنزانة ثلاثة بُسُطٍ لا يتجاوز سُمك الواحد منها سنتمتراً واحداً، أصوات التعذيب تصل إلينا من اتّجاهات مختلفة، أخبرتهما عن نيّة الأميركان ترحيلي إلى مكان آخر.

ردَّ أحمد مباشرة:

– قاتل في سبيل الله ولا تكلَّف إلّا نفسَك.

سأله إبراهيم بصوتٍ يسكنه التوتّر والألم فجاءت الأحرف مقطوعة بنغمة مرتجفة:

– منذ متى جئت إلى العراق يا أخي أحمد؟

– قبل الحرب بعدّة أسابيع، وأنت؟

قبل أن يجيب إبراهيم، وجَّهتُ الكلام لأحمد:

– لماذا لم تأتِ إليَّ؟

– لم أكن أعرف إليكَ طريقاً، كلُّ ما أعرفه من أخبارٍ تناقلها الناس عنك منذ سنوات بعيدة بعد أن استدعى الأمن السياسي بعض أقربائك للسؤال عنك عقب رحيلك بسنوات، هو أنَّك درست الطبّ. ثمَّ إنّ ما جئنا إليه هنا ليس إقامة حبال الوصال، لقد جئنا لإحدى الحُسنَيَين، ووجَّه ناظريه باتّجاه إبراهيم منتظراً إجابة... انتبهتُ حينها إلى أنّه يستخدم لفظ الجماعة عند الحديث عن نفسه.

قال إبراهيم:

– أتيت يوم 23 آذار، دخلتُ بطريقة غير شرعية من الحدود السورية التركية العراقية، التحقت بمركز التجنيد في الموصل، ومنها إلى بغداد، قضيتُ عدّة أيّام في مدارس مختلفة قبل أن يسوقنا الضبّاط نحو ملعب الشعب.

– من كان أميركم؟ سأل أحمد.

– الشيخ رائد من الأردن، ونائبه كان الشيخ سالم من تونس.

هزَّ رأسه أحمد وكأنَّهُ يعرفهما، في الحقيقة كنتُ مستمتعاً جداً بالحديث بينهما رغم رائحة الدماء وسطوة الألم المنبعثة من الكلمات.

– لقد حصدَنا الأميركان بطائراتهم تحت جسر الشعب. مات حوالي 300 مقاتل من خيرة الشباب. وأنت يا أخ أحمد، بالمناسبة لقد أمر النبيّ الكريم بالإمارة إن كان الجمعُ ثلاثة، ونحنُ ثلاثة الآن، وإنّي أبايعُكَ فأنتَ أهلٌ لذلك.

لم يردّ أحمد على هذه الدعوة، فاكتفى بالقول:

– وقت البيعةِ ليس هنا، سيكون لها زمانها ومكانها، صمت قليلاً ثم أردف: وأهلُها.

استمرَّ النقاش في الزنزانة ثلاثة أسابيع تبدَّلَت فيها وجوهٌ كثيرة، وبقينا إبراهيم وأحمد وأنا. لم يعد أحد يسألني شيئاً، تركني الجنود مهملاً وكأنّي خيالٌ في المكان وكذلك فعلوا مع أحمد وإبراهيم حتى ظننّا أنّنا سنقضي عمرنا الباقي في هذا المكان المعزول من سجن مطار بغداد. أصوات التعذيب من حولنا لم تنقطِع، وكنتُ أرى من نقاش القادمين والمقيمين والمغادرين في الزنزانة – مع ما أراه من الواقع في الخارج – صورةً لصراعٍ بين مشروعين يظنُّ كلٌّ منهما أنَّهُ يجرُّ الآخَرَ من أُذنه نحو حلبة الصراع: المشروع الأميركي في المنطقة أمام المشروع الجهادي فيها. وكلّما حاولت الإشارة إلى ضرورة وجود المشروع العروبي الجامع، كان الآخرون يبتلعونني.

أحمد يردّد في كلّ وقت: «إنّما الحياةُ عقيدةٌ وجهاد». هو الآن لا يشبِهُ ذلك الشابّ الذي كانه حين كبُرنا معاً منذ ثلاثة عقود، شخصٌ آخر قد نما داخله، يؤمنُ بأنّ الإيمان، إذا وقعت الفِتَنُ في كلّ مكان، سيكونُ مقرّهُ الشام، وأنَّ ضربَ رأس الأفعى حين تحينُ الفُرصةُ سيُسقِطُ الذنَبَ ليموت، ورأس الأفعى عنده كان أميركا، والأذناب كلُّ من والاها، لهذا كان حريصاً في كلِّ صباحٍ ومساء على تجديد نيَّتِه. أجبرني عدّةَ مرّاتٍ على ترديد القولِ معه، وحين كنت أتململُ من ذلك كان يتندَّرُ بالقول: «لقد تغيَّرتَ يا علي، لم تعد ذلك الشابَّ الذي كنته».

أمّا إبراهيم، فبدا لي أنّه يغوصُ قليلاً قليلاً في فكرةِ الإيمان بحتمية المعركة النهائية، كأنَّ كلّ ما نحنُ فيه محضُ هراء، حالةٌ طارئة ستنتهي لا محالة. لا أنسى ما حدث تلك الليلة حين أيقظنا إبراهيم من النوم. راح يتحدَّثُ عن استنتاجات خاصّة وصلَ إليها

بعد نقاشات عديدة سابقةٍ مع أحمد. قال إنّه لا بدَّ من ضربِ أميركا – مرّةً أخرى – في عقر دارها، واستدراجها نحو بلاد المسلمين، ومن خلال هذا الاستدراج سيجد الشعب نفسه في مواجهة الخطر الحقيقي، وهنا يأتي «دورُنا» في بناء القاعدة الدينية الصلبة من خلال خلخلة البنية الاجتماعية لبلاد الشام والجزيرة ومصر والمغرب العربي تمهيداً للسيطرة عليها بهدف الاشتباك مع الإسرائيليين في الطريق لتحرير فلسطين، هذا الاشتباك سيكشف الأنظمة ويُعرّيها أمام الشعوب، لتبدأ معركة داخلية ينتصرُ فيها المؤمنون، ومِن ثمّ ستكون المعركة المصيرية الأخيرة التي حدَّثنا عنه النبيّ صلّى الله عليه وسلم.

تحفَّزَ أحمد لهذا الحديث وكأنَّهُ كان بانتظار وصول إبراهيم إلى هذه المرحلة فقال:

– معركة مصيرية قوامها ما يقارب مليون مقاتل، ثلثهم سيفرّون وهؤلاء لن يتوب الله عليهم أبداً، والثلث الثاني سيُستشهدون وهم أفضل وأكرم شهداء أهل الأرض عند الله، وثلُثٌ باقٍ سيفتح الله عليهم فتوح العارفين المُنتَصِرين، هؤلاء هم القلّةُ الكثيرة بالله، والبقيّة الباقية من الأمّة التي ستعيدُ بسنوات ما أُخِذَ منها في قرون، قتالنا مع الأميركان جولةٌ يسيرة، فالعدوُّ بيِّنٌ مكشوف الظهر، لا تعرفُهُ الأرض وجاهلٌ بأحوال المجاهدين وواقعهم، نعلمُ علم اليقين أنَّ هذه القوّات الغازية الآن مصيرها إلى الخروج، طالَ الزمن أم قصر، عدوُّنا من الداخل وقتالُهُ أولى وأقرب من قتال العدوّ البعيد، وإن كان الاستدراجُ ضرورة إلى الميدان الآن، فإنَّ التربُّصَ بالخائنين وأصحاب المشاريع المرتبطة بالخارج واجبٌ وفرض.

قلتُ متسائلاً وسط انثيال الدموع من كليهما:

– هل الثلث الذي سيُستشهد أفضل من شهداء بدر الذين غفر الله لهم ما تقدَّم وما تأخَّر من ذنبهم؟

قال حازماً بعينين نصف مفتوحتين:

– نعم. وتابع أنَّ المعركة المصيرية ستكون في أرياف حلب تحديداً في منطقة دابق، بامتداد بين الحدود العراقية من ربيعة – المكان الذي دخلتَ منه إلى العراق يا إبراهيم – حتى الشمال السوري. زمَّ قبضة يده اليمنى وتابع: سيأتي ذلك قريباً.

بدا واثقاً ممّا يقول وكأنَّ ما نحنُ فيه طارئٌ آنيٌّ إلى زوال.

– المعركةُ مقدَّسةٌ عند كلّ الأطراف، لم تعد الأرض تتسِّع لعقيدتَين، إمّا نحنُ وإمّا هم، والمسلمُ الأجنبي أفضلُ وأكرمُ وأقربُ لنا من الكافر العربي، أنهى كلامه إبراهيم ونظر إليَّ مباشرة، فقلتُ:

– إنّي أشهد أن لا إله إلّا الله وأنَّ محمداً رسول الله!

نظرا إليَّ معاً وكأنهما ينهرانني عن الاستهزاء أو التقليل من أهمّية هذا الكلام، ثمّ تابع أحمد حديثاً لا ينقطع:

– نعم، المعركة مصيرية وحتمية، هناك مجاهدون كانوا في أفغانستان وآخرون خاضوا الجولات هنا في العراق، وينتظرون بدء الجهاد في مكان آخر، حتى نصل كلُّنا إلى فلسطين، إنّما الحياة عقيدة وجهاد. منذ بدء هذه الحرب أدركنا أنَّها جولةٌ بين الكافرِ والظالم فوقفنا على الحياد، اشتركنا في بعض العمليات كي نقول إنّنا هنا، نرسل إشاراتٍ بأنّنا نحضِّر للمعركة بعد المعركة، نوعٌ من التجهيز لفرض الأرضية الصلبة وإقامتها لخلخلة المجتمع وصولاً إلى دولة الخلافة التي ستكون أولى الخطوات نحو إعادة الأمجاد وتحرير فلسطين، ليس العارُ أن يدخل العدوُّ أرضنا، بل العار إن خرجَ سالماً منها.

نهضَ إبراهيم وقبَّل رأس أحمد، ثـمّ جثا على ركبتيه أمامه باسطاً يدهُ إليه راجياً قبول البيعة، فوضعَ أحمد يدهُ في يد إبراهيم بعد أن ثبَّتَ بؤبؤي عينيه في حدَقَتي إبراهيم وراحا يـردّدان واحداً وراء الآخر:

– أبايعُكَ على كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، على السمعِ والطاعة في العُسرِ واليُسر، والمنشط والمَكرَه، وعلى الجهاد والثبات، والصبرِ والهجرةِ إلى الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم، والله على ما أقول شهيد.

كان الليلُ قد وصلَ إلى أقصى ساعاتِه، وفي ثلث الليل الأخير «يتجلّى الله على الأرض» كما قال إبراهيم، «إنّها ساعة مباركة». راح أحمد يشرحُ للمنتسب الجديد بنية العمل القادم، كلُّ هذا كان يجري تحتَ مرأى الأميركان وعلى بعد أقلّ من مترين من أول جنديٍّ يقفُ جاهزاً بعتادِه الكامل، والرصاصةُ في بيت النار!

قال أحمد:

– إنّ جيش الإسلام يعدُّ الـعـدّةَ منذ ما قبل الغزو الأميركي للمواجهة الأخيرة، وحين تخرُجُ من هنا يا إبراهيم اذهب إلى جامع أبي حنيفة النعمان في الأعظمية، وإن تعذَّرَت سبُلُ الوصولِ إليه فما عليكَ إلّا بالجامع الكبير في الأنبار، وإن منعتكَ الظروف لأيّ سببٍ، فاتَّجِه إلى حلب، هناك ستجدُ رجالاً يأخذون بيدك إلى طريق الحق.

– سنخرجُ معاً يا أمير، وسنترافق معاً في الطريق وسندخلُ معاً إلى الجنّة.

كنتُ أراقـب المشهدَ أمامي وكأنّي في منام، حين باغتني أحمد بالقول:

– وأنت يا علي... أما آنَ الأوان؟

– إن شاء الله، لكن ألا تخافا أن يكون هذا الحوار مسجَّلاً؟

نـفـى إبـراهـيـم إمـكـانـيـة تـسـجـيـل الـحـوار مـعـتـبـراً أنّ زرع الميكروفونات في المكان يتطلب وقتاً وجهداً، وأنّهم سيكونون قد ملّوا من الانتظار ثلاثة أسابيع كي نتحدّث في أمر مثل هذا، ثمّ إنَّ لحظة النور والهداية لا تلتفتُ إلى الصغائر والمَشَقّات مهما بلغت.

الفصل التاسع

يتحدَّث إبراهيم بلهجةٍ خليجية واضحة حين يستبدل الجيم بالياء. بدايةً ظننتُ أنّه من جنوب العراق، لكن عندما جلسنا أيّاماً في الزنزانة تيقَّنتُ أنّه من بلاد الجزيرة كما يصفها دوماً. يحكي لنا عن رحلته إلى هنا، وصوله إلى الزنزانة المشتركة في كروبِّر، الخطرُ الداهم الذي كان يستشعر وجوده في كلّ مكان حول المسلمين، الغزو الثقافي الذي يراهُ في كلّ زاوية. درسَ الأدب العربي في جامعة الملك عبد العزيز قبل أن ينتقل إلى الدمّام للعمل في التدريس بمدرسة أمّ المؤمنين الثانوية، أخوه الأكبر شارك في الحرب بالمواجهات العسكرية الأفغانية في خوست وجلال أباد ومعركة كابل، كما انتقل مع المجموعة الصغيرة التي قادها خطّاب للحرب في طاجيكستان حيث استُشهِد هناك قبل التحاق المجموعة بأرض الشيشان بعد ذلك بعام واحد، يؤكِّدُ أنَّ هناك صلة قرابةٍ لعائلتِه مع خطّاب من جهة أمِّه الشملانية التي وُلِدت في سوريا بعد رحيل أبيها من جنوب حائل.

يقاطعه أحمد:

– الشيخ أسامة أيضاً عاش في سوريا السنوات الأولى من عمره عند أخواله.

يردّ إبراهيم:

– الشام أرضٌ مباركة ولّادة.

– حتى إنَّ جلَّ الإخوة الذين نفَّذوا غزوة نيويورك مرّوا بسوريا.

يتابع أحمد:

– لقد التقى أحد الإخوة مع الأخ محمد عطا حين قدومِه إلى حلب لإنجاز مشروعه البحثي للجامعة الألمانية في هامبورغ، هناك اجتمع مع العديد من قيادات الفكر الجهادي.

ساد صمتٌ للحظات قبل أن يبدآ معاً في ذات اللحظة بالدندنة بصوت خافت:

«سنخوضُ معاركنا معهم، وسنمضي جموعاً ندفعُهُم، ونُعيدُ الحقَّ المغتَصَبَ، وبكلِّ القوّةِ نردعُهُم».

مشهدٌ هاربٌ من جبلٍ مغطّى بالثلجِ في طاجيكستان. هكذا كنتُ أراه.

حين توقفا عن الغناء قال أحمد:

– تقبَّل الله أخاك. إنَّ روحه الآن في حواصل طير خُضر تطوف في الجنّة ثمّ تتعلَّقُ مساءً بأدنى العرش، يا إلهي، ماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك، لقد سبَقَنا؛ وإنّا على النهجِ لسائرون.

يهزُّ رأسه إبراهيم قبل أن يكمل:

– وصلتُ إلى مطار دمشق، ذهبتُ إلى الجامع الأموي، هناك التقيتُ بشباب من الجزائر وليبيا وتونس، سوريا هي الدولة العربية الوحيدة التي يدخلها العربي دون تأشيرة، صارت ملاذاً لكلِّ من يرغب في العبور إلى أرض الجهاد، مضينا معاً نحو حمص، وفي كراجِها الرئيسي انقسمنا إلى قسمَين، الأول راح باتّجاه البوكَمال للعبور نحو القائم، والثاني سارَ باتّجاه حلب ومنها إلى القامشلي وصولاً إلى ربيعة حيث عبرتُ الحدود ليلاً بمساعدةِ شابّ من أهل المنطقة، وصلتُ

إلى النقطة العراقية وسلَّمتُ نفسي على أنّي من المجاهدين العرب، رحَّبوا بي وتركوني أمضي نحو الجامع الكبير، هناك تعرَّفتُ إلى الشيخ رائد والشيخ سالم، كانا يحثّانِ الشباب على الصمود وإخلاص النيّة لوجه الله، تجمّعنا في كتيبة المدفعية العراقية لأسبوعٍ واحد قبل أن تبدأ القوّات الغازية بدخول الموصل بداية أبريل، كنّا نسمع عن الدبّابات الأميركية على مداخل المدينة، نخرج في جولاتٍ ميدانية، مقاتلون من بلدان مختلفة يقودنا عراقيٌّ في شوارع فارغة، ليقول في نهاية كلّ واجب: «يبدو أنّ قوّات الحرس الجمهوري ردَّت الدبّابات الأميركية». أمضينا عدّة أيّامٍ على هذه الحال قبل أن يتمّ تجميعنا في سيّاراتٍ ونقلنا إلى مشارف المدينة في الثالث من أبريل. كانت مواجهة لم تحدث، قوّاتٌ أميركية تمشِّطُ السماء والأرض، ومقاتلون يموتون كالفريسة التي لا تجد ما يقيها الوحش، هربتُ بعد أن صاح الشيخ رائد بضرورة الانسحاب الكيفي والتجمّع أمام فندق الموصل، مشيتُ في شوارعَ ترفعُ سيّاراتُها الرايةَ البيضاء، وجهُ المدينة تغيَّر تماماً بين ليلةٍ وضحاها، أمام الفندق كنّا بحدود مئة مقاتل، قادنا الشيخ رائد إلى بغداد عبر سيّارات بيضاء من نوع «بيك آب»، عشر سيّارات يسيرُ بعضها وراء بعض عبر الريف محاذيةً لنهر دجلة وصولاً إلى بغداد، على متنها شبابٌ ينطقون بمختلف اللهجات، كان بيننا سوريون، لبنانيون، سودانيون، مغاربة، فلسطينيون.. جنسيات كثيرة. أوقفتنا القوّات الأميركية على تخوم بغداد من الجهة الشمالية بعد أن عبرنا ما يقارب 4 ساعاتٍ ونصف الساعة من دون ماء أو طعام، لم يفكِّر أحدٌ في الطعام، كان همّنا عبور المناطق المحاذية للمقاتلين الأكراد الذين بدأوا بفرض سطوتهم على المكان، واجهنا إنزالاً جوّياً يُحضِّرُ لقاعدةٍ لم تُبنَ بعد، رأيتُ الطائرات بأمِّ عينيَّ، أحرقوا السيّارات مباشرة ثمَّ تركونا بعد أن سمعوا صوتَ تفجير

في مكان قريب، كانوا آمنين مطمئنّين في تحضيرهم حتى سمعوا الصوت، ركضوا إلى السيّارات التي هبطت من الطائرات، ركضنا راجلين هائمين آخرَ 10 كيلومترات حتى وصلنا إلى مداخل بغداد، مِن هناك استعنّا ببعض المقاتلين وصولاً إلى ملعب الشعب، مناطق كثيرة في بغداد حينها كانت قد خرجت من قبضة النظام العراقي، الأميركان دخلوا أحياءً مختلفة، أتحدَّث هنا عن اليوم الثالث أو الرابع من أبريل، سمعنا في الطريق أقوالاً كثيرة عن المعركة الحاسمة في المطار، لكنَّ الموت حصد أغلبنا تحت جسر الشعب حيث احتمينا، تناثرت الجثث في كلّ اتجاه، كنتُ واحداً من أولئك الذين حلموا دوماً برصاصةٍ تحيلُهُم إلى قداسة الشهيد.

يقاطعه أحمد:

– لم يفُت الوقت بعد... للباطل جولة واحدة، لم نخسر الحرب... ستدور الدوائر وسترى.

يتابع إبراهيم:

– تفرَّق الجمع بعد القصف، استُشهد الشيخ رائد والشيخ سالم، همتُ مع آخرين على وجهي في بغداد، البلادُ كأنّها علبةُ كبريت صغيرة، يحاصرنا شبحُ الاعتقال، وما إن دخلنا شارع الرشيد حتى أوقفتنا دورية أميركية بعد أن أشار عراقيون بأنّنا مجاهدون عرب جئنا للدفاع عن صدّام، ومن تلك اللحظة بدأت رحلة المعسكرات الأميركية لعدّة أيّام قبل الوصول إلى هنا. أحتسِب هذه الرحلة عند الله – طرقَ بقبضة يده على الأرض – وتابع:

– تقبَّل الله من سبَقَنا من الإخوة وأراحنا من هذه الحياة بالشهادة.

كان إحساسُ الصدق بلسانِه واضح وهو يروي هذه التفاصيل، بينما صمت أحمد قليلاً قبل أن يبدأ حديثاً عن تجربة الأفغان العرب

وجولاتهم في خوست وجلال أباد وعموم ضواحي بيشاور، عن «بيت الأنصار» و«مكتب الخدمات»، أفغانستان، داغستان، طاجيكستان، حذَّر كثيراً خلال حديثه من الخيانة التي قضى بسببها خطّاب العام الماضي بعد أن دسَّ لهُ عميلٌ مزدوجٌ رسالةً تحمل سمّاً؛ لم يأخذ وقتاً حتى فتَكَ به.

استعدتُ كلمات صدّام القليلة التي قالها حين سألتُهُ في العيادة عن سرِّ ما حدَث، وأجاب: «الأصدقاء حين ينتقلون إلى الضفّة الأخرى يكونون أسوأ الأعداء تماماً».

في كلِّ ضفّة يهيم الناس على وجوههم وهم يردّدون: سنموت بكرامة. أمّا فكرةُ الحياةِ بكرامة والموت بدونها فغير مطروحة في هذه البلاد بالمطلق. يقول الجميع: نريد أن نموت هنا ولا يأتي على بالهم أبداً أنّ فكرة الحياة هنا – برغم السواد – ممكنة، أو ربّما تكون ممكنة بحدِّها الأدنى. صارت البلاد على شكل مقبرة مفتوحة على كلِّ الاتّجاهات، والحياةُ على هامشِها صارت تشكِّل عبئاً على مَن يسعى للموت في كلِّ نفَس.

أهزُّ رأسي قائلاً في ختام الليل، وقد غلبَني النعاس: «كلُّ خيانةٍ خلفها صديق حميم».

بعد تلك الليلة بعامين تقريباً، علمتُ أنّ أحمد رُحّل في صباح اليوم التالي إلى غوانتانمو بعد المرور بسجنٍ سريٍّ في بلدٍ عربي.

الفصل العاشر

بعد تلك الليلة التي وقعَت فيها البيعة بين إبراهيم وأحمد، تمَّ إخراجنا صباحاً إلى ساحة السلك الشائك وقد قسّموها إلى أربعةِ أقسام مختلفة، وضعوا كلَّ واحدٍ منّا في قسم، وكنتُ قد أخذت عهداً على نفسي ألّا أبني علاقةً مع أحدٍ من المُعتقلين بعد الذي شهدته من نقاشات في الزنزانة بداخل المبنى. لم يمضِ اليوم الأول إلّا ونقلوا عدداً كبيراً من المعتقلين كان بينهم أحمد من القسم الأول عبر باصاتٍ حمراء اللون، لوَّحَ لي بيدِه من بعيد، أرسلَ قبلةً مع الهواء، وقفَت دمعةٌ في عيني، فأشار بسبّابته إلى السماء.

مع خروجهم من السلك الشائك اقترب إبراهيم نحو مكان وجودي، وسأل بصوتٍ عالٍ مِن بُعدِ أمتارٍ محدودة:

– إلى أين يأخذونهم؟

– رفعت كتفيَّ إلى الأعلى، وفتحتُ يديَّ إلى الأمام.

مع الليل، بعد توزيع وجبة الطعام الثالثة التي أضافوا إليها 4 سجائر من النوع الرخيص الذي يسبّب سعالاً لا يتوقف في الليل، اقترب جنودٌ من القسم الثاني ونادوا على مجموعةٍ من الأرقام كان

بينهم إبراهيم، ففعل كما فعلَ صاحبُه قبل ساعات، رفعَ يديه ملوِّحاً مشيراً بسبّابتِه إلى الأعلى.

بقيتُ وحدي في المكان مع غرباء مثلي، لا أتحدّث مع أحد ولا أحد يتحدّث معي، حتى جولات التحقيق المتكرّرة استثنت وجودي شهراً كاملاً، صرتُ وجهاً مألوفاً للجنود، ينادونني: صديق صدّام، رجوتُهُم أكثر من مرّة ألّا يفعلوا ذلك، فهناك كثيرٌ من المعتقلين كان ذووهم ضحايا للنظام، ومناداتي بهذا تعني أنّي كنتُ جزءاً ممَّن حوَّل الموت إلى منهج عمل في البلاد.

في سجنِ كروبر تبدو الحياة تتّجهُ نحو الاعتياد بعد مرور ما يقارب شهرين على وجودي هنا، تغيَّرَت وجوهٌ كثيرة من الحرّاس والمعتقلين، حتى اللباس صارَ ألواناً مختلفة، هناك الأزرقُ، الأصفرُ، الأحمر، الأخضر الجوزي، حاولت مراراً أن أرسم في ذهني خريطة للمكان، لكنَّ التغييرات اليومية التي يجريها الجنودُ على المعتقلات التي تحمل عناوين على شكل أحرف أو أرقام بالإنكليزية تضع حدّاً لتخيُّلاتي.

سجنٌ منيعٌ مثل قلعةٍ حصينة تحملها بغداد على خصرها، تحيطهُ أسلاكٌ شائكةٌ لا حدَّ لامتدادها، تقطعها أبراجٌ خشبية عاليةٌ يجلسُ في كلِّ واحدٍ منها جنديان يرصدان ما يدور في الساحات ويراقبان المعتقلين في كلّ الأوقات، وضعوني بدايةً في قاطع يضمُّ الأشدَّ خطورة بين المعتقلين، ضبّاطٌ من فدائيّي صدّام، بعثيّون سابقون، قيادات عراقية من صفوف مختلفة، كان قسماً خاصّاً للمُدانين بالقيام بأعمالٍ عدائية ضدَّ قوّات التحالف. بعد أسبوعين نقلوني إلى القاطعِ الثاني الذي يضمُّ أشخاصاً تدور تساؤلات عديدة حول تاريخهم. بعد ذلك بشهرين آخرَين نقلوني إلى القاطع الأكثر شعبية والذي يضم المشتبه فيهم الذين لم تثبت إدانتهم... خلال

هذا التنقل، تعرَّفت في كلِّ قاطعٍ إلى أشخاص مختلفين، ومررتُ على القاطع رقم 7 الخاصّ بالعرب والأجانب، خليجيون، سوريون، أردنيون، جزائريون، لبنانيون، فلسطينيون، أتراك، تونسيون، ليبيون، موريتانيون، صوماليون، سودانيون، مصريون، مغاربة، إيرانيون، ماليزيون، أوروبيون من أصول عربية، إيرانيون من منظّمة مجاهدي خلق، كانَ لكلٍّ منهم قصّة عن وجوده في العراق. بعدها بعامين، علِمتُ أنَّ أبو الكرم وفريق السفارة قد مرَّ بالسجن رقم 7 بعد أسابيع من مغادرتي له.

استُدعيتُ أخيراً للتحقيق بعدما اعتَدتُ تفاصيل الروتين اليومي في المكان، قادوني من موقعٍ إلى آخر. لقد فقدت خلال هذه الفترة جزءاً كبيراً من وزني، صرتُ نصفَ ما كنتُ عليه حين اعتقلوني في السفارة. كان هذا اللقاء حاسماً في ما سيأتي بعد ذلك، طرحت إدارة السجن جولات تحقيق ينفِّذها محققون شباب لم يمارسوا العمل الأمني قبل ذلك إلّا نظريّاً من خلال الدراسة، كان المعتقل الخاصّ بالمشتبه فيهم بمثابةٍ دوراتٍ تدريبية مفتوحةٍ للجيش الأميركي، يُطبِّقون عليه ما يشاؤون من أحكام، يُغيِّرون نوع الطعام، عدد السجائر، نوعية الشاي المُقدَّم، يقلِّلون ساعات الراحة في الشمس، ساحةٌ مفتوحة لبالونات الاختبار التي يقيسون من خلالها مستوى تلقّي الرأي العامّ، رقابةٌ دائمةٌ في النهار، وانضباطٌ بمنعِ التحرّك في الليل. حاول اثنان من المعتقلين الهربَ من تحت السياج في منطقة مظلمة من زاوية المعتقل، فعاجَلَهُما الجنديُّ برصاصتين نُقلا على إثرهما إلى معتقلٍ آخرَ في بحر النجف الصحراوي. علاقتي بهذا المكان مربكة، أُحاوِلُ اعتيادَهُ كلَّ يومٍ فأفشل، أبحثُ عن أيِّ بابٍ يكون مخرجاً للطوارئ من كلّ ما يحدث، حتى تعرَّفتُ إلى الجندية «تينيسي» خلال عمليات توزيع الطعام اليومية، نشأ بيننا

ما يمكن تسميته بالعلاقة الإنسانية بين سجين وسجّان. حين عرفَت أنّي طبيب أسنان اقترحَت أن أسهِم بعلاجِ المرضى من المعتقلين في النقطة الطبّية، وفي سبيل هذا أحضرَت موافقةً من قيادة السجن لتنفيذ المهمّة، كان ذلك بمثابةِ تغيير جذري في علاقتي بالمكان، ففي ظلّ النقص في أطبّاء الأسنان وغياب القدرة على التواصل بين الأطبّاء من الجيش مع المعتقلين؛ صرتُ أخـرجُ في تمام السابعة والنصف إلى المركز الطبّي تحت حراسةٍ من الجنود، أمارسُ حريَّتي الكاملة في العيادة التي اقتصر العمل فيها على قلعِ الأسنان، قبل أن أعود إلى القاطع مع حلول المساء. اعتدت سماع أغاني الروك، بدأتُ أُميِّزُ بين اللهجات في الولايات الأميركية، التقيتُ مع جنودٍ عذَّبوني في الكليّة العسكرية الثانية وضبّاط حققوا معي، الجميع ينادونني «صديق صدّام» بعضهم كان يقول «صديق الديكتاتور»، كنتُ أتذمَّر من هذا الوصف، ثمَّ بعد ذلك صرتُ ألمحُ احتراماً للرجل في عيونهم، احترامٌ ممزوجٌ بكراهية شديدة.

زارني في العيادة جنديٌّ شابٌّ قال إنّه من كاليفورنيا واسمه «توماس»، «سيرجنت» التحق بالجيش الأميركي قبل بدء الحرب بأشهر لاستكمال دراسته وضمان قدرته على دفع أقساط الجامعة، اعتاد زيارتي كلَّ يوم لساعة أو أقلّ، صارت زيارته مرتبطة بجولات أسئلة لا تنتهي عن إقامتي في العراق، عملي، دراستي، الحياة في سوريا. أدركت مباشرةً أنّه يقوم بدورة تدريبية وقد كنتُ من نصيبِه، لكنَّه نفى ذلك بشدّة حين سألتُه.

بعد أيّامٍ سألني عن جدّي حكمت، مقتنياتِه في بيت العائلة، ما أعلمُهُ عنه، بدا شغوفاً بمعرفة كلّ شيء عنه، صرتُ أتمنَّعُ عن إعطاء إجابات شافية، أعجبتني لعبة الأسئلة الواضحة والأجوبة المفتوحة على كلّ الاحتمالات، حتى ضجِر من إجاباتي وقال:

– علي، إنّي أبحث في تاريخ المنطقة وعلاقتها بأوروبا قبيل الحرب العالمية الثانية، قد يبدو هذا عبثاً ضمن الدائرة الواسعة التي تحدث، لكنّ الولايات المتّحدة تعمل بهذه الطريقة، اليد التي تُشعِلُ النار في مكان ما، تدفعُ بأخرى لتُقرِّبَ علبة الماء من دائرة الاحتراق، الأمّة التي تنتهكُ كلَّ قانون هي ذاتها التي تُدافِعُ عن الحقوق. لقد وصلتنا – إلى الجامعة – رسالة من فريق بحثي في البنتاغون بعد أسبوعين من دخول قوّات التحالف إلى بغداد، تؤكِّدُ وجود تطابقٍ بين حمضك النووي مع حمضٍ معتقل عربي سابق مرَّ بالسجن الأميركي بمطار تمبلهوف في برلين، اسمه حكمت، هذا الرجلُ هو واحدٌ من العيِّنات البحثية التي أعمل عليها، مساعدتك لي تعني اكتشافاً لجدِّك من جديد وفهماً آخر للتاريخ، لقد بحثت في ملفّك ووجدتُ رسالة موقَّعةً من صدّام يشير فيها إلى جدِّك بوضوح، أحتاج إلى مساعدتك لإنجاز البحث!

ذُهلت. وعادت إليّ فوراً كلمات الضابط في جلسة التحقيق حين أشار إلى وجود تطابق بين حمضي النووي وحمض المعتقل البرليني.

– ما نوع المساعدة التي تحتاج إليها؟ سألت.

– هناك وثائق كثيرة بالعربية، أحتاجُ منك إلى أن نضعها معاً في سياقٍ واحد.

– لكنّي لا أعرف عن جدّي شيئاً، ما تعرفه يفوق ما أعرفه بكثير.

– لا بدّ من أنَّ هناك في ذاكرتك، في مكانٍ ما، أمراً مخفيّاً سنعيد اكتشافه معاً.

– كيف ذلك؟

قدَّم لي رسائل تعودُ إلى ثلاثينيات القرن العشرين، متبادلة بإنكليزية رفيعة بين الرائد في الجيش الفرنسي لاورنت ديبوي

المتوفّى عام 1947 بعد أن اعتنق الإسلام في اليمن، بصفته ممثّلاً لشركة سلاح بلجيكية تتّخذُ من مدينة لييج شرقي بروكسل مقرّاً لها، وبين جدّي حكمت باشا في ألمانيا. الحديثُ فيها عن صفقة سلاحٍ يجري الترتيب لها بين الحكومة المتوكّليّةِ في اليمن والشركة البلجيكية الواقعة في الإقليم الوالوني الناطق بالفرنسية، باعتبار أنّ جدّي كان وكيلاً لإمام اليمن في ألمانيا كما تشير الوثائق.

هي المرّة الأولى التي أرى فيها صورةً لجدّي مأخوذة من قصاصة جريدة محليّة ألمانية، بذراعٍ مبتورةٍ، شارب ناعمٌ معقوفٌ نحو الأعلى، وغطاء رأسٍ عربي يحني ظهره مستنداً إلى صخرةٍ في ما يبدو، قلتُ فوراً:

– إنّه هو، ملامحه ذاتها التي تظهر في الصورة المتداولة في العائلة عنه.

– هل هذا خطُّه؟

– لست أدري، لم أرَ خطَّه بالإنكليزية لكن إذا وقعت جملة بين يديّ بالعربية فسأكتشف إن كان خطّه أم لا.

انفرجت أسارير السيرجنت عن ضحكة، أتبعها بالقول وهو يقدِّم لي سيجارة مارلبورو أبيض:

– هذه مهمّتك تماماً، بالإضافة إلى حاجتي للوصول إلى أرشيف جدِّك في العائلة، غداً سآتي الساعة السابعة والنصف صباحاً لنبدأ العمل معاً على مجموعة من الملفّات.

قلتُ لنفسي في طريق عودتي نحو القاطع داخل السجن: «قد يحدث أن تكون الحياةُ كريمةً إلى هذا الحدّ». اكتشفتُ بعد ذلك بوقت طويل أنّ ردود فعلي على الأشياء كانت بدورها مادّة للبحث والتمحيص.

الفصل الحادي عشر

الرسالة الأولى

البلاط الملكي

الديوان

بغداد ... التاريخ غير واضح

الرقم/ط/318

حضرة حكمت باشا المحترم،

أُمِرتُ من طرفِ صاحِب الجلالة أن أشكرك على تهنئتك لجلالته بالعيد، والتفاتتك لأهمّية ما تقوم به الدبلوماسية العراقية في أوروبا من تيسير لشؤون وأحوال الرعايا العرب، ويرى صاحب الجلالة أنَّه لا ضيرَ في إقامةِ الاحتفال – الذي أشرتَ إليه في رسالتك المبعوثة إلينا – في مقرّ بعثة جلالته في فيينا.

أمّا ردّاً على طلبك بالرغبة في الحصول على الجواز العراقي لتسهيل انتقالك بين الدول العربية، فإنَّ جلالته يرى أن نتريَّث في هذا نظراً لتوقيع الاتّفاق مع الأتراك بعدم منح الجواز العراقي لحاملي الوثائق العثمانية من غير العراقيين.

آملُ منكَ تفهُّم الأمر.

سكرتير صاحب الجلالة الخاصّ.

الرسالة الثانية

البلاط الملكي

الديوان

بغداد في 3 حزيران ... العام غير واضح

الرقم /ط/450

سعادة المحترم حكمت باشا،

السلام عليكم ورحمة الله،

أمرني صاحب العظمة أن أخبِرَك عبر رسالة جلالته هذه أنَّه تمَّ تحويل النماذج والصور التي أرسلتها لديوان جلالته حول البنادق قصيرة الذراع إلى وزارة الدفاع لبيان الرأي فيها، كما أنّنا ننتظر منك إرسال نماذج أخرى من الخرطوش الجديد على سبيل التجربة.

سكرتير صاحب الجلالة

الرسالة الثالثة

وزارة الدفاع

بغداد

التاريخ 30 حزيران

حضرة الأخ حكمت باشا المحترم،

السلام عليكم ورحمة الله،

لقد تلقيت كتابك الموجَّه إلى ديوان صاحب الجلالة متضمّناً النماذج التي أرسلتها، وقد أخذتُ محتواها إلى دوائر الجيش المختصّة للنظر فيها، وأُعلِمُكم بأنَّ الجيش العراقي، للأسف، لا يحتاجُ – في الوقت الحالي – إلى شيء من التجهيزات والمعدّات المذكورة في كتابك.

تفضّل بقبول التقدير

عن مكتب وزير الدفاع

سرّي وعاجل

برلين – 1939

ديوان صاحب الجلالة المعظَّم،

نبتهلُ إلى الله أن يمنَّ على ملكنا بوفير الصحّة والعافية والحبور،

نرجو منكم أن تضعوا بين يدي جلالته المعلومات التالية:

لقد وصلَنا من مصادر مختلفة وذات مصداقية عالية، أنّ المدعوّ حكمت باشا متورِّط بشكل مباشر بالعمالة لدى السفارات التركية في بلدان أوروبية مختلفة، وأنَّ له دوراً كبيراً في حركة شراء الأراضي في فلسطين لصالح شركة تطوير أراضي فلسطين التي يديرها الصهاينة.

نأسف كثيراً لهذه الأخبار لكن من واجب الولاء للعرش العراقي علينا، رأينا ضرورة وضعها بين يدي الملك المعظَّم أدام الله حُكمَه.

تقبّلوا الاحترام والتقدير

المخلص

ي. ب.

الرسالة الرابعة

مملكة العراق

ديوان رئاسة الوزراء

مكتب رئيس الوزراء

حضرة حكمت باشا المحترم،

نشكر لك اهتمامك ودعمك وعملك الدؤوب لترتيب الطريق ومؤازرتنا في خطواتنا مع الحكومة الألمانية، فقد أشارَ صاحب المعالي إلى جهودك في اجتماعٍ خاصّ تم فيه بحث مُقتَرَحِكَ بالتعاقد مع بعض الضبّاط الألمان للمساهمة في بناء وتأهيل مديرية الأمن العامّ في مملكة العراق. وسنخبرك بأيّ تطوّر يحدث في هذا الاتّجاه لاحقاً إن تمَّ اعتماده.

وختاماً ننتهزُ الفرصة لشكرك مرّة أخرى على كرم الحفاوة الذي استقبلتنا به خلال زيارتنا الأخيرة لبرلين.

آملين لكَ دوام الصحّة

سكرتير رئاسة الوزراء في العراق

الرسالة الخامسة

صاحب السعادة رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني الأفخم،

تحيّة عروبية صادقة أبعثها لمقامكم من العاصمة الألمانية التي يفوحُ في جنباتِها ذِكرُكُم، ويدورُ في مجالسها الحديث عن إنجازاتكم ورؤيتكم لمستقبل العلاقات العربية الألمانية.

شاكراً لكم بامتنانٍ كبير تكرُّمَكُم بإرسال الخطاب لي، أنا الفقير إلّا من محبّتكم، وأحيطكم علماً يا صاحب السعادة أنَّ الدوائر

الخاصّة في الحزب الحاكم في برلين ينظرون إلى خطواتكم بالحدّ من التدخّل الإنكليزي في العراق بكثير من الاحترام والتقدير.
يبدو أنّ الحرب في أوروبا قادمة، لهذا أعود وأكرّر ما عرضته بين يديكم خلال زيارتكم عن رغبتي الصادقة بالمساهمة في الاتّفاق مع الضبّاط الألمان لما في ذلك من إفادةٍ كبيرةٍ للبنية الأمنية في العراق، آملاً منكم النظر سريعاً إلى الملفّات الخاصّة بصفقة السلاح التي حدّثتكم عنها خلال زيارتكم المباركة.
تقبّلوا كامل المحبّة والتقدير والتبجيل
المحبّ
حكمت

مرَّ الآنَ على وجودي في معتقل كروبر بمطار بغداد سبعةُ أشهر تقريباً. في الشهرين الأخيرين لم أشعر بأنّي أخضع لاعتقال سوى أنّني أعمل دون أجر، علاقتي مع توماس اتّجهت إلى صداقة من نوع خاصّ، لم يكن يمارس ما يفعله الجنود عادةً، لم يكن يُطلِق غازات بطنه في حضور الآخرين، لم يكن يرفع قدميه إلى الطاولة واضعاً إيّاهما في مواجهة الذي يجلس أمامه كما يفعل الجنود عادة، والأهم أنّه لم يكن يخفي طعامَه أو سجائره عنّي، بدا لي أنّه درس العادات العربية جيّداً، أو بشكل أدقّ حاول الانضباط طيلة رفقته لي، منذ أن أطلعني على مشروع بحثه، صارت معظم أوراقِهِ في العيادة التي أتشارك فيها الفضاءَ مع أطبّاء متطوِّعين في قوّات التحالف، نجلس لنتحدّث عن رجلٍ مات في برلين قبل ما يقارب ستّين عاماً، صفاته، ملامحه، خطُّ قلمه، تصرُّفاته، علاقاته بالمحيط، كلُّ ما يربطني به علاقة الدم، وبعضُ الأخبار التي تداولناها صغاراً عنه، كانت أخباراً

أقربَ إلى الخيال لكنّها الآن تبدو في سياقها الطبيعي تشكِّلُ قصّةً مكتملة الأركان.

عملتُ مع توماس على تحليل مضامين الرسائل المتبادلة بين أطراف مختلفة، نسخة الرسالة الأولى التي عرضها عليَّ والتي تكشِفُ عن علاقة جدّي بإمام اليمن؛ حصل عليها توماس من أرشيف الجامعة عنده، أمّا ما بقي من رسائل خاصّة بالعراق فقد استُخرجت بعد سيطرة قوّات التحالف على الأرشيف الوطني العراقي بالكامل، نسخٌ أصلية لمراسلات تكشف عن مرحلةٍ حقيقية ليست سراباً.

بين حينٍ وآخرَ كانوا يكرّرون السؤال عن صدّام، وكنتُ أجيب بنوعٍ من التندُّر أنَّ الرئيس أخبرني بنيَّتِه الذهاب إلى أوروبا لكن يبدو أنَّه عدل عن فكرتِه هذه، فقد مضى على لقائي معه أكثر من سبعة أشهر، ولم تظهر عنه معلومة ثابتة سوى بعض التسجيلات الصوتية التي يدعو فيها للمقاومة.

في الأسبوع الثالث من الشهر السابع لوجودي، عرض عليَّ الميجر في قاعدة كروبر أن أنضمّ رسميّاً إلى قوّات التحالف كطبيب في ظلّ النقص الحادّ في المعتقل للأطبّاء الناطقين بالعربية، أجبت بالرفض ما دمتُ أحمل صفةَ معتقل قيد الاشتباه، اشترطت للتفكير في هذا الأمر أن يتمّ إطلاق سراحي وأعود لممارسة حياتي بشكل طبيعي، ثمَّ سأقرّر حيال هذا العرض.

توماس سافر إلى ألمانيا لمراجعة الأرشيف الألماني في بعض الجامعات والمراكز البحثية، ومن ثمّ سيطير إلى أميركا ليقدِّم خطّته البحثية الأولى. اقترحت عليه الحصول على محاضر التحقيق مع جدّي في السجن الأميركي، أكَّد أنَّهُ اطَّلَع على بعضها، قبلَ سفرهِ بيومٍ واحد أثرتُ نقطة وصفَها بأنّها بالغة الأهمّية، قلت:

– كيف اكتشف الأميركان تطابق حمضي النووي مع الحمض النووي الخاصّ بجدّي، وفكرة الحمض النووي أُدرجت رسمياً في منتصف الخمسينيات، بينما جدّي حكمت ماتَ في بداية النصف الثاني من الأربعينيات!

هذه النقطة كانت بحاجة إلى بحث أعمق، صرتُ أشكُّ في كلِّ شيء.

لم يعلِّق توماس حينها لكنّه اكتفى بتدوين الملاحظة.

سمحوا لي بالنومِ في العيادة وأحياناً في خيمة كان يستخدمها الجنود للاستراحة، أو لممارسة الجنس الذي تمنعه قوانين الجيش الأميركي. كان توماس قد سمح لي أيضاً باستنساخ كلّ الرسائل التي حصل عليها من الأرشيف العراقي. كنتُ أبحث حقيقةً عن رابطٍ جعل صدّام يتذكَّر جدّي في تلك اللحظة التي جلَسَ يكتب فيها على مكتبي الصغير في العيادة. طلبتُ من الميجر في قيادة السجن أن أحصل على قائمة الكتب التي وجدوها في القصور الرئاسية، صُدِمَ بدايةً من طلبي، لكنَّ إلحاحي على الأمر ومحاولتي الدائمة شرحَ علاقة ذلك بظهور صدّام في العيادة بشارع السعدون ليلة سقوط التمثال، دفعَا الميجر إلى مساعدتي. فعَل ما يستطيع كما قال، وكما توقعت كان هناك كتابٌ يتحدَّث عن زيارات رشيد عالي الكيلاني إلى ألمانيا إبّان الحرب العالمية الثانية، لقاءاته مع أدولف هتلر وصورتهما الشهيرة التي يصافح فيها كلٌّ منهما الآخر بابتسامةٍ عريضة. صدّام كان مفتوناً بهتلر، وربّما في لحظة سقوط التمثال تلك، مرَّت صورة الرجل الذي أربك تاريخ أوروبا بعد أن حوَّلها إلى مستعمرات وحدائق خلفية لألمانيا في ذهنِه، صورةُ سقوطِه وغيابه الغامض، في تلك اللحظة لمع الكتابُ في خيالِه فحضرت مراسلات جدّي مع رئيس وزراء العراق

الذي فرَّ من بغداد قبل أن يعود ليُحاكَم بعد انتهاء الملكية بتهمة التآمر لإسقاط الحكم.

العبثُ يصنعُ أكثر من هذا! أتعبتني محاولة الوصول إلى فرضيةٍ لن تُستخلَص إلّا من الإجابة عن سؤال لا يستطيع أحد في الدنيا أن يجيب عنه سوى الرجل الذي كتب نصّ وسام الرافدين في عيادتي.

عاد توماس من رحلته محمَّلاً بكثيرٍ من الأوراق والأخبار، رسائل جديدة بين جدّي وعائلة آل سعود، رسائلُ أخرى تعودُ إلى بعض أصدقائه في الأردن ومصر، رسائل متنوّعة مع إمام اليمن أغلبها ذو طابع شخصي. السؤال الذي حاصرني أيضاً، لماذا لم يكتب حكمت باشا رسالةً واحدةً إلى ذويه وعائلته في سوريا؟ إلى أصدقائه هناك؟

لقد خلت كلّ المراسلات التي استنسختها من حقيبة توماس، بما فيها تلك التي كُتِبَت بالإنكليزية والألمانية، من أيّ مُرسَلٍ إليه في سوريا! وهذا يبرّر قلّة أخباره وندرتها في العائلة بينما كان في الخارجِ حاضراً في دوائر عدّة دون أن نعلم. تحليلي الذي قدَّمته لتوماس أنَّ طلب الطلاق أو الخُلع الذي تقدَّمت به جدّتي نجوى كان كفيلاً بإسقاط تلك الجغرافية من حسابات المكان في ذاكرة جدّي، أرادها منطقة هلامية فارغة في مخِّه لأنَّ الأمر هنا يرتبطُ مباشرةً بكرامته، لا بدَّ من أنَّهُ اعتبر طلب الطلاق جرحاً شخصياً وإهانةً ذاتية، وخاصّة بعدما تزوَّجَت جدّتي نجوى بصديقه!

حين تحدَّثتُ عن سوريا استلَّ توماس الرسالة التي وصلت إلى العائلة، لم تكن على شكل رسالة، لم نتعامل معها يوماً كرسالة، كانت بوحاً من نوعٍ مختلف تتحدّث عن طفلٍ وُلِد لأبٍ اختفى بينما كان القاتل هو الأب البيولوجي الحقيقي، بالإضافة إلى صورة جدّي التي طالما سكنت خيالي، أمسكتُ بالورقتين بأطراف أصابعي، كأنّي

لا أريد أن أختصر لمسها بكلِّ خلاياي مرّةً واحدة، إنّها الأثر الوحيد الذي يصلني من أهلي منذ عقدين من الزمان.

– يا إلهي... كيف حصلتَ عليها يا توماس؟ هل ذهبت إلى سوريا؟

– لا، كلَّفتُ سوريّاً مغترباً أن يتّصل بأستاذ جامعي في العاصمة ليحضر لنا هذه الأوراق، زار عائلتك فوجدَ الصندوق، دفعَ بعض المال وأخذه لأغراضٍ بحثية! بعد أن اشترطوا عليه أن يستنسخوا صورةً لجدِّك كي تبقى لديهم.

– بهذه البساطة؟

– نعم هذا ما حدث... يبدو أنَّه لا أحد يهتمّ، الحاضر أهمّ من التاريخ الآن في منطقتكم رغم أنَّ الناس يعيشون في الماضي، لكنَّ أولئك الذين يتذكَّرون سطوة قصّة ذلك الرجل في عائلتكم جلُّهُم قد ماتوا، ومَن بقيَ منهم لا يريد هذا العبء التاريخي!

– مع أنّنا أمّةٌ مسكونةٌ بالتاريخ.

– الدنيا تتغيّر يا عزيزي.

– هل جلَبتَ محاضر التحقيق؟

– نعم... ستُفاجأ حين تقرأها!

– لماذا؟

– أُفضِّل أن تكتشفَ ذلك بنفسِك، تابع توماس كلامه بكثير من الجدّية: بالمناسبة، تخمينك بالنسبة للحمض النووي كان صحيحاً، فبعد أن تُوفي جدُّكَ في المشفى المركزي الأميركي ببرلين، استأصلوا أعضاءه الحيوية وجمّدوها قبل إرسالها إلى بنك الأعضاء البشرية في أميركا بعد ذلك بأشهر، وحين أُدرِجت بيانات الحمض النووي رسمياً في السجلّات، رجعوا إلى كلّ الأعضاء المُجمَّدة لتحديد هويّات أصحابها.

– يعني ذلك أنَّ الجيش الأميركي الذي استأصلَ أعضاء جدّي الحيوية قبل ستين عاماً، بالتأكيد يفعل ذلك اليوم مع معتقلين آخرين في مكانٍ ما في العراق؟

بُهِتَ توماس من هذا الاستنتاج قبل أن يتدارك:

– لقد تغيَّر الزمان وتبدَّلَت الظروف...

ثمّ أنهى جملته بكلمة واحدة قالها كالرصاصة: «لا أعرف».

الحياةُ قائمةٌ على تسلسل المصادفات، وجودنا فيها وعبورنا إيّاها ربّما حدث مصادفة أيضاً، هل كلُّ هذا حلُمٌ سأفيق منه مع انبلاج الصباح، لأجد نفسي في عيادتي أنتظر أبو الكرم وهيثم لنتذكّر قهوة زياد؟

لكنَّ الصباح تأخَّر عن موعِدِه، والشمس التي اعتدتها في بغداد صارت شمساً أخرى. يربتُ توماس كتفي طالباً منّي اللحاق به إلى السيّارة، وما هي إلّا دقائق حتى كنّا نعبرُ بسيّارة الهامر – التي أكرهها – الطرقاتِ الرملية المرصوصة بين المعتقلات، أحاولُ أن أدقّق في الوجوه لعلّي أجدُ مَن أعرف، وحين أجدُ أحدهم يطيل النظر نحوي أُخفي وجهي بيدي كي لا يتعرَّف إليَّ أو يحفظ شكلي، فالوجود بشكل حرٍّ إلى جانب جندي أميركي في المقعد الأمامي للسيّارة يوحي بكثير من الأشياء في معتقلٍ قائمٍ على التعذيب اليومي باعتباره أسلوباً للتحقيق.

أسلاكٌ شائكةٌ ترتفعُ في كلِّ اتّجاه، أبراجُ مراقبةٍ لا ينامُ فيها الجندي، أضواءٌ لا تنطفئ ليلاً أو نهاراً، طوابير من المعتقلين بانتظار التحقيق وآخرون يصطفّون أمام علَبٍ خشبيّةٍ ممتدّةٍ بعضها بجانبِ بعض، مفتوحة من الأعلى ومسدودة ببابٍ صغير متحرِّك لقضاء الحاجة، في منتصفِ كلِّ علبةٍ يمتدُّ لوحٌ خشبيٌّ بشكل أفقي تتوسّطهُ فتحةٌ دائريّة، أدناها يقعُ نصفُ برميلٍ حديدي يجمع الفضلات.

كانت هذه البراميل مصدر رزقٍ لكثيرٍ من المعتقلين الذين عملوا يوميّاً في السُخرة لتنظيف أماكن قضاء الحاجة مقابلَ سجائر يوزِّعها الجنود عليهم بعد حمل البراميل باتّجاه صهاريج تأتي كلّ أربعةِ أيّامٍ مرّةً واحدة. قواطعُ معتقلات أخرى لم تكن تتوفَّرُ فيها «هذه الخصوصية» في عملية قضاء الحاجة، حيث نصبَ الجنودُ ساتراً من الأكياس يحيطُ بحفرةٍ واسعةٍ وضعوا فوقها لوحاً خشبياً سميكاً، توزَّعَت فيه فتحاتٌ بعضها بجانب بعض، بحيث يجلس سبعة أو ثمانية معتقلين – القُرفُصاء – معاً فوق اللوح لقضاء الحاجة، وإلّا فماذا يعني السجن؟

طوابيرُ ممتدّة أمام صنبور المياه الوحيد في كلّ قاطع، الماء يأتي ساعةً واحدةً يومياً فقط، يتزوَّدُ خلالها المعتقلون بالماء سواء للاستحمام أو الوضوء.

في جانبٍ آخر من خارج السلك الشائك تضخُّ سيّارات خاصّة – بنحو مفاجئ ولنصف ساعة فقط – عبر أنابيب مثبَّتة على لوحٍ خشبي مرتفع ماءً يَسقطُ من الأعلى للاستحمام. في تلك اللحظة التي يندفعُ فيها الماء ترى المعتقلين من كلِّ زاويةٍ يركضون لحجزِ مكانٍ لهم، حيث يدخلُ كثيرٌ منهم تحت الماء بثيابهم، رؤوس حليقة، أقدام حافية، أو لحىً طويلة – فقد صدر قرارٌ قبل أشهر بمنع شفرات الحلاقة بعد أن حاول معتقلٌ قتل آخر إثرَ خلافٍ على ثمن تبديل الجبن في الوجبة الصباحية مقابلِ السجائر. صورٌ هاربةٌ من فيلم سينمائي من الحرب العالمية الثانية. أحاوِلُ استعادةَ المكان في مخيِّلتي قبل الحرب فأفشل. كانت الجغرافيا فيه غير ثابتةٍ والواقعُ متحرّكاً متسارعاً نحو هاوية ستطيحُ الجميع.

كانت قواطع المعتقلات قد صارت خلفنا حين انحرفت السيّارة يميناً نحو بوّابةٍ ارتفعَ عمودها المنصِّفُ نحو الأعلى. ما إن

اقترب توماس منها حتى أصبحنا في عالمٍ آخر: مسابحُ، ملاعبُ للكرة الطائرة وأخرى لكرة السلّة، المجنَّدات يتحرَّكنَ بملابس قصيرة والجنودُ عراة الصدر يتلذّذون بشيّ اللحم بينما الموسيقى تصدحُ من كلّ اتّجاه. إنّه مكان السكن الخاصّ بالجنود. يبدأ توماس بإلقاء التحيّات يميناً ويساراً بينما أسير بجانبه مستَلَباً تماماً بعد أن أوقف السيّارةَ. مشينا ما يقارب 100 متر قبل أن ندخل خيمة واسعة مكيَّفة اصطفّت فيها الأسرّةُ بعضها بجانبِ بعض، يفصل بين كلّ سرير وآخر خزانةٌ حديدية أو من القماش المقوّى. تبِعتُ توماس حتى سريره فطلب منّي الجلوس وذهب، بدأتُ تأمُّل المكان، هناك جندي نائم وثانٍ يقرأ وثالث يلعب لعبة إلكترونية نظر إليَّ برهةً ثمّ عاد إلى انشغاله غير مكترثٍ بوجودي. لكلٍّ منهم حكايةٌ عن هذه الحرب، دائماً للحرب حكايات مختلفة بحسب اتّجاه الوقوف من نتيجتها، النصرُ فيها ممزوجٌ بالخوفِ من زوالِه، والخسارةُ فيها مجبولةٌ بالهوان، معادلةٌ يقطعُ تفكيري فيها صوت توماس وهو يقدِّم لي علبةَ بيرةٍ من نوع «هاينيكن» إلى جانب سيجارة كنتُ في أمسِّ الحاجةِ إليها.

– هنا أنام... قال توماس.

– مكان جيد، أفضل من قواطع السجن.

يرسم ابتسامة على وجهه قبل أن ينهض ليفتح الخزانة الحديدية بجانب السرير كاشفاً عن الأوراق الخاصّة بالتحقيق مع جدّي. لاحظتُ وجودَ صوَرٍ معلَّقة داخل الخزانة، انتبه توماس إلى أنّي أنظر إليها فسحبها من مكانها وبدأ يعرِّفني إلى دائرته من الأصدقاء والعائلة، وقال:

– لا شكَّ في أنّك تفتقد الأصدقاء.

أضفت:

– والعائلة.

بدأ الوقتُ يمرُّ ثقيلاً في المكان حين لاحظ توماس إمساكي بـأوراق جـدّي محاولاً السيطرة على الشغف الـذي تملَّكني لفتحها وقراءة محتواها، فعرَضَ عليَّ المغادرة.

كلّ ما كنت أنتظره كان صدفةً تُغيِّرُ مجرى الحكاية، حدثٌ يدفعني للصحو من هذا الكابوس الطويل. حملتُ الأوراق بين أصابع يدي اليمنى، وفي اليسرى رحتُ أشرب من علبة البيرة وأنا أخطو بين أسرّةِ الجنود بينما تقدَّمني توماس، وما هي إلّا ثوانٍ حتى توقَّفتُ مكاني، تسمَّرتُ فوق الأرض، عدتُ خطوةً إلى الخلف، وأدرت رأسي نحو اليسار، لم يتملّكني السُكرُ بعد، ما زلت أستطيع التمييز. قلت بصوتٍ عالٍ وأنا أُقرِّبُ رأسي من باب إحدى الخزائن الحديدية التي أُلصِقَت عليها بعض الصور والأوراق:

– إنّي أعرفُ هذا الطفل... صرختُ نحو توماس الذي سبقني ثمّ عاد.

– ماذا تقصد؟

– إنّـي أعـرف هـذا الطفل، هـذه الملامح أحفظها تماماً، مَن صاحبُ هذه الخزانة؟

– لا أعـرف... وسأل أحـد الموجودين في المكان فقال إنّها خزانة عزرا.

– هل هو من العراق؟

– لا، قال توماس ثمّ أضاف أنّه جنديٌّ أميركي في المارينز... ثمّ مشى أمامي طالباً منّي اتِّباعه.

ظللتُ أيّاماً بعدها أحاول استجلاب أصل الصورة من ذاكرتي، لا يمكن أن تكون تلك الملامحُ مصادفة في جسد آخر، يؤمنُ العربُ بأنّ الدمَ في القبيلةِ الواحدةِ يؤدّي إلى نفس الملامح وذات التقاطيع. فشلتُ في استحضار الأصل، وكأنّني فاقدٌ لشيء ما أبحثُ عنه في نهرٍ

جارٍ يسير مسرعاً نحو شلّال يهبِطُ في بحيرة واسعة عميقة. الذاكرةُ التي أتعامل معها يومياً كانت خبزي للنجاة، وهكذا مرَّت أربعة أيّامٍ كاملةٍ حتى آمنتُ بالكفِّ عن مطاردةِ الفكرة لاستجلاب وهم الأصل، وحين أهملتها نهضَت من زاويةٍ بعيدة عميقة، كانت تلك الملامحُ في مخيِّلتي تعود إلى صورةٍ حزقيل بن شمعون الذي تربّى في بيت والد أبو الكرم ببغداد.

البلاط الملكي

الديوان

بغداد فى ٣ حزيران

الرقم /ط/٤٥٠

سعادةُ المحترم حكمت باشا

السلام عليكم ورحمة الله

أمرنى صاحب العظمة أن أخبِركَ عبر رسالة جلالته هذه أنّه تمَّ تحويل النماذج والصور التى أرسلتها لديوان جلالته حول البنادق قصيرة الذراع إلى وزارة الدفاع لبيان الرأى فيها، كما أننا ننتظر منك إرسال نماذج أخرى من الخرطوش الجديد على سبيل التجربة

سكرتير صاحب الجلالة

وزارة الدفاع

بغداد

التاريخ ٣٠ حزيران

رقم

حضرةُ الأخ حكمت باشا المحترم

السلام عليكم ورحمة الله

،لقد تلقيت كتابك الموجَّه إلى ديوان صاحب الجلالة متضمناً النماذج التي أرسلتها
وقد أخذتُ محتواها إلى دوائر الجيش المختصة للنظر فيها، وأُعلِمُكم أنَّهُ للأسف
بأنَّ الجيش العراقي لايحتاجُ – في الوقت الحالي – إلى شيء من التجهيزات والمعدات
.المذكورة في كتابك

تفضل بقبول التقدير

عن وكيل وزير الدفاع

الفصل الثاني عشر

حين أخبرتُ توماس بضرورة تبليغ عزرا أنَّ صورة الطفل تشبِه عراقياً اسمه حزقيل، استصعب نطق الاسم فكتبه على ورقة كي لا ينساه تحت إلحاحي غير المفهوم من طرفه. مرَّ يومان قبل أن يحضر عزرا إلى العيادة، وما إن دخل حتى أشار لي بضرورة الخروج أو البحث عن مكانٍ لا يسمعنا فيه أحد، عرفتُ لحظتها أنَّ رسالتي وصلت إليه.

لا أعرفُ لماذا أُدخِلُ نفسي في كلّ هذه الدوّامات، بينما يمكنني تجاوزها والنجاة، ربّما هو الحنين إلى بغداد التي عرفتها، إلى ذلك الزمن الذي كانت أقصى أحلامي فيه أن يمرّ سريعاً إلى المستقبل من شدّة قسوته، ها هو المستقبل قد صار حاضراً وأريد في ذات الوقت أن أهرب منه إلى مستقبلٍ آخر أو إلى ماضٍ أقلَّ قسوةً وموتاً.

قبل أيِّ شيء آخر، قال عزرا مباشرةً:

– هل تعرف والدي؟

– هل حزقيل بن شمعون والدك؟

– نعم، أجاب باقتضاب، ثمّ كرّر سؤاله.

– لا أعرفه مباشرة، لقد غادر قبل أن أولَد حتى، لكنّي رأيت عدّة صور فوتوغرافية يظهر فيها والدك، إنَّ ذلك الطفل الذي عُلِّقت

صورته على الخزانة ما هو إلّا نسخة طبق الأصل عن جدّه... لا يحتاج الأمر إلى كثيرٍ من الفراسة والنباهة لاكتشاف ذلك.

– ماذا تعرف عن والدي؟

– ليس قبل أن تُخبرني من تكون؟

– ألا ترى حولك؟ افتح عينيك جيداً وستعرف.

– نعم أعـرف أنّـك جـنـديٌّ مـن قـوّات المارينز ضمن جيش التحالف... أقصد من أنت إنسانياً؟

بدا السؤال مربكاً، أمام بدء تسلّل الغضب إلى عزرا، فعاجلته بسؤال آخر:

– أين وُلدت يا عزرا؟

– في عكّا بإسرائيل.

– تقصد فلسطين؟

– لا لا، أقصد إسرائيل، عكّا مدينة ساحلية في إسرائيل.

– هل سألتَ سورها عن أهلها؟ هل رأيتَ القبور في تاريخها؟

– لستُ هنا لتأصيل المكان في ساحل المتوسّط! أريـد أن أعرف ما تعرفه عن أبي، وفقط.

هـدأ الجنديُّ قليلاً حين شعر بإدراكي للضفّتين التي يقف كلٌّ منّا فيها، لا ذنب له في ما حدَث، لقد وُلِد هناك، فصار العالمُ أمامه بين ثنائيَّتي «هنا وهناك» وكلّ ما يربطه بهناك هو حبلٌ سريٌّ خاصٌّ بالولادة، كان يمكن أن يتغيَّر لو يمَّم الوالدُ وجهه شطر بلادٍ أخرى، وربّما كان من الممكن أن يكون في الضفّة التي أقف فيها لو بقيَ والده في بغداد سنوات أخرى. في نهاية المطاف كان كلٌّ منّا يحمل فردوسه الأعلى في ذهنيته، وسلاحهُ بين أصابعه جاهز للدفاع عن ذلك الفردوس الذي تراكَمَ في الذاكرةِ حتى صار جزءاً حقيقياً من ملامحِ كلٍّ منّا.

قصصت عليه ما أعرف عن أبيه ونشأته في عائلة أبو الكرم، ظهر عليه التفاجؤ، أخذ منّي عنوان البيت كاملاً، اسم أبو الكرم وآخِر مكانٍ شاهدتُهُ فيه، بدا أنّه يسعى لإغلاقِ دائرةٍ غير مكتملة من القصّة، فسألته عن الجانب الآخر من حكايته بعينَيْ أبيه، كأنّه كان ينتظر سؤالاً مثل هذا من أحد ما يقف في الضفّة التي أقف فيها أمامه، فقال:

– وُلدت في عكّا، في بيتِ مهاجرٍ عراقيٍّ من المزراحيين، بيتٌ في مستوطنةٍ قريبةٍ من البحر، كان والدي مولعاً بكلّ شيءٍ له علاقة بالعراق، لكنَّهُ كان يذكر ذلك بمرارة كبيرة، ظلَّ يذكِّرنا حتى ليلة موتِهِ بعدم التخلّي عن إرثنا هنا.

انتبهتُ حينها إلى أنّي لا أعرف شيئاً عن عائلة حزقيل، والد أبو الكرم كان يتجنَّبُ الحديث عنهم، يكتفي بالقول إنَّ حزقيل ابن صديقه شمعون، وما فعله تجاهه كان ردّاً لدَين صديق في عنقِهِ لا يعلم أحد عنه شيئاً، حتى إنَّه ظلَّ متأكداً –حتى وفاتِه– من أنَّ حزقيل مختفٍ قسرياً في سجنٍ عراقي، لقد نفى في عقله الباطن أو أنَّه لم يُرِد أن يصدِّق الواقعَ الذي يقول بأنَّ الشابّ ذهب إلى فلسطين التي لا يستطيعُ هو الوصولَ إليها!

سألتُ عزرا:

– ما الإرث الذي تتحدّث عنه؟ لقد نشأ والدك في ظلّ عائلة فلسطينية ببغداد منذ أن كان في العاشرة حتى صار في العشرين.

– لم يقل هذا، لقد أخبرنا أنَّه دخل السجن في بغداد أكثر من مرّة حتى استطاع الهروب والحياة في الجنوب باسم جديد وهويّة مستعارة، قبل أن يدخل إلى الأردن في رحلة شاقّةٍ على جملٍ مع بداية الخمسينيات، ومنها عبر وسطاء من الوكالة اليهودية طارَ بجواز سفر مزوَّر إلى قبرص ثمّ رجع عبر البحر من نيقوسيا إلى ميناء يافا.

لقد ظلَّ يردّد أسماء الميِّتين من العائلة وأماكن قبورهم في منطقة النهضة ببغداد، آمراً إيّانا بإحياء الذكرى أو نقلها لأحفاده إن لم نستطع للقدوم سبيلاً.

– أعتقِدُ أنَّ مقبرة النهضة أُلغِيَت منذ زمن بعيد، وأظنّ – لكنّي غير متأكِّد – من أنّهم نقلوا جميع الرفات إلى مقبرةٍ جديدة في الحبيبية بالرصافة حيث تقعُ الآن المقبرة اليهودية، لكن ما هو الإرث الذي تتحدَّث عنه غير العظام تحت الأرض، لقد كان والدك مُعدَماً تماماً، لولا العائلة الفلسطينية لمات من الجوع في شوارع بغداد.

– إرث جدّي شمعون، كان تاجرَ حريرٍ وخيوط، يدير ورشة للخياطة في سوق دانيال بالقرب من شارع المصارف، أمّا البيت الذي وُلِد فيه والدي حزقيل فيتألّف من طابقين بشارع النهر بين دجلة وشارع الرشيد، لطالما رسم الوالد خطَّ سيرِه اليومي برفقة جدّي بين البيت والعمل وصولاً إلى شارع الكفاح والشورجة، كان مغرماً بهذه المنطقة، يجمعُ صورها من أيّ مجلّةٍ أو صحيفةٍ تقعُ في يده.

– وأنت قادمٌ الآن لتستعيد ما كان؟

– ليس بالضبط، فما كان قد ذهبَ وإلى الأبد في الفرهود، ما أريدُهُ هو إحياء الذكرى وتعويض ماديّ.

– ومَن يُعوِّضُ عائلةَ أبو الكرم كلَّها عن فلسطين؟

– هذا أمر وهذا أمر، أنت تخلط بين الأشياء.

– أخلط؟ ربّما، فما التاريخ إلّا سلسلة الأخطاء التي تحدثُ كلَّ يوم فتصيرُ بالفعل التراكمي ماضياً يؤسّس لحاضرٍ ومستقبل.

تفسيرُ النتيجةِ دائماً يقعُ في الخانةِ الأسهل حين تكونُ المُعطَياتُ التي يملكُها كلُّ طرفٍ واضحة، مع أنَّ النتائجَ – رغمَ أنّها صارت واقعاً – فإنَّ فهم الأسبابِ التي أدَّت إليها يختلفُ أيضاً بين ضفةٍ وأخرى. لقد تغيَّرَ ميزان اللعب، أو في الحقيقة لم يكن هناك

ميزانٌ للَّعِبِ يوماً، الحياةُ مثل مضمارٍ تتسابقُ فيه الأمم ليأكل بعضها بعضاً ولكلٍّ – في ضفَّتِهِ – أسبابه الواضحة والمشروعة في ذلك.

سجينٌ مأسور لجرمٍ يتعلّق بلقاء لساعات مع صدّام، وعسكري يلبس بدلة المارينز، نتحدّث عن أرضٍ تسكنُ كلَّ واحدٍ فينا مدعومةً بنصٍّ مُقدَّس والأسئلةُ تعود إلى محاصرتي من جديد: لماذا لم يقُل حزقيل لأولاده إنَّ العائلة الفلسطينية هي التي وضعته بين أبنائها في بغداد فضاع بينهم عن أعيُن الحكومة وفاتَهُ قطار الترحيل القسري؟ هل حداثةُ عهدِ والد أبو الكرم في بغداد هي التي جعلت من ذوبانِ الولدِ في العائلة أمراً سهلاً لا يحتاجُ إلى كثيرٍ من التعقيد؟ كيف عرف حزقيل طريق الوكالة اليهودية للهرب من بغداد؟ أو كيف عرفوا هم الطريق إليه؟ هو الذي لم يرِد اسمه في قوائم اليهود الباقين في العراق؟ علامَ اخترع قصّة إقامته في البصرة قبل الرحيل الأخير؟

الأسئلةُ كلّها واضحة في رأسي والأجوبة التي لا يمتلكها إلّا الأمواتُ كلُّها عمياء.

بعد أيّام عادَ عزرا حاملاً معه الصور التي حدَّثته عنها بعد أن نظَّمَ مداهمة لبيت عائلة أبو الكرم. لقد مات كلُّ الشهود الأحياء الذين يُثبِتون أنَّ والده ظلَّ في العراق عشر سنوات بعد أحداث حزيران. مات كلُّ الشهود – من الضفَّتين – الذين يعرفون حقيقة ما حدث، ولم تظلّ إلّا هذه الصور التي سطا عليها من ذاكرة الفلسطيني في شتاتِهِ ليستخدمها – كما علمتُ مصادفةً بعد ذلك بعامين – دليلاً لإثبات الملكية بحكم الوجود في بغداد حين رفعَ قضيّةً في محكمة بمانهاتن الأميركية على الحكومة العراقية للمطالبة بتعويض مادّي عمّا حلَّ بعائلته في الفرهود.

الفصل الثالث عشر

ألمانيا– برلين– مطار تمبلهوف

المركز الأميركي العامّ في برلين

ديسمبر 1945

حتى الأول من سبتمبر عام 1946

بدأ هذا التحقيق في تمام الساعة العاشرة صباحاً من يوم الخامس من ديسمبر في برلين:

– اسمك.

– حكمت العمر.

– جنسيتك؟

– تركي، أوراق عثمانية، أحمل الجنسية الألمانية.

– طولُك؟

– 165 سم.

– اللغات التي تتحدّثها؟

– العربية – العثمانية – الألمانية – الإنكليزية – وقليل من الفرنسية.

– أين اعتُقلت؟

– من البيت في ميونيخ شتراسا رقم 15.

– ماذا كنت تعمل في حياتِك؟

– أداوي الناس اعتماداً على الطبّ الشعبي!

– وماذا؟

– سمسار صفقات سلاح مع البلاد العربية.

– وماذا؟

– وسيط بيع أراضٍ في فلسطين لشركة تطوير أراضي فلسطين.

– وماذا؟

– ناشط في المجمَّعات الثقافية الإسلامية.

– وماذا؟

– تاجرُ مفروشات مستعملة.

– وماذا؟

– هذا كلّ شيء.

– ما علاقتك بالحزب القومي الألماني؟

– لست عضواً فيه.

– هناك أوراق تفيد بوجود تقارير بشخصيات عربية وتركية مرفوعة منك لمكتب العلاقات الخارجية في الحزب النازي، ما قولك فيها؟

– نعم كتبتها ضمن ظروف معيَّنة لتمرير بعض المصالح الخاصّة التي تتعلّق بصفقات السلاح وتجارتي في ألمانيا، ولتقوية مركزي الاجتماعي.

– ما سبب بتر يدك؟

– كنتُ ضابطاً عثمانياً، أُصِبتُ في مصر فنُقلت إلى القدس ثمّ ألمانيا حيث أقيم منذ ثلاثة عقود حتى اعتُقلت لديكم.

– وجدنا أمر صرف مالي صادراً من الحكومة التركية لك في بيتك مسحوباً على بنك ألمانيا، ما سبب هذا المبلغ؟

– صفقة تجارية أبرمتها في فيينا وبلاد البلقان لصالح الحكومة التركية تتعلّق ببعض المخطوطات والوثائق العثمانية.

– هل لديك أيّ اتّصال مع الجيش الأحمر في روسيا؟

– قطعاً.

– ما قولك بالتهمة الموجَّهةِ إليك في التستّر وإيواء مجموعة من ضبّاط الجيش النازي؟

– أنفيها تماماً.

– لكنَّك التقيت بهم مراراً، زاروك في بيتِك خلال الحرب.

– صحيح، زاروني لأسباب تتعلق بحسابات مالية كان يجب إتمامها.

– ما هي هذه الحسابات؟

– عمولات مالية نتيجة صفقات أتممتها لصالح الحكومة الألمانية، كانوا يفرضون إتاواتٍ عليَّ لتمرير الاتّفاقيات التجارية.

– هل لكَ أن تحدِّد لنا الوجهة التي ذهبَ إليها بعضهُم؟

– سمعتهم يتحدّثون عن وجهات مختلفة، أميركا اللاتينية، أفريقيا، الدول العربية، تركيا، إيران، لا أستطيع التحديد.

– هل ساعدت أحدهم؟

– لا.

– هل التقيت بهتلر؟

– نعم مرّتين، الأولى كنتُ برفقة الشيخ أمين الحسيني الفلسطيني، والثانية خلال زيارة رئيس الوزراء العراقي رشيد عالي الكيلاني لألمانيا.

– ما علاقتك بالكيلاني؟

– التقيته عدّة مرّات وهناك مراسلات بيننا.

– هل كان لك دور في تهريب الكيلاني من تركيا إلى ألمانيا؟

– قبل عدّة أعوام طُرحت فكرة إحضار الكيلاني إلى برلين، أراده الألمان ورقة ضغط إضافية على الحلفاء، وقد كان الكيلاني مختفياً في اسطنبول بعد وصوله إليها هارباً عبر الطريق البرّي من إيران كما قيل لي، رتَّبتُ عن طريق بعض الضبّاط السابقين في الجيش العثماني وصول فرقة موسيقيّةٍ ألمانيّة إلى تركيا، وفي اسطنبول انضمّ الكيلاني إليهم بجواز سفر ألماني وخلال أسبوع كانوا في طريق عودتهم إلى برلين بعد أن أُصيبَ العضو الجديد في الوفد بأزمة صحّية استدعت عودة الوفد سريعاً إلى ألمانيا!

– يعني انضمّ الكيلاني إلى الوفد الموسيقي بصفته عضواً فيه؟

– تماماً، انضمّ إلى الوفد هناك.

– ألم يكتشف الأتراك ذلك؟

– لقد دخل الوفد من منفذ حدودي وسافر من منفذ آخر، فقد تمّ ترتيب الأمر من برلين بإصدار بيانين للسفر، الأول دون اسم العضو الجديد ويُستخدم للدخول والثاني يضمّ العضو الجديد ويُستخدم للخروج، وقد تولّى معارفي ختم البيانين معاً.

– ما علاقتك بالأتراك؟

– كنت أقبض راتبَ تقاعدي من السفارة باعتباري ضابطاً في الجيش العثماني.

– هل لكَ أيّ علاقات بمنظّمات بريطانية أو موجودة في بريطانيا؟

– بشكل مباشر لا، لكن كانت هناك مراسلات عن طريق بعض الأطراف، فقد طلب منّي تجّار إنكليز قالوا إنّهم غير مرتبطين

بالحكومة، أن أُرتِّبَ صفقة انتقال 400 هكتار من أراضٍ فلسطينية في منطقة الجليل ومثلها في وادي الحوارث لأملاك تجّار أوروبيين.

– وماذا بخصوص نشاطك في العراق؟

– عملت بتوجيه من عملاء الإنكليز أيضاً على تهيئة الوضع العراقي لحدوث الفرهود يوم 1 و2 حزيران عام 1941.

– هل كنتَ وحدك الذي طرح فكرة استهداف اليهود في بغداد مع العراقيين؟

– هذه الأمور، كما تعلمون، لا تتمّ في العلن، كلٌّ يؤدّي دوره المرسوم فيها دون زيادة أو نقصان، ودون أن يعرف من يسبقه أو يتأخّر عنه خطوة في العملية.

– كيف تمَّ الأمر؟

– كان الهدفُ هو التجييش ضدّ اليهود في العراق، أراد أحدٌ ما في بريطانيا أن يحدث ما حدث لتبرير التدخل الإنكليزي العسكري بعد أن فقَدَ الملكُ الصغيرُ القدرةَ على ضبطِ الأمور في البلاد، وقد صادفَ أنَّ الجيش العراقي قد بدأ يخسر معاركه مع تراجع النفوذ الألماني. كلّ هذا، مع الاشتغال على الوضع الاجتماعي الداخلي، دفعَ إلى حدوث الفرهود. كذلك عمِلَ أحدٌ ما في برلين عن طريق الشيخ أمين الحسيني على التجييش ضدّ اليهود العراقيين.

– أي إنّك تقول إنّ استهداف اليهود في العراق كان هدفاً ألمانياً وبريطانياً في آنٍ واحد؟

– أقول إنَّ أحداً ما في برلين وبريطانيا أراد حدوث ذلك، رغم التنافس العسكري بين البلدين.

– ما علاقتَك بملك مصر؟

– انحصرت العلاقة بالبلاط من خلال بعض حاشيته خلال زيارته لأوروبا. لم أستطع فتح قنوات اتّصال مباشرة معه، فكَّرتُ

مراراً في فتح باب للعلاقات المصرية الألمانية، لكنَّ البلاط الملكي في مصر كان متذبذباً بين الألمان والإنكليز، كنتُ بين الوقت والآخر أذهب إلى الجنوب الفرنسي فأرسِل إلى قصر عابدين طرداً من أفخر أنواع النبيذ الفرنسي.

– هل حدثت اتّصالات بينك وبين عائلة الحسين بن علي؟

– الحسين شخص انتهازي بلا مبدأ، أشفقت على نفسي أن يُذكَرَ اسمي إلى جانبه في رسالةٍ واحدة.

– لماذا؟

– أسباب كثيرة، أبرزُها أنّه لا يستحق القيادة، كان أصغر من أن يقود العرب مع أبنائه، لقد طعنَ جيش الخلافة في الظهر.

– لكنَّكَ فعلت كثيراً من الأشياء التي تنتقده عليها؟

– نعم، لكنّي سمسار وصائد حظّ، لست قائداً، ولم أدَّعِ ذلك. أنا هنا لا أقيِّمهُ وإنَّما أصف سلوكه، لقد ارتمى في حضن الألمان ثمّ انتقل إلى حضن الإنكليز قبل أن يخدعه مكماهون.

– هل ذهبتَ إلى المغرب؟

– نعم، مرّة واحدة إلى الصويرة بتكليف من صديق إنكليزي التقيته في الأردن.

– لماذا ذهبت؟

– لإقناع اليهود بالهجرة إلى الأراضي التي اشتريتها لصالح شركة تطوير أراضي فلسطين، وحين فشِلت مع بعضهم أسهمتُ مع آخرين بتأسيس المركز الثقافي للشباب اليهود.

– كيف يمكنك تبرير علاقتك بالإنكليز وبالألمان في ذات الوقت كلّ هذه السنوات؟

– لم أفكّر يوماً في تقديم تبرير، هكذا الحياة سارت وهكذا الأقدار وضعتني في طرقاتٍ بعضها متقاطع وكثير منها متعارض.

– هل أنت ضدّ السامية؟

– حين أجلس مع أعضاء الحزب الحاكم في ألمانيا أكون كذلك.

– وحين تكون بعيداً عنهم؟

– أعتبرهم أبناء عمّ.

– ألم يكتشف الألمان علاقتك بالإنكليز؟

– لم يحدث ذلك، لا أعلم في الحقيقة، ربّما اكتشفوا لكنّهم غضّوا الطرف ما دمتُ أبيع السلاح الذي ينتجونه. وفي التوصيف الدقيق لا علاقةَ مباشرة بيني وبين الإنكليز؛ دائماً ما يتمّ الأمر أو أيّ اتّصال عبر وسيط.

– لماذا لم تتّصل بنا؟

– لم أفكّر أنّكم مهتمّون بالاتّصال، وبصورة أدق لم أتوقع أن تخسر ألمانيا الحرب هكذا.

عند كلِّ سؤالٍ كنت أفتحُ عينيَّ على اتّساعهما، هناك تركيبةٌ غريبة في هذا الشخص، كائنٌ يحملُ في داخله مجموعة أفراد، عدد الأوراق يصل إلى 800 صفحة بين يديّ مطبوعة بأحرفٍ على الآلة الكاتبة وكثيرٌ من حروفها ضاعَ – كما أغلب التاريخ – في عملية النسخ، فقد استمرَّت جلسات التحقيق معه يوميّاً منذ لحظة اعتقاله حتى وفاته في المشفى العسكري نتيجة الفشل الكلوي، كما تشير ملاحظةٌ مكتوبةٌ بخطِّ اليد إلى تاريخ وفاتِه مساء الأول من سبتمبر عام 1946، صرتُ على يقين بأنّي لن أُكمِل تسعةَ شهور في سجن كروبر، جدّي الأول لم يكمل تسعة شهور في السجن الأميركي العامّ بتيمبلهوف، هناك تفاصيل من حياتِهِ تكرّرت في حياتي دون أن أشعر، التاريخُ يعيد نفسه بشخصيات متعدّدة في أزمان وأماكن مختلفة.

أقول لتوماس في اليوم التالي:

– فهمُ التاريخ والتعامل معه يختلف بحسب زاوية الناظر.

دخلتُ في نوبةِ اكتئاب حادّ، عدتُ فيها إلى القاطع مع السجناء بعد أن سافر توماس إلى أميركا لإتمام البحث هناك. لم أعد أرغب في الخروج إلى العيادة، أنا سجين وعليَّ ألّا أخرجَ من هذا اللباس أبداً حتى أنال حريَّتي، الحريّةُ الكاذبةُ التي شعرتُ بامتلاكها من خلال تميُّزي عن باقي السجناء كانت وهمّية، صرتُ أَقِفُ في طابور الطعام ثلاث مرّاتٍ في اليوم لأخذ التفقُّد وإثبات وجودي كرقمٍ داخل السياج، أكتفي بكوبٍ من الشاي المحلّى كثيراً والسجائر الأربع التي يعطونها للمعتقلين، صحنٌ من الأرز مع بعض المرقة غير المعروف محتوياتها بالضبط، هذا الطعام اليومي سبَّب أمراضاً لكثيرين، صرتُ من جديد جزءاً من المكان، أنتظر فراغ علبةٍ خشبية لقضاء الحاجة، وأراقبُ بانتظار المفترِس قدومَ الماء.

إنَّهُ الثاني من ديسمبر وقد صار لي في المعتقل مئتان وثمانية وستون يوماً، السماءُ ملبَّدة بالغيوم في بغداد، البردُ بدأ يهجمُ على المكان، وسيّارات الصليب الأحمر الدولي صارت تأتي دوريّاً إلى المعتقل كي تسلِّمَ رسائلَ من ذوي المعتقلين لأبنائهم وتأخذ رسائلَ من الأبناء إلى الأهل، كانت هذه الرسائل «الصادرة والواردة» تخضع لرقابةٍ صارمة، وكنتُ لا أنتظر شيئاً سوى أن يمرّ الوقت، ليس للسجين الغريبِ مَن يُراسِلُه.

ظننتُ أنّي دخلتُ في نفقِ النسيان حتى أتى صباحُ الثاني من ديسمبر من عام 2003 حيث صرخَ الحارسُ على رقمي مع أرقامٍ أخرى، ركبتُ مُقيَّدَ اليدين في السيّارة العسكرية نحو قيادة السجن.

كانت محكمة عسكرية يترأسها الميجر قائد سجن كروبر بانتظاري، جلس عن يمينه ويساره ضابطان وبيننا مترجمٌ يبدو أنَّه قادمٌ حديثاً من بلدٍ عربي، وعلى يسار الغرفة امرأة تبدو في منتصف الأربعينات، وراءهم جميعاً امتدَّ العلم الأميركي على طول الخيمة.

جلستُ على كرسيٍّ صغير، أنتعل حذاءً بلاستيكياً أخضر بإصبعٍ واحدٍ وأفرول أزرق اللون بينما وضعتُ على كتفي منشفة بنّية صغيرة. أوراقٌ كثيرةٌ على الطاولة بيني وبين الضبّاط، أكياسٌ شفّافةٌ تضمُّ أشيائي الصغيرة تبدو أمامي الآن، لقد مرَّ وقتٌ طويل لم أرها، ملاحظاتٌ كثيرةٌ مزروعة بلصاقات ورقية على الكراتين، هذه المرّة لا تحقيق، لا أسئلة، كنتُ منهاراً تماماً، لا شيء يعني لي أبداً.

نطق الميجر:

– دكتور علي، تقرّر الإفراج عنك.

هززتُ رأسي. حتى الحرّية لم تعد تعني شيئاً...

سمحوا لي بالذهاب مرّةً أخيرة إلى القاطع بعد أن طلبتُ إحضار الأوراق التي استنسختها من توماس، فحمَّلتُ أرقامَ هواتف وعناوين كثيرة لمعتقلين لم تصل رسائلهم عبر الصليب الأحمر نتيجة انتقال ذويهم من مكانٍ إلى آخر بعد شيوعِ حوادث القتل والاختطاف أو العَلس كما يسمّيها العراقيون، كنتُ الأمل عندهم للاتّصال بأهلهم. وحين أعادوني إلى الخيمة الكبيرة قبل الإفراج، وجدتُ الأشياء التي صودرت من عيادتي باستثناء الأدوات الطبّية التي عليها آثار الرئيس العراقي، تركوا كلَّ شيء بما فيها الورقة المكتوب عليها وسام الرافدين، رزمة المال، والسيجار الذي أعطيته لمتسوِّل في شارع السعدون لحظة وصولي إليه في مساء اليوم ذاته، علّاقة المفاتيح، الولّاعةُ التي تحتاج إلى جهد كي تعمل.

خرجتُ من كروبر بسيّارة أميركية مدنية أنزلتني في ساحة العلاوي بالقرب من دورية عسكرية أميركية أخرى، تذكَّرتُ كثيراً من المعتقلين العراقيين الذين وُجِّهَت لهم تهمة النظر بازدراءٍ وغضب إلى القوّات الأميركية في الشارع، فقضوا بسبب ذلك أشهراً قيد الاعتقال.

ما إن هبطتُ من السيّارة، حتى أوقفت سيّارة تكسي وطلبتُ من السائق بعد أن رميتُ نفسي على المقعد بجوارِه أن يوصلني إلى شارع السعدون. كانت بغداد في عينيّ لا تشبه ذاتها، لا تشبه ذاكرتي عنها ولا ذاكرتها عنّي، مدينةٌ لبِسَت قناعاً آخر استعارتهُ من زمنٍ بعيد أو استجلبتهُ من مستقبلٍ لا يقلُّ قسوةً عن تاريخها، وكأنَّ الوجوه عندها جاهزةٌ للاستبدال في أيِّ لحظة.

سألني سائق التاكسي عن سبب حزني الظاهر، قلتُ إنّها حالة وفاة.

ذلك الموتُ الذي عشَّشَ في مخيِّلتي وحاصرني طيلة الأشهر الماضية، لا لشيء ارتكبته، فقط لأنّ الأقدار ساقتني في التوقيت الخاطئ للبقاء في مكانٍ ما كان يجب أن أكون فيه. شجنٌ عراقي ينطلقُ من المذياع فيعيدُ تكوين المدينة أمامي.

وصلتُ إلى شارع السعدون، الحياةُ تسيرُ كما كانت بكثير من الحذر وبقليل من الأمن، الخوف صار يسكن الطرقات والبشر، تحيّاتٌ من كلّ مكان. هذا الغائبُ قد عاد، يتهامس الناس في ما بينهم، أسمع عباراتٍ تنطلق وأنا أهمُّ بالعبور إلى بناية سميراميس، «إنَّهُ شخصٌ آخر غير الذي كانه»، أدخل إلى عيادتي، الغبار في كلّ مكان، النبتةُ الوحيدةُ ماتت من قهر الغياب، دخلتُ بثيابي تحت الماء، أريدُ أن أغسِلَ ما علِقَ فيَّ من ذاكرة الألم.

في اليوم التالي حاولتُ أن أستعيد توازني، خرجتُ إلى السوق، اشتريت هاتفاً وشريحة اتّصال، جلستُ في مقهى النصر، طلبتُ شاياً أحمر، وبدأتُ أطلب الأرقام المكتوبة أمامي على ورقة، خمسون رقماً أو أكثر، جلُّهُم كان أهلهم يعتقدون بموتِهِم، لقد عاد أملُ الحياةِ إلى أكثر من ثلاثين بيتاً، بدوتُ راضياً عن نفسي، الفرحُ في أصوات الآخرين يمنحُ الأحياءَ أملاً بأنَّ الموتَ بعيد، اتَّصلت بالسفارة

الفلسطينية أسأل عن أبو الكرم، تلعثمت الفتاة على الطرف الآخر من الهاتف بدايةً ثم قالت:

– إنّه مسافر في مهمّة.

– متى سيعود؟

– لا أعلم.

– هل زوجته أو الأولاد هنا؟

– لا... بعد تردّد...

– إذن، لم يخرج بعد.

– نعم... بكثير من الحزن.

سألتني من المتحدّث، فأغلقت الهاتف، لم أكن أريد أن يعرف أنّي خرجتُ قبله.

بعد عشرة أيّام من خروجي إلى الحياة، اكتشفت أنّ الحريّة شيءٌ آخر غير ذلك الذي نظنُّه، إنّها ليست أن يُقيِّدَك أحدٌ ما في مكان واحد، بل هي تحرّرك من قيود كلّ عبء. بغداد تنام باكراً، لم تعد مقاهي أبو نوّاس ولا المتنبّي كما كانت، هذه مدينةٌ تُعيد رسم حدود حريَّتها، هي الآن صورةٌ لبقايا كلّ المؤامرات التي مرَّت عليها، جثّةٌ تنتفضُ رافضةً إخراجَ كلِّ القيحِ منها.

العيادة لا تعمل جيداً، 10 آلاف دولار تقريباً هي رزمة المال التي تركها الرئيس العراقي، قبل أن يَطرُق الباب في منتصف الأسبوع الثاني من خروجي شابٌّ في نهاية العشرينات من عمره، دخل خطوتين بعد الباب، تأكَّد من إغلاقه، نظرَ بعينٍ فاحصة إلى المكان ثمَّ مدَّ يده إلى داخل قميصه فأخرج كيساً أسود، وقال بكلمات مقتضبة:

– زائرُ الليل الذي أتاك قبل تسعة أشهر، أرسلَ لكَ هذه الهديّة، حمداً لله على سلامتك.

دون أن يعطيني المجال لأردّ بكلمة واحدة، كان يغلق الباب خلفه ويمضي هابطاً بسرعةٍ عبر الدرج، تابعتُهُ من الشرفةِ لكنّي لم أره. كانت بغداد أسرعَ في ابتلاعِهِ من عينيّ، فتحتُ الكيس فوجدتُ فيه عشرين ألف دولار.

مرَّت بعد ذلك عدّة ساعات حاولت خلالها النوم فلم أستطع، فتحتُ الإذاعة ووقفت على الشرفة أراقب فراغَ بغداد، تذكَّرتُ توماس، طلبته عبر الهاتف فجاء صوتُهُ من بعيد فرحاً:

– لا تعلم ماذا فعلنا هنا كي يتمّ الإفراج عنك.

– أنا ممتنّ يا توماس... ما أخبار بحثك؟

– الأمور تسير على ما يُرام... هناك نتائج جديدة سأطلعك عليها حين تكتمل.

– أحاول أن أبحث أكثر عن جدّي لأعرف نفسي.

– أفهمك، لقد توصَّلتُ إلى دفتر مذكّرات بُنِّي صغير أحضرهُ جنديٌّ أميركي كان في برلين إلى متحف الحرب في كاليفورنيا، يبدو أنَّهُ شكَّل كابوساً عليه في السنوات الأخيرة من حياته فوضعه في المتحف قبل سنوات.

– هل هناك ذِكرٌ لجدّي فيه؟

– المذكّرات تعودُ إلى جدِّك كما أكَّدَ مترجمٌ أثق به، بضع صفحات مكتوبة بالعربية وأخرى بالألمانية.

– هل لك أن ترسل صورة عنها إلى العراق؟

– سأفعل، إلى أين؟

– إلى السفارة الفلسطينية في بغداد.

يتحدّث مع أصدقاء حوله، جلبةٌ وصوت تصفيق، أصرخ في سمّاعة الهاتف:

– توماس، يبدو أنّك مشغول الآن... نتحدّث في وقت لاحق.

– أبداً أبداً يا علي... ألا تسمع الأخبار الآن؟

– لا... ماذا هناك؟

– لقد قبضوا على صدّام!

أغلقت الهاتف، أدرت إبرة المذياع بحثاً عن محطة أخبار، الجميع يتناقل الحدث، وقفتُ على الشرفة أدخِّن مستعيداً مشهد سقوط التمثال في الفراغ المسيطر على ساحة الفردوس أمامي، حين قال الخبر:

«قُبِضَ على صدّام حسين بعد أن ضَبطَت قوّات التحالف أحد مرافقيه، وهو الذي قاد الجنود إلى المخبأ الذي يقبعُ فيه الرئيس السابق تحت الأرض في منطقة الدورة ببغداد ضمن مهمّةٍ أُطلِقَ عليها اسم عملية الفجر الأحمر».

تكاد السماء تطبِق على صدري، هل يُعقَل أن يكون الشابّ الذي جاء قبل ساعات هو الذي اعتُقل وقادَهُم إلى مكان اختباء صدّام؟

ماذا لو صدَقَت هواجسي الآن، وقال لهم حين يوهِمونهُ بالإغراق أو يُدخِلون أنبوباً حديدياً في شرجِه إنَّهُ مرَّ بي وأعطاني هديّة من صدّام!

الفصل الرابع عشر

لستُ مستعداً للتنازل مرّةً أخرى للقدر كي يسلبني حريّتي مصادفة، بعتُ عيادتي في شارع السعدون في اليوم التالي على عجَلٍ بنصف ثمنها، استخرجتُ جواز سفرٍ مُستعجلاً وقادتني الدروبُ للسفر إلى الإمارات، بعد الأردن حيث انتظرتُ أسابيع نجاحَ توماس في استخراج تأشيرة دخول لي إلى أميركا.

خرجتُ من العراق حاملاً في داخلي مقبرة جماعية من الجثث.

وبعد عامٍ من ذلك التاريخ أُفرج عن أبو الكرم من المعتقل بعد سنتين كاملتين تقريباً من التوقيف، بقي في العراق أسبوعاً واحداً ثمّ غادر للعمل في سفارة فلسطين بإحدى الدول الأفريقية، كان يتجنَّبُ الحديث عن سجن الكليّة العسكرية الثانية، أبو غريب، كروبر، الناصرية، بحر النجف، بوكا، كلّ تلك السجون التي عبرها، وتركت في نفسيَّتِهِ أثراً بالغاً، شبحُ أبو خالد ظلَّ يطارده في الأحلام كما قال لي عبر الهاتف أكثر من مرّة، لقد أصابه السكّري ونوبات ضغط الدم. وظلَّ يتهرَّبُ من لقاء حاولتُ مراراً ترتيبه معه.

كان اللقاء يعني بالنسبة لي استعادةَ المساحة النقيّة في داخلي، وبالنسبة له تكراراً للأسى والخيبات المتتالية، أرادَ أن يموت

كلّ واحد منّا بعيداً لتظلَّ الحكايةُ ناقصةً عن الاكتمال، عرفتُ منه أنَّ زوجته وأولاده فضَّلوا البقاء في عمّان على اللحاق به، لقد صار شخصاً آخر، هكذا أخبرتني زوجته سهام عندما حدَّثتها بالهاتف.

رحتُ أبكي وهي تخبرني كيف أنّ السفير صار زائغ العينين، يروي قصصاً غير مترابطة ولا علاقة في ما بينها، صار يختلق أحداثاً عن حصار بيروت، معركة الكرامة، تاريخاً لجدِّه الأول الذي وصل منفيّاً إلى العراق بعد قتالِه تحت قيادة الشيخ فرحان السعدي، يحكي بحتميةٍ عن تنفيذ خريطة الطريق الجديدة، ومشروع الشرق الأوسط الكبير، يبكي، يضحكُ، يهذي، لقد صار – كما وصفته سهام – شخصاً غير متوازن، وما انتقالُه إلى أفريقيا ملحقاً ثقافيّاً إلّا ليقينِه بأنَّهُ سيقضي ما بقي له من حياة بعيداً عن الصخب والأصحاب، أراد أن يقضي أيّامه في عزلة تامّة بعيداً عن الهاوية التي نسير إليها ونحنُ مفتوحو الأعين.

كانَ آخرَ الرجال المحترمين ممَّن عرفت. تحت إلحاحي على سهام التي كانت تصغرنا بثلاث سنوات، وكنتُ شاهداً على ولادةَ قصّة حبِّها وعبد الرحمن في ساحة جامعة بغداد، ووفيت بعهدي لهما حين كنّا طلّاباً بأن أكون شاهداً على عقد قرانهما الرسمي بعد ذلك المشهد بسنوات، تحت إلحاحي الشديد أرسلَت لي بعض الرسائل التي كان قد أرسلها لأبنائه في عمّان، كان يتجنَّبَ كثيراً الحديث عبر الهاتف معهم، البكاء يدهمه فورَ سماعِه صوت أحدهم، لقد وجد في الكتابة منجى له مِن كلِّ ما هو عالِقٌ به.

بعد ذلك بأسابيع وصَلَتني الرسائل مع مسافر انتظَرْتُهُ في صالة الوصول بالمبنى الثاني لمطار دبي الدولي، كانت الرسائلُ موضوعةً في صندوقٍ صغير رحتُ أتحسَّسهُ قبل أن أفتحه وعيناي تقاومان البكاء في السيّارة الصغيرة. يحكي أبو الكرم عن طفولته في بغداد،

عن شبابنا معاً ومع آخرين، عن راحلين ماتوا في الحرب مع إيران، عن صديقنا زياد الذي لم يكن موتُهُ يشبِهُ الموت بعد أن قام بتوثيق إعدام أخيه الأصغر، هيثم ولهجته الكربلائية ولعبة الحرب التي لم يُدرِك مساحته فيها إلّا متأخراً.

الرسالة الأولى

أبنائي الأعزاء:

الحياةُ تسيرُ بنا في مركبٍ تتقاذفه الساعات، من مكانٍ إلى مكان، يابسةٌ وماء، نعبر حدوداً وعيوننا تتّجه دوماً إلى عكّا، المكان الذي خرج منه جدُّكم نحو جنين مشتركاً بالثورة، البندقية التي ضاعت في جبهات عديدة صارت وبالاً علينا بعد أن نفد الرصاص من جعبتنا، حياتنا لا تشبه الحياة... هل تتخيّلون أن يعيش الإنسان حزيناً طيلة عمره، يشعرُ بأنَّ هناك أحداً ما، في زمانٍ ما، في مكانٍ محدَّد؛ سرقَ منه الهواء وذاكرة البيوت، ألبَسَ الغُرَفَ القديمةَ لغةً جديدةً ومَنَحَ أرضَها صلواتٍ مختلفة؟

يظنُّنا الناسُ أشباحاً، خيالاتٍ لأرواحٍ تنتقلُ في الفضاء هاربةً من قصص الأساطير الغارقة في التاريخ، وتبحثُ عن نقاط التقاءٍ مع شيءٍ ما، لا تعرفه، لا تستطيع توصيفه، لكنّها تنتظره.

التعليم منجاكم، طريقكم للعودة والحياة، لا قيمة للسلاحِ دون ذخيرة، وذخيرتكم هي العلم، جواز عبوركم كلّ حدود، لا تصدِّقوا ربطات العنق الكاذبة التي تظهر على التلفاز، النظّارات الغالية الثمن التي تُخبركم عن صعوبة الرؤية، طريقُكم واضحٌ فلا تخطئوه، لا تتيهوا في التفاصيل التي تحمل الشيطان.

أيّامي هنا تسير بالاعتياد، كلُّ يومٍ مثل سابقه، ولستُ معتاداً على الانسيابية إلى هذا الحدّ، أتجنّب لقاء الناس، وأكتب لكم بقلبٍ

تحمَّل كثيراً واحتوى ما استطاع من أصدقاء، فكونوا أمينين على الذاكرة والذكرى وأمِّكُم.
والدكم

الرسالة الثانية

أبنائي:
الحياةُ لعبةٌ من المفاوضات مع الأقدار، تمشي أقدارها بمسارات عديدة يضبطها الإنسانُ ما استطاع، لقد نظمت حياتي على إيقاع حبّي لأمّكم ووفائي للأصدقاء، علي، هيثم، زياد – رحمه الله، حياتي الآن أمامي مثل مخطّط لمنزلٍ لم يُنهِهِ البنّاء فترَكَ الريح تعوي بين أرجائه، أحاول الإمساك بمفاتيح اللغة المحليّة هنا، الطعام الذي لا يشبِه الطعام، اكتشاف الأشياء بطعمِ المكان الجديد.
دراستكم هي الأساس في كلِّ ما هو قادمٌ من مستقبل، فَهمُكم لمهمّتكم في الحياة، إدراككم لذاكرة العائلة التي كبُرت في الشتات، لا تبنوا أهلاً آخرين، دائرةُ أمانِكُم اجعلوا حدودَها تبدأ منكم وتنتهي فيكم.
حبيبتي سهام:
رفيقة الدرب الصعب، وبيت سرّي الآمن، هل يهرمُ الألم؟ أرجو أن تنتهي هذه المرحلة سريعاً، أشعر بأنّي أغرق في الذاكرة أكثر ولا مخرج للطوارئ يقيني شمس وأمطار هذه البلاد معاً، لقد أرسلتُ إلى بغداد رسالة تفيد بضرورة تحويل إنتاج الشهور الستة الأخيرة من حصّتي في عمل المخابز لكِ في عمّان، كما اتّفقنا

سابقاً حاولي أن تشتري أرضاً في البيرة أو قرى نابلس، نحتاجُ إلى بيت هناك، بيت يكونُ خطوة تقرِّبنا إلى عكّا.
عبد الرحمن

الطريق إلى أوسلو، مفاوضات واشنطن... كان معجباً بشخصية الدكتور حيدر عبد الشافي، لكنَّهُ مع منظمة التحرير في لعبة التفاوض، يلعنُ مفاوضات الحلّ النهائي، يتحدَّث عن الأرشيف البريطاني المُصوَّر خلال الانتداب، يعودُ إلى أيّامِ بحثنا فيه لكنَّهُ لا يذكرنا أبداً.

أقلّبُ الصفحات بين الرسائل، وصولاً إلى البيتِ حيث ارتميت على الكنبةِ الصغيرة، أحلامٌ تأتي وأخرى تروح، سيرةُ الآخرين التي تسكُنُ الرسائل إلى الأولاد، ربّما يريد الرجل أن يؤكّد لنفسه قبل أولاده أنَّه كان يعيش حياةً طبيعية في يومٍ من الأيّام، قبل أن يحدث كلّ ما حدث.

في إحدى الرسائل للأبناء يتحدّث عن حزقيل وابنه عزرا الذي التقاه في كروبر، عن دفتر بُنّيٍّ صغير وصل إلى السفارة عن طريق البريد من أميركا، فيه حكايات عن جدِّه الأول الذي كانت صورته تتصدَّر كلَّ مجلسٍ سكنَهُ أبو الكرم، يُخبِرهم أنَّ الجدّ التحق بالشيخ فرحان السعدي، يحكي عن أسفارِه إلى دمشقَ للحصول على السلاح من أهل الشام، اللقاءات مع الأمير عبد الله بن الحسين الذي عرَّفَ الفلسطينيين إلى رجلٍ يقيم بألمانيا بعد أن كان ضابطاً في الجيش العثماني، رجل في أواسط الخمسينات يُخفي تحت معطفِهِ ذراعاً مبتورةً استعاض عنها بقطعةٍ خشبيةٍ تنتهي بخُطّاف حديدي لتملأ فراغَ اليد في المعطف، ذلك الرجلُ هو الذي أخبر الإنكليز في ما بعد عن مكان اختباء الشيخ فرحان السعدي، وهو الذي تمَّت رؤيته مراراً

مع مبعوثي الانتداب لوضع اليد على الأراضي الفلسطينية في وادي الحوارث باعتبارها أراضيَ أميرية ليست ملكاً لأحد.

نظرتُ إلى صورة جدّي المعلَّقةِ على الحائط:

– هل أنت ذلك الشخص الذي كان؟

ثمّ تذكَّرتُ كلاماً من سهام عن أنَّ أبو الكرم صار يتخيَّل أشياء لم تحدث أبداً ويُضمِّنها في حياتِه، لقد أراد أن يبني حياةً جديدة يؤرِّخ لها كما يريد، مُعتبراً أيّامهُ بكاملها عبارة عن كتلة من الفوضى الخلّاقة عديمة الصوت لا يُرى منها إلّا النتائج التي انعكست في الحاضر بشكل واضح.

بعد قراءتي تلك الرسائل بأسابيع، وردني اتّصال من القنصلية الفلسطينية في دبي يحمل أخباراً عن وجود طرد مسجَّلٍ باسمي في البريد الدبلوماسي. اتّجهت مع الصباح نحو مبنى القنصلية على أطراف منطقة الكرامة في دبي، كانت فلسطين في الداخل تنام غريبةً على كنبةٍ منسيّة في صالة الانتظار التي جلستُ في زاوية منها بالقرب من تلفاز وُضِعَ فوق جهاز فيديو يعرض فيلماً عن المقبرة العراقية في يعبد، صورةٌ بعيدة جداً في الذاكرة تحفِّزني أكثر لمعرفة مصدر البريد الدبلوماسي.

بعد عشرين دقيقة تقريباً جاءني رجل في أواسط الأربعينات تقريباً، يرتدي بدلة رمادية دون ربطة عنق، مدَّ يده مصافحاً قبل أن يقدِّم نفسه على أنّه مسؤول العلاقات العامّة في القنصلية سارداً بعض المعلومات عنّي ليمرّر لي رسالة أنّه يعرف من أكون.

دعاني إلى كأس من الشاي بالميرمية ثمّ مدَّ لي ظرفاً بدا لي حين أمسكته أنّه يضمّ عدّة أوراق، لا إشارةَ على المغلَّف البنّي سوى أنَّه مغلقٌ بإحكام، بدا لي أنَّ الإغلاق حديث العهد أو هكذا شعرت

وأنا أفتح طرفه الأيمن بعد خروجي من المكان نحو السيّارة قبل أن تبلعني شوارع المدينة مثل ملايين غيري.

خطٌّ أنيقٌ جداً، يشيرُ انبساط التاء في نهاية الكلمات إلى أبو الكرم، ثلاث أوراق مكتوبة بخط يد أبو الكرم، جاء فيها:

أخي علي:

التاريخ – في حركته – يبدو تصاعدياً، لكنّه ثابتٌ في عبثيَّتِهِ التي يصنعها الحاضر على شكل ضحيّة، هذا بعضُ ما وصلتُ إليه من مذكّرات الدفتر البنّي ومن بعض المصادر الأخرى، أكتبها لك بخطّ يدي دون أن أرفِقَ أصل الكلام، لأنَّ الجذر يحتاجُ إلى جلسة خاصّة في الغرفة السرّية ببغداد.

وصلني بريد من السفارة في بغداد – كلّما أذكر بغداد تحضر الذاكرة بكلّ ما فيها أمامي، فلا أستطيع العبور نحو مكانٍ مقصود – هذا البريد المسجَّلُ كان قادماً من الولايات المتّحدة، يحمل اسمك، لكن يبدو أنَّهُم لم يستطيعوا الوصول إليك بعد خروجك من العراق فقام خالد – ابن أبو خالد المدير المالي الذي توظَّف الآن في السفارة بعد رحيل والده خلال رحلتنا التي تعرفها – بتحويل الملفّ كاملاً إليَّ هنا بالبريد الدبلوماسي، وها أنا أمرّر لك هذه الرسالة بعد أن قرأتُ الدفتر البنّي الصغير كلمة كلمة، بمتنه وحواشيه، وأضفتُ إليه بعض الأشياء التي وصلتني من أماكن مختلفة، رسائلُ تستطيع وحدك حلَّها عن ذاكرتنا معاً.

الجدُّ كان تاجراً من نخبة بغداد وجدَ متعته بالسفر بين المدن المنتشرة في أقاليمَ تستعدُّ للانتقال من عباءة إلى أخرى، ومن عصرٍ إلى زمنٍ جديد لا يشبِهُ سابِقَه، يُحضِرُ السجّادَ من بغداد إلى عمّان، يبيعه للقافلين من رحلة الحجّ خلال استراحتهم، يحمل

منهم البهار والملح وبعض الحرير إلى فلسطين ويأتي من هناك بالزيتون وتمر أريحا، تورَّطَ مثلنا بحبّ تلك البلاد، وماذا يملك الإنسان من أمرِهِ حين يتورَّط بالحبّ. في نهاية عام 1929 اشترى أرضاً صغيرة في مستوطنة على حدود تل أبيب بعد نصيحة تلقّاها خلال إحدى رحلاتِه إلى إيران من مشرف للعمّال في شركة «سوليل بونيه» في عبدان.

لم تكن الموشافا[1] أرضاً موعودة عنده ولم ترقَ إلى الفردوس المفقود، لهذا لم يتحوّل إلى طلائعي جديد يبحث عن بلادٍ لا أهلَ لها، يحاصر موقعَه فيها قدرٌ كبيرٌ من التعقيد والعاطفة والخطورة، روايات دينية تختلط بالأسطورة، وأسطورة تتحوّل إلى دين في عرف اجتماعي يُحاولُ أن يجد انسجامَهُ الداخلي في بيئة غير متجانسة!

ستّ سنوات كاملة عاشها الجدّ قبل أن يغادر قافلاً إلى العراق حاملاً بين عائلته جدّي – الشابّ حينها – الهارب عن طريق الرشوة من سجن الانتداب البريطاني بعد إعدام الشيخ فرحان السعدي. لم تعد العائلة كلّها إلى بغداد، بقي في الموشافا من استطاع أن يكون طلائعياً فألبَس نفسَه ثوباً يُشبِهُ أهل البلاد، كان مطلوباً منه أن يعيش حياتهم كأنّه واحد منهم، كان انتقالاً كبيراً بين هويَّتين، قطعاً حادّاً بين ضفَّتين أتقنه تماماً مزراحي الشقيق الأصغر الذي ظلّ في الأرض التي صارت تُعرف للضفَّتين بـ«البلاد».

[1] الموشافا: كلمة استعملها اليهود عند الانتقال إلى فلسطين في الإشارة للمستوطنة وسكّانها كان يُطلَق عليهم اسم «الطلائعيون»، وقد استعملها أبو الكرم كي يمرّر للدكتور علي أنّ الحديث عن رجل يهودي في فلسطين.

لماذا عاد جدّ حزقيل إلى بغداد؟ ولماذا حمل معه جدّي الشاب حينها؟ هذه أسئلة لا إجابات لها حتى الآن. إجابات عمياء تجعلني أفهم سرّ صمتِ أبي عن رحيل حزقيل المفاجئ بعد عشر سنوات من الفرهود، غيابه المفاجئ عن فضائنا وموته السريري في ذاكرتنا.

أمّا الدفتر البنّي أمامي فيحمل خيالات «جدّك» فهو يروي عن تلك الصفقة التي أبرمها السمسار الألماني ذو الذراع المبتورة مع الضابط الإنكليزي لشراء أراضٍ جديدة ليهودي عراقي اسمه مزراحي، تفاصيل تليها تفاصيل لتلد حكايات لم تحبل بها في الأصل.

تفاصيل تحيط بك من كلّ اتّجاه، تحاصرنا جميعاً بمرآتنا أمس، وندفع فاتورتها الآن من تشرّدنا في كلّ بلاد، لن أحكي لك أكثر عنها، سأجعلك تكتشفها بنفسك.

أخوك

عبد الرحمن

كان طيف جدّي يحضر في داخلي فقط منذ وصولي إلى القُصيص في دبي، لكنّه الآن بات خيالاً يرافقني في كلّ خطوة، أحمله على كتفي وأمشي خلال بحثي عن سكَنٍ مشترك في شارع بغداد. سكنتُ مع شبابٍ يبحثونَ عن فرصةٍ مؤجَّلةٍ للحياةِ في بلادٍ أدركتُ منذ اللحظة الأولى لي فيها أنّها مثل نافورة المياه العالية التي تشتغلُ فترفعُ ما علِقَ فيها بفتحة الماء إلى الأعلى، تُغريهِ بالارتفاع الكاذب الوهمي، لتطحنه الحياةُ وتأخذه بعيداً ثمّ فجأةً يرى نفسه مرّةً أخرى مثلما جاء في اليوم الأول، المتغيِّرُ الوحيد هو أنَّ عدّاد العمرِ قد مرّ، وحقائبُ السفر زاد عددها.

وجدتُ صعوبةً هائلةً في إيجاد فرصة عملٍ كطبيب أسنان، ولأنَّ المال الذي معي لن يكفي لأكثر من عدة أشهر في بلادٍ تقومُ بكلِّ ما فيها على الإنفاق الاستهلاكي، قادتني الظروف لأجد نفسي مندوباً للمبيعات في شركة طبّية، أعملُ في قسم أدوات طبّ الأسنان، كانت المفارقةُ التي ألجمتني للحظات هي رؤية صدّام ابن عمّة أبو الكرم، احتضنني في ذلك البيت حيثُ التقيته مصادفةً حين زيارته لزميل له في العمل لأخذ بعض الأوراق، سمعتُ بدايةً صوتاً مألوفاً قادماً من الصالة الكبيرة التي توزَّعَت بها أسرّةٌ كثيرة، رفعتُ رأسي قليلاً لأتبيَّن صاحب الصوت في الضوء الخافت للمكان، رأيتُ شابّاً يهمُّ بالجلوس على طرف السرير بينما قام صاحبه لإحضار شيءٍ ما، همستُ بصوتٍ خفيض وكأنّي أحدِّث نفسي: صدّام... صدّام...

استرجعنا بعضاً من تلك الأيّام التي مضت إلى غير رجعة، بدا لي أنَّه انقطع تماماً عن أبو الكرم، وعرفت منه قصّة خروجه من معبر طريبيل نحو الأردن، مكوثه مع أمّه وأخواته البنات عدّة سنوات في عمّان بعد أن منعت الكويت عودتهم عقِب خروج القوّات العراقية، التعويضات المالية التي حصلوا عليها والتي مكَّنتهم من بناء بيت في قرى سلفيت قرب نابلس، بعد أن استطاعوا الدخول إلى فلسطين مع توقيع اتّفاقية أوسلو وحصولهم على جوازات سفر فلسطينية. تكرّرت لقاءاتنا عدّة مرّات حتى قطعتُهُ تماماً بعد أن أخبرت سهام بعلاقتي به فحذَّرَتني فوراً منه بعد أن شاعَ في فلسطين تورُّطه في استخراج قطع أثرية من امتداد محافظة سلفيت الريفي وبيعها لتجّار من اليهود. فبهذا، أتمَّت لي الحكاية الناقصة التي أخفاها عن ذهابِه إلى اسطنبول ولقاءاتِه مع مؤرِّخٍ عثماني باعَهُ خرائطَ قديمةً تشيرُ إلى وجود مقابرَ تعودُ إلى فتراتٍ تاريخية مختلفة في فلسطين. هكذا تؤثِّر الحرب على مصائر البشر.

الوحدةُ تقتلني، الذي يسكُنُ في حواضرَ عريقة – حتى وإن سكَنَها الفقر – تكون شوارعها أشبهَ بمتحفٍ مفتوحٍ في الهواء الطلق، لا يعتادُ بسهولةٍ عجلةَ الحياةِ الصاخبة وتسارعها في دبي، أعودُ إلى سريري فرداً مساءً وأنطلقُ منه وحيداً في الصباح، مثقلاً بإرثٍ من الذكرى القديمة والجديدة، آمنتُ بأنّ الهدنةَ بين حربَين في الحياة هي الجزء الأهمّ في المسيرة التي قد يكون الموتُ هو مشهدَها الأهمّ، أشياءُ عشتها بكلّ أحاسيسي وأشياءُ أخرى وصلتني مصادفة بعد أن دفعت ثمناً لها من عمري، سيرةُ جدّي الذي حصلتُ على صورةٍ له مبتور اليد من أرشيف صحيفة ألمانية، استنسختها في شارع الرقة بالمرقبات في دبي بحجم كبير ووضعتها في مواجهة باب الشقة التي سكنتها وحيداً بعد عملي، كنتُ أريدُ أن أُذكِّرَ نفسي دوماً بأنّنا منذ مئة سنة كاملة، يسلِّمُ جيلٌ منّا لجيلٍ آخرَ صفة الضحيّة، نحنُ ضحايا الوقوع في تخيُّل بصيص الضوء الكاذب في آخر النفق، الإيمان به، البحث عنه، التمسُّك بوجوده، بذورنا دائماً مبلولة بالماء لهذا لا تنبتُ في أرضٍ غزَتها الصحراء منذ زمن سحيق، كلُّ بناءٍ في هذه البلاد بلا ذاكرة، رخوٌ كأنَّهُ من هُلام مهما كانت نسبة الإسمنت المُسلَّحِ فيه، شوارعُ تتعاملُ مع الجميع تحت عنوان المؤقَّت الزائل والطارئ، لهذا فكَّرتُ أن أُبدِّل التربة بأخرى من بلاد الشام، كنتُ قد تواصلتُ مع عائلاتٍ عديدةٍ من الهاربين من حماه عام 1982 إلى الإمارات، احتضنتهم البلادُ وقدَّمَت لهم المأوى مقابلَ أن يفنوا أعمارهم فيها، لقد صارَ أولادهم في مثل عمرهم حين أتوا أوَّل مرّةٍ إلى هنا، كان الآباء يتذكّرون والدي والشيخ أبو عامر، أمّا الطاهر فقد كان في مكانةٍ أخرى، إنَّهُ البطل الشعبيُّ الذي نسجتهُ أخيِلةُ الناسِ مع احتياجِها لوجود هذا النموذج.

بحثتُ في دليل الهاتف السوري عبر الإنترنت عن رقم يصلني ببيت الشيخ طاهر، جنَّدتُ من أعرف من السوريين في مدينة العين للوصول إلى خبرٍ عنها حتى علمتُ أنَّ زوجها قد تُوفّي قبل سنتين.

أمسك هاتفي المحمول، أضغطُ الرقمَ رقماً رقماً، أتوقَّفُ قليلاً قبل إتمام الاتّصال، عاودت الكرّة أكثر من مرّة، على طرف الطريق السريع القادِم من مدينة العين إلى دبي، أوقفت السيّارة، السماء في الخارج تدلِفُ على الأرض ماءً لا يهطل إلّا مرّات نادرة في هذه البلاد خلال العام، أنفاسي تتسارع ودقات قلبي تزداد، في المرّة الأخيرة عزمت على الاتّصال، رنَّ الهاتف الأرضي في بيتهم، جاء صوتها بعيداً، صمتٌ سيطر عليَّ ثمّ انفجرتُ بالبكاء.

– لم أُحبَّ أحداً سواكِ، يا كلَّ كلّي، وبعضَ بعضي، عشتُ سنواتي في ظلِّ وجودِكِ الوهمي باحثاً عن ترابٍ مشَت عليه قدَماكِ.

سمعتُ شهقات أنفاسها على الطرف الآخر من الهاتف، لم تتحدّث إلّا بكلمة واحدة:

– أكمل.

– تقاذفتني الأيّام من بلادٍ إلى أخرى، مِن حدَثٍ إلى آخر، الدهرُ في بعدِكِ منذ خرجتُ دهران، الأولُ يسيرُ مفتوح العينين مقاتلاً سطوةَ هذا الزمن، والثاني حبيسٌ في داخلي لا يكبر بالدقائق والثواني والأيّام والسنوات، عشت عمري وحيداً كي لا أخون وجودكِ في وجداني، فهل تأتين بعد كلّ هذا الغياب؟ في داخلي سنواتٌ من القهر والتعب، أشخاصٌ كثيرون يتبدَّلون في ذاتي وأنتِ وحدكِ ثابتةٌ كما الإيمان، كما العقيدة، كما ذكرى والدكِ في وجداني.

زاد بكاؤها ذكري لوالدها، كنتُ أعلمُ مكانته عندها، فقلتُ:

– لو كان له قبرٌ معلوم، لأتيت جاثياً أمامه طالباً إيّاكِ، فليس سواهُ يستحقُّ ذلك، لكن يا لَفَرَحِ رجلٍ كلُّ الوطنِ قبرٌ له، ما أخبارك؟

– لا أعرف كيف أنا، انتظرتُ هذا الاتّصال سنواتٍ طويلة، قبل زواجي بالمرحوم كنت أعتقد أنَّكَ سترسلُ من يأخذني إليك، حاربتُ كي أتهرَّبَ من الارتباط، لكن كما تعلم لا مناص لفتاةٍ غاب والدها من القبول بشروط الآخرين، رحمَ الله أبا الأولاد كان شهماً طيّباً وصانَ عشرتنا.

– هل كان يعلم شيئاً عنّي؟

– كلّ المدينة تعرف بنا يا علي، لكنَّهُ كان يدركُ أنّي كنتُ لهُ ومعه مكاناً وجسداً، لا أخونُهُ ولا أُبيح بيتَهُ لغريب، أمّا الجوارح والخيال فلا سلطةَ فيها إلّا للقلب والروح، يضبطُها البعدُ ويرعاها العفاف، لا سلطان في ذلكَ إلّا الوفاء للغِياب.

– أما آنَ لهذا الغياب أن ينتهي؟

– لقد انتظرتُ الدهرَ كلَّه حتى ينتهي.

– هل معكِ جواز سفر؟

– بلى.

– أعطيني رقمَ أخيكِ أحمد لأتّصل به وأرتّب معه الأمر.

غرقت في نوبة بكاء حادّ، وكأنّي فتحتُ شبّاكاً للألم كان مسدوداً بفعل النسيان، مع شهقاتها قالت:

– أحمد... لقد استُشهِد في العراق!

– متى؟ مستحيل...

– أكَّد أصحابُهُ الذين عادوا أنَّه استُشهد بالقصف الذي طال جسر الشعب في بغداد.

أدركتُ أنّها لا تعلم أنَّ أحمد كان معتقلاً معي، وأنَّ الأميركان منذ أن فرَّقوا بيننا بعد ليلةِ البيعةِ بينه وبين إبراهيم، منعوا الصليب الأحمر من الوصول إليه. لهذا ظلَّ منسيّاً في مكانٍ ما، داخَت بي

الجغرافيا، شعرتُ بدوار يسكنُ رأسي ثمّ تماسكت. وأعدتُ طرح الفكرة من جديد:

– هل هناك من أتحدّث معه من العائلة؟

– لا أحد، كما تعلم فإنَّ مَن بقيَ من أعمامي يعيشون في السعودية والأردن.

– هل ترسلين لي صورة جواز سفرك إذن، وسأتكفَّلُ بإصدار تأشيرةٍ لك، تعالي إلى هنا وسنقرّر. نحنُ بالغانِ راشِدان، ولا يوجدُ ما يمنعُ قدومك إن شئتِ.

– سأُحدِّثُ الأولاد، يأتيانِ من الجامعة يوم الخميس مساءً، سأفاتحهما بالأمر وبيننا اتّصال.

– يا إلهي... لقد انتظرتُ هذا الاتّصال كلّ سنوات عمري، سأعيد الاتّصال يوم الخميس مساءً.

– الجمعة وقت الصلاة بتوقيتنا يكون أفضل.

انتهى الاتّصال، فرُحتُ أنظر إلى التقويم أمامي، اليوم الثلاثاء، فقلتُ بقي للجمعة أربعة أيّام، أجدُها طويلةً جدّاً، فأقول باقٍ من الوقت ثلاث ليالٍ، أجدُ الزمنَ طويلاً جداً لتسلّم الجواب منها، فأردِّدُ في خاطري:

أربعة أيّام بثلاث ليالٍ، نصفها نوم يبقى يومان، نصفها عمل يبقى يوم واحد، عليَّ أن أُضيِّعهُ بالمشي!

في اليوم التالي ذهبت صباحاً إلى العمل فوجدتُ من ضمن المواعيد المُرتَّبة ليوم السبت المقبل، زيارة سنقوم بها للقاعدة الأميركية في جبل علي بدبي لتقديم عرضٍ عن الأدوات التي سيُجهَّز المركز الطبّي بها في القاعدة، حاولتُ التهرُّبَ من هذا الالتزام فلم أستطع، هناكَ ذاكرةٌ سيّئةٌ تفوحُ منّي – مهما استخدمت من عطور لمحوِها – حين أراهم أو ألتقي بهم، بدلة المارينز عندي تعني

سلطة لا أريدها، أهرب منها، لا أستطيع ضبط مشاعري أمام السلاح الأميركي في المنطقة، أُعيدُ الأحاديث التي جرَت أمامي في المعتقل بين الجهاديين عن حتمية المعركة المصيرية من بوّابة وجود السلاح الأجنبي الذي سيخلخلُ البنية الاجتماعية ويُعيد ترتيب الجغرافيا لتكونَ النهاية، كلٌّ كانَ يبحثُ عن نهايةٍ يدعمها نصٌّ مُقدَّس على اليمين واليسار.

حاولت الاتّصال بأبو الكرم أكثر من مرّة حتى استطعت الوصول إليه يوم الخميس، أخبرته بنيَّتي الزواج، شعرتُ بفرحه يسبقه إليَّ، وعدني لأوَّل مرّةٍ بالقدوم إلى دبي ليحضر هذا الحدث إذا اكتمل، منذ خروجه والأشياء عنده مهزوزة على أرضية غير ثابتة، لا ملامحَ للأشياء في عينيه وإنِ اكتملت.

يوم الجمعة سابقتُ الوقتَ للاتّصال بحسب الموعد، فجاء الردُّ يحملُ الموافقة بشرط واحد أن تسافر إلى سوريا كلّ شهرين لرؤية الولَدَين، كادت قدماي تطيران عن الأرض، سارعتُ لترتيب مواعيد لها مع مكتبٍ سفر في حماه لاستخراج تأشيرةٍ سياحية إلى الإمارات، مساءً أرسلتُ المال اللازم لذلك عبر أحد مراكز تحويل النقود في شارع الوحدة بالشارقة، عاودتُ الاتّصال أكثر من مرّة لترتيب التفاصيل الصغيرة ولضمان سرعة الإجراءات من طرفها، عدتُ منهكاً إلى الشقة ليلاً، رحتُ أتخيَّلُها تنتقلُ من مكانٍ إلى آخر، لقد حضَّرتُ كلّ شيء لاستقبالها، الواقع والخيال والشوق.

أمام مغالبة النعاس ليبقى طيفها حاضراً في زوايا البيت، فتحت جهاز المحمول أمامي ورحتُ أتصفَّحُ بعض المواقع حتى رأيت صورة عزرا يحمل صورةً مصادرةً من إرثِ والد أبو الكرم في بغداد.

ضغطتُ على الرابط وبدأتُ أقرأ بالإنجليزية عن مظلومية متكاملة لمواطن إسرائيلي وُلِد في عكّا، ومات والده فيها بعد أن وصل

إليها مطروداً مسلوبَ الأملاك من العراق، خاض الشابُّ حربَهُ الخاصّة للوصول إلى ما يثبِت وجود والده في العراق بعد الفرهود، لقد تطوَّع في الجيش الأميركي في سبيل ذلك، تجلس إلى جانبه حاملة طرف الصورة التي تمّ تكبيرها زوجتُه الأميركية وفي حضنه ابنه الذي رأيته بالصورة على الخزانة في سكن الجنود قرب سجن كروبر، يطالبُ عزرا في مقابلة صحافية بجريدة أميركية بالعدالة!

غلبني النوم وحين أفقت في الصباح سارعتُ لتقديم طلبٍ للإجازة من العمل اعتباراً من الأسبوع المقبل، وكابرتُ على نفسي – تحت ضغط تكاليف الحياة – ذاهباً برفقة طبيب هندي وآخرَ باكستاني إلى القاعدة الأميركية في جبل علي.

يمتدُّ الطريق في شارع خالد بن الوليد حتى منطقة الكرامة، تخترقُ السيّارة شارع الشيخ زايد بأبنيتِه العالية، أتذكّر ردّة فعلي حين عبرتُهُ لأول مرّة، ما أقلَّ التاريخ في هذه البلاد وما أكثرَهُ في شارع السعدون، تنحرفُ السيّارةُ يميناً لندخل إلى ميناء جبل علي، أرى العلم الأميركي من بعيد، هناك جنودٌ على البوابة الرئيسية. ذات الهيئات التي كانت في العراق، عتاد كامل برصاصٍ جاهزٍ في بيت النار، تكوَّرتُ على نفسي في الكرسيّ وانشغلتُ بمراجعة الأوراق والصور في الملفّ بين يديَّ حين كان الطبيب الهندي يعطي إثبات شخصيّاتنا للجندي حتى يتأكّد من وجود تصاريح الدخول، انطلقت السيّارة نحو المبنى الرئيسي في القاعدة، أرى طائرةَ بلاك هوك، مروحية أباتشي، دبّابات، سيّارات همر، سيّارات نقل، ملاعب كرة سلّة، ملعباً للكرة الطائرة، مسابح، مركزاً رياضيّاً كبيراً يبدو من خلال زجاجه بعض الجنود وهم يمارسون ألعاباً مختلفة.

توقَّفت السيّارةُ وهبطنا نحن الثلاثة، الشمسُ والرطوبة العالية تزيدُ من اختناقي، تضغطُ جفوني على عينيَّ، لا أحد من الموجودين

معي يعرف ما يعتمر في صدري وروحي، البركان في داخلي فوقَهُ رمادٌ كثير لكنَّ الأرضَ من تحتِه تمور وتغلي، نسيرُ خطى معدودة نحو الباب الرئيسي الذي يفتح آليّاً للدخول إلى مركز القيادة، يضربُ وجهي الهواء الباردُ المُنبَعِثُ من المكيِّف الرئيسي للمكان، وم اهي إلّا لحظات حتى رفعنا المصعدُ إلى الطابق الخامس من المبنى، قادنا جندي نحو قاعة الاجتماعات، فعادت إلى ذاكرتي كلّ الممرات التي مشيتُ فيها بزاوية تسعين درجة ورأسي تحت إبط جندي يشبه هذا الذي يتعامل معنا بودٍّ مُصطَنَعٍ الآن، ومُصطَنَعُ الودِّ تكشِفُهُ الشدائد!

كنّا قد اتّفقنا على جدول واضح لأعمال الاجتماع في ما بيننا، رتّبنا بعض الأشياء، تأكّدنا من جودة عمل العارض الضوئي، جهاز الصوت، وبانتظار البدء انشغلتُ بمراقبة دبي من الواجهة الزجاجية للمكان، شركة متعدّدة الجنسيات على شكل مدينة تنمو بخلافِ المدن العربية التي كلَّما عدتَ إليها بعد غياب تجدُ أنَّ قسماً قديماً منها قد مات، عيبُها أنّها ذكورية حدَّ التقيُّؤ، لا رحمَ فيها يحتضنُ الغرباء، لا إحساس بفكرة الوطن، لا ذاكرةَ مع الأماكن فكلٌّ من فيها عابرٌ؛ مؤقَّت، فهل سيكونُ لشوارعها وأسواقها ذاكرةٌ جديدة معي بمجرَّدِ وصلِها المُنتَظَر؟ أنا الذي عشتُ عمري كلَّهُ ظلّاً لظلِّ حضورِها، حضور عطرها يعني خلقَ مدينةٍ داخل مدينة أو فوقها، ما أصعب الانتظار والمدينةُ تغرقُ في عينيَّ وتتقزَّمُ رغم ارتفاع أبراجها في البعيد.

يقطع خلوتي وتأمّلاتي للمكان الذي كان قبل أقلّ من خمسين عاماً رمالاً لا حصر لامتدادها، صوتٌ أعرفه جيداً، صوتٌ ألقى التحيّة مع آخرين حين دخل، التفتُّ بكثيرٍ من الحذر فوجدته أمامي، لم تُخطئه العين ولا السمعُ ولا الإحساس، كان هو، قد كبُر قليلاً وزاد وزنه، لكنَّه هو، بدا الارتباك عليه، زمَّ عينيه جيداً وكأنَّهُ يريدُ أن

يضعني في إطارٍ ليتذكَّر من أكون، فقدَّمت نفسي سريعاً كي أقطع عنده الشكَّ باليقين:

– د. علي من شركة الأدوات الطبّية، ومددت له كما الآخرون بطاقة تحمل بيانات الاتّصال بي. لحسن الحظ أو سيِّئِه أنَّ التصريح بالدخول يحمل فقط اسمي واسم والدي دون العائلة.

بادلني التحيّة أمام الجميع كما الآخرون، ثمّ اعتذر للخروج لأمرٍ طارئ، استغرب باقي أعضاء الاجتماع من هذا، لكنَّه برّر ذلك بضرورات العمل، عاد بعد ربع ساعة وأمضى الاجتماع دون أن يتحدَّث، كذلك فعلتُ أنا، فاكتفينا بتبادل النظرات بين دقيقةٍ وأخرى.

كان هو؛ لا يزيغه البصر، إبراهيم، الذي تشير البطاقة التي قدَّمها لي كما الآخرون أنَّ اسمه: عبيد، مسؤول قسم المشتريات المُنتَدَب في القاعدة الأميركية!

ما إن انتهى عرض المعدّات الجديدة التي ستقدِّمها الشركة إلى المركز الطبّي الجديد، حتى بادرني بالإنكليزية أمام الجميع بعد أن نظر إلى بطاقتي بين يديه كتمويه للحاضرين:

– د. علي... بالتأكيد تتحدّث العربية.

– نعم.

– أحتاجُ من وقتِك إلى نصف ساعة لو أمكن الآن، هناك صديقٌ يحضِّرُ لافتتاح مركزٍ طبّي وقد أخبرته بوجودك هنا، وهو متحمِّسٌ للقائك على الغداء في المرابع العربية على بعد عشرين دقيقة من هنا، المشكلة أنّه لا يتحدث سوى العربية، وإلّا كان مُرحِّباً بجميع أعضاء وفد الشركة.

– هل من الممكن تأجيل اللقاء ليوم آخر كي نجهِّز له جيّداً، من الضروري أن نتحدّث معه عبر الهاتف لنعرف تطلُّعاتِه أولاً وتوقُّعاتِه من الشركة.

– للأسف هذا غير ممكن، فهو سيسافر اليوم مساءً، وسيعود بعد أسبوعين.

دخل على النقاش الطبيب الهندي، وقد كان مساهماً مع ملّاكِ الشركة الطبّية، قائلاً:

– بالتأكيد، د. علي سيكون سعيداً بهذا اللقاء.

كظمتُ غيظي، وتوجَّهنا نحو البوابة الرئيسية فوجدتُ سيّارة دفع رباعي بانتظاري، سائقٌ واحدٌ لم يتحدَّث طيلة الطريق، ركبَ إبراهيم بجانبه، بينما ركبتُ في الخلف، أقفلَ الأبواب وقال:

– السيّارةُ لا تفتح إلّا من عند السائق فلا تقم بأيِّ حركةٍ غبيّة.

– هل أنا معتقل الآن؟

– لا... دردشة سريعة فقط.

امتدَّ بنا الطريق عبر بوّابة شارع الشيخ زايد مرّةً أخرى، راحَ إبراهيم خلال الرحلة يتحدّث عن البلاد التي تحترمُ مواطنيها، تقدِّم لهم كلّ ما يمكنها، بينما فضَّلتُ الصمت، حاولتُ أن أشغل تفكيري بقدومها في الأسبوع المقبل، حياةٌ جديدةٌ ستغسل تعب كلّ السنين.

قطعَ إبراهيم حبل استرسال خيالاتي مرّة أخرى:

– آخرُ ما كنتُ أتوقَّعه في حياتي، هو أن أراكَ مرّةً أخرى يا علي.

– وأنا كذلك، مع أنّك تخطر على بالي – في مكانٍ طاهرٍ بالذاكرة – بين حينٍ وآخر، كنتُ أدعو لك مع آخرين، لكن يبدو أنَّك لست بحاجة لدعائي يا إبراهيم، عفواً يا عبيد.

ضحكَ حتى امتزجت ضحكاته بسعالٍ قويٍّ أخرجَ في نهايته بلغماً وضعه في منديلٍ ورقيّ، نظر إلى البلغم في المنديل ثمَّ أغلقه، كدتُ أتقيّأ من هذا الفعل.

تنحرف السيّارةُ عبر شارع الضيافة إلى شارع الخليج العربي فتبدو من بعيد دائرة الجمارك على شكل سفينة تنام على الشاطئ

الممتدّ حتى ميناء الحميرية، وما هي إلّا ربع ساعة أخرى حتى عدنا من شارع القاهرة إلى شارع النهدة من أمام القيادة العامّة لشرطة دبي نحو طريق الإمارات السريع، حاولتُ أن أسألَ عن وجهتنا فلم يجبني أحد، استمرّت السيّارةُ بالمسير حتى وصلت إلى مخرجِ مدينة العين فسلكتِ الدرب نحو الصحراء الممتدّة، التفتَ عبيد نحوي ومدَّ علبةً بلاستيكية نحوَ وجهي، رشَّ عينيَّ ببعض الرذاذ على شكل بخّاخ وما هي إلّا ثوانٍ قليلة حتى فقدتُ الوعي.

أتوقَّعُ أنّي نمتُ ساعةً أو ساعتين قبل أن أفتحَ عينيَّ على شارعٍ نظيفٍ تمتدُّ الصحراء ذهبيّةً إلى جانبيه بعيداً، في نهايتهِ بناء كبير على شكل قلعةٍ تبدو هاربةً من تاريخ مُزيَّف، عند المدخل الأمامي الكبير أبرز عبيد بطاقته للحارس الذي فتَح البوّابة فوراً، فعبرنا الطريق الداخلي الواسع الخالي إلّا من سيّارات متوقِّفة، عدّةُ مبانٍ تصطفُّ بعضها بجوارِ ببعض، يشيرُ للسائق أن ينزلنا عند البناء البنّي، تتوقف السيّارة ونهبط منها، يمشي سريعاً إلى داخل البناء وأنا أتبعه مستلبَ الإرادة، محاصراً بكثيرٍ من الأشياء، يرنُّ هاتفي فيطلب منّي أن أُغلِقَه تماماً، أنظرُ إلى شاشة الهاتف فأجدُ رقمَ بيتِها يطلبني، يهبِطُ الدمُ في جسدي، أرجوه السماحَ لي بالردّ، لكنَّه يندفع نحوي ساحباً الهاتف من يدي واضعاً إيّاهُ على الأرض قبل أن يبدأ بتكسيرِهِ بكعبِ حذائِهِ.

ندخل إلى المصعد ثمَّ نتوقف في الطابق الرابع، نمشي خطوات حتى ندخل إلى درج الطوارئ ونصعد طابقاً واحداً، ثمّ ننحرف يميناً عبر ممرّ طويل يوصلنا على ما يبدو إلى بناء آخر، نهبطُ مرّةً أخرى بالمصعد عدّة طبقات، لا أستطيع تحديدها، فالمصعد فيه كبسة زرّ واحدة لا تشير إلى رقم، فضلاً عن أنَّ واجهتَهُ مغلقةٌ ببناء إسمنتي لا يستطيع الراكبُ فيه رؤية الخارجِ على خلاف أغلب المصاعد في هذه البلاد.

ينفتحُ البابُ على ممرٍّ طويل، نعبره، فتبدو الأصوات أكثر وضوحاً، حفلات تعذيب ممنهج تحدث هنا، نحنُ تحت الأرض الآن، يقول إبراهيم. أتوقَّف مكاني، أحاول الرجوع خطوة إلى الوراء، قبل أن يتابع الحديث:

– لقد كشفتَ سرّي، وهذا خطرٌ عليك، يصمت قليلاً، وعليَّ يا علي.

يُمسِك بيدي اليمنى، يضعها خلف ظهري، يلفُّ ربطة عنقي حول رقبتي ممسكاً إيّاها بيده الأخرى ويقودني أمامه، لا مجال هنا للمغامرة والمقامرة في شيء سوى أن أكون لطيفاً ما استطعت، يدفعُ باب غرفةٍ بقدمِه فينفتح الباب على طاولةٍ وكرسيّ واحد، بعض القضبان الحديدية مغروسة في الحائط، مقابس كهرباء تتدلّى منها أسلاكٌ طويلةٌ تنتهي بكُلّابات مختلفة الألوان، آثارُ تحطُّم زجاج، عدّةُ قوارير لمشروبات روحية مختلفة، بعضها فارغٌ وبعضها فيه النصف أو أقلّ، كثيرٌ من أعقاب السجائر على الأرض، قيودٌ معلَّقةٌ على القضبان الحديدية في الحائط، يضعُ يديَّ في إحداها ويغلقها بحركة سريعة، صرتُ أردّد ما قاله لأحمد في ظلام الليل:

– أبايعُكَ على كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، على السمعِ والطاعة في العُسرِ واليُسر، والمنشط والمَكرَه، وعلى الجهاد والثبات، والصبرِ والهجرةِ إلى الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم، أبايعُكَ على كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، على السمعِ والطاعة في العُسرِ واليُسر، والمنشط والمَكرَه، وعلى الجهاد والثبات، والصبرِ والهجرةِ إلى الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم.. أُبايـ..

قدمهُ تضربني أسفل ظهري، شعرتُ بتكسُّر العظامِ في عمودي الفقري... امتزج الكلام بالضرب الذي انهال به عليَّ بالشتائم التي

أطلقها، أدار جسدي للحائط، لم يكن يريد أن يرى وجهي، كنتُ عارَه المتحرّك، أرادني جامداً، الدمُ يهبط من فمي وأنفي، رأسي يرتطم مرّات كثيرةٍ بالقضبان الحديدية ثمّ يرتدّ، صرخت باسم أحمد... كرّرته أكثر من مرّة...

– أحمد... أحمـ... ددد... أحماااد... ددد

في كلّ مرّةٍ كنت أذكر اسم أحمد فيها كان يزيد من ضرباتِه، اشتاط غيظه أكثر، كان صورة عن جندي المارينز بلسانٍ عربي، ابتعد متراً أو اثنين، ثمّ اقترب حاملاً سلكاً كهربائياً، مزَّق القميص الذي أرتديه من الخلف، وضعَ الكلّابات على ظهري، لسعةٌ تخترقُ حواسّي، خدَرٌ يسيرُ في أطرافي.

– أحمد... أحمد... يا الله...

– هل تريد أن تعرف أين أحمد؟

كان الدم يغطّي وجهي تماماً، هززت رأسي مائلاً نحو صوتِه، رفع السلك عن ظهري وربطه بأظافر يديَّ، رفعَ مقدار الكهرباء إلى الضعف وصرخ:

– لقد أرسلته إلى غوانتانمو... بعد أن مرَّ بغرفةٍ ما هنا، كان واحداً من قيادات تنظيم القاعدة، لقد أرسلتُهُ إلى غوانتانمو كما أرسلتُكَ أنت الآن عبر مسافرٍ حمَلَ جواز سفرِك قبل ساعةٍ تقريباً مِن مطار دبي إلى القاهرة، أنت الآن – قانونياً – لستَ موجوداً على أرض الدولة هنا.

الآن فقط اكتملت قصّة الخروج عندي، الحلقة الغائبة عن تسعةِ شهورٍ في السجن دون أن يتحدَّث معي أحدٌ فيها بشيء بعد خروجي من الزنزانةِ التي جمعتنا معاً، عن اختفاء أحمد المفاجئ، واختفاء إبراهيم، الكهرباء تسير في جسدي، يربطُ الكُلّابات في صدري، بعد

أن نزعها عن أظافري حيث انكسر ظفر إبهامي الأيسر، الدمُ يسيطر على رأسي، روحي تنازِعُ رغبتها في البقاء.

– لماذا يا إبراهيم؟ لماذا؟

– هناك أسئلة لا إجابة لها، أنت الوحيد الذي يعرف هويّتي على هذه الأرض، أحمد ودَّعني قبل أن نفترق بعد أن أعطاني كلّ المعلومات عن تركيبة التنظيم في العراق وسوريا ولبنان والأردن، لم نكن لننتظر وصولهم إلينا هنا، رأيتُهُ وهو يتّجه إلى الطائرة والكيس في رأسه، مقيَّد القدمين واليدين، قبل ذلك بساعات عانقني وبكى بعد أن أوصاني على أخته في سوريا إن خرجتُ، الأحمق أخبرني تفاصيل لم نكن نحلم بمعرفتها، الآن يا علي، يا د. علي، سأحقنك بإبرةٍ في رقبتك، ستشعر بوخزة صغيرةٍ فقط وبعد ربع ساعة سترتاح إلى الأبد.

أخرج الإبرة من جيبِه، حاولتُ إخفاء رقبتي بين كتفيَّ، فضربني بين فخذيَّ حتى استحكم من استسلامي التامّ، زرع السائل في مكانِه، سحب الكرسيَّ وجلس بقربي يدخِّن، بقي لي ربع ساعة في هذه الحياة التي تشبِه كلَّ شيء إلّا الحياة.

أحفظُ أيّامي عن ظهر قلب، الزمانُ فيها مكان والمكان فيها يُقاس بمقدار الفرحِ الذي أصاب الزمان حين مرّ، وأعرفُ أنَّ الغرباء – دوماً – أصحاب أخطاء لا تُغفَر، لهذا كنتُ أتمسّك أبداً بدائرة الأمان من حولي، أولئك الذين لا أتكلَّفُ حين أتصرّف أمامهم، أو أنطق بوجودهم الحروف كما سمعتها في الحارة التي نشأتُ بها، انطلاقُ اللهجة الأولى للّسان دون ضابط، أنا الآن أشبِهُ نفسي رغمَ أنّي ألبَس غيري، أحملُ ملامحهُ وأدفعُ ثمنَ أخطائه. مرَّت حياتي دون أن أراها، مشَت إلى جانبي بخطٍّ أخذ شكلَ التوازي معي، فعِشتُ بذاكرةِ الحياةِ السابقة، وانتظرتُ – دوماً – ما يأتي دون أن أُتعِبَ نفسي عناء

البحث عنه، ساقَتني الأقدارُ نحو الغدِ هارباً من خيالات الأمس، طالباً النجاةَ من إساءةِ ظنِّ الغرباء بي.

مرَّت حياتي كابنٍ بارٍّ للعاصي الذي أسمع صوت هبوط مائه من أعلى الناعورة نحو الخشبِ المتقاطِعِ فوق النهر، يتردّد صدىً للعنين الذي صارَ يقيناً أنَّ الاستحالةَ تعني التصالحَ مع نهرٍ يسيرُ من الشمالِ إلى الجنوب، دوران الناعورة يعني أنَّ الحياةَ تسيرُ والأشجار تكبر، وصوتها يعني أنَّ النهاية قادمةٌ، صورتها تظهر وتختفي أمامي، علَّقتُ حياتي على أطرافِها، قسَّمتها إلى ثلاثة أقسام:

في الدقائق الخمس الأولى استعدت رحلتي كاملة حتى خروجي إلى العراق، سيرةُ جدّي، كان وجهها هو نقطة النور الوحيدة في حياتي تلك.

في الدقائق الخمس التالية: حياتي في بغداد، علاقتي مع أبو الكرم، زياد، هيثم، رحلاتنا في المدن العراقية، الحياة في ظلّ الحرب مع إيران، الشهداء بلا أكفان الذين كنّا ندفنهم، حرب الكويت، الحصار الاقتصادي، زيارة صدّام لعيادتي، المعتقل الأميركي، ظهور أحمد، عودة الروح إليَّ بذكرِها.

أمّا الدقائق الخمس الأخيرة، فكانت لاتّصالي بها في المرّتين، تفاصيل صوتها، لهفتي لها وبها، الروح التي انطلقت من قيدها أخيراً، انتظاري الأيّام القليلة الباقية كي نلتقي، خياليَ المجنون بشكلها، شهقةُ العطرِ حين يلامِسُ جسدها، ثباتُها في صورتِها الأولى عندي، تمنَّيتُ لو ظلَّت تلك الدقائق الخمس عمراً إضافياً يُعوِّضني عن حياةٍ مُزوَّرةٍ عشتُها بحقيقةٍ واحدة هي الاشتياقُ لها.

ليسَ من طبعِ الحياةِ تمامُ الحُظوظ، فكلُّ خيانةٍ خلفها صديقٌ حميم، بدأ بصري يزيغُ، إنّها الثواني الأخيرة الباقية، والغيابُ وقتَ اقتراب اللقاء ووُجوبِ الحضور؛ تخاذُل، أشمُّ رائحة الدخان من

سيجارته الثالثة، قاتلي يجلس بجانبي، يُشعِل النار تحتي كما يشعِلُ سيجارةً من أخرى، أحاول فتح بصري فتقعُ عيناي على ظفر إبهاميَ المكسور، هناك نتوءٌ في جانبه الأيمن، أُغالِبُ عدَمَ توازني، أمدَّ رأسي نحوه لتصطدِم جبهتي بالقضيبِ الحديدي، أعضُّ بأسناني الأمامية على نتوء الظفر، أقطَعُه، أمسكه بين شفتَيَّ، لقد تبلَّل بالدم تماماً، صار مثل قلم رصاصٍ زال عنه الخشب، أمسِكهُ بيدي اليمنى، بين الإبهام والسبّابة، بيدٍ مهزوزة وأنفاسٍ مقطوعةٍ وعينين زائغتين أخطُّ بين قضيبين شهدا موتَ غيري، بحروفٍ غير واضحةٍ؛ أكتبُ لها دون غيرها:

أُحبّك.

2003 — هذه البلاد تخاف من التعلّق بالمطلق، منيعة ضدّ الإطراء ولا يغريها أبداً النفاذ إلى الجوهر. أسقطت العثمانيين وطردت الإنكليز وها هي تخرج من وطأة الحكم المستبدّ. سنواتها الحالية علّمتها كيف تصافح من يأتيها باليد اليمنى، بينما تكون يدها اليسرى على السلاح. صفحات التاريخ فيها لا تحتفظ بروايات الضعفاء وقصصهم. هذه البلاد لا تخاف من البشر الساكنين فيها وإنّما تخاف من أحلام الشيطان القابع داخلهم. عشتُ فيها على هامش حياتها بين ثنائيّتي المواطن الصالح والطالح، عارفاً تماماً الفرق الكبير - في شوارعها - بين الخصم والعدوّ. فكيف وصفتني، قبل أن تسدل الستار على المشهد الأخير من حقبة عراق صدّام حسين، في واجهة الأحداث؟

«رواية مبنيّة بإتقان جماليّ أخّاذ لتوازي واقعاً إنسانياً مأساوياً؛ فيما هي تضيء - بذكاء سرديّ ولغة عالية - مَمكناتٍ تَجاوزه صوب واقع يليق بإنسانيّة الإنسان.»

— عبد الرحمن سيسو



عبد الله مكسور — صحافي وروائي عربي (مواليد سوريا - 1983)، يعمل بالصحافة المرئيّة والمكتوبة منذ عام 2007. حائز إجازة جامعية في الآداب والعلوم الإنسانية. عضو في الاتّحاد الدولي للصحافيين ونقابة الصحافيين البريطانيين، وفي نادي القلم الدولي ونادي القلم الفلاماني في بلجيكا. مدرّب دولي في الأمن والسلامة المهنية الصحافية وتغطية أماكن الصراع والتوتّر. يقيم في المملكة المتّحدة حيث يعمل في التلفزيون العربي. صدر له ستة أعمال روائية حتى الآن.



موزع من جمعة الناشر
هاشيت انطوان A.